نداء طه .

دراسات في الشاهنامة.

دراسات في الشاهنامه

تأليف

الدكتور طه ندا

مدرس اللغات الشرقية بجامعة الاسكندرية

الناشر : دار الطـالب بالاسكندرية

زغلول حماده . ت ٧١١٥٦

الـدار المصـرية للطـباعة

١٠ ميدان محمد على ت: ٢٤٧٧٠ إسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

على الرغم من المكانة الرفيعة التى تتمتع بها الشاهنامه فى الدراسات العالمية ، وعلى الرغم مما ظفرت به فى الغرب من دراسات وأبحاث لم أجد فى العربية من يعنى بها وبشاعرها العناية الكافية التى تليق بمثل هذا العمل الأدبى الخالد .

وكانت نقطة البداية فى ابحاث الشاهنامه ، باللغة العربية ، ما كتبه أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام فى سنة ١٩٣٢ وجعله مدخلا لترجمة البندارى التى نشرها . وكان خليقا بهذا المدخل أن يغرى بمادته المركزة وعرضه الممتع كثيرا من الباحثين لمتابعة البحث فى هذا الموضوع . ولكن يظهر أن قلة ما بأيدينا فى مصر من مصادر البحث وضآلة ما فى مكتباتنا العلمية العامة من المصادر الأصلية حوّل همة الناس عن هذا الموضوع . ولئن صرف هذا عن البحث المستوفى والدرس المستقصى فإنه لن يصرف عن المحاولة . وحسبنا أن يكون فى أيدينا نص الشاهنامه نستخرج منه ما يسمح به الجهد ويهدى إليه الفهم .

وإذا كانت الشاهنامه هى المصدر الأساسى فى كل دراسات تتعلق بها وتدور حولها فليس هناك ما يمنع من الاستعانة بغيرها من المصادر إذا كانت تجلو غامضا فى المصدر الأساسى أو تفصل موجزا أو تجعل الصور والأجواء أوضح وأظهر . ولهذا استفدنا من المؤلفات العربية والافرنجية التى عالجت موضوعات تشير إليها الشاهنامه فى سياق حوادثها أو كانت تخدمنا فى دراسة الشاهنامه نفسها .

ونتبه هنا إلى أن الموضوعات التى درسناها فى هذا الكتاب كانت مما

تعرضت لها الشاهنامه أو أشارت إليها إشارة عابرة فى ثنايا الحوادث لأننا التزمنا أن تكون الدراسات فى الشاهنامه ومقيدة بها . وليس هناك ما يدعو للخوض فى موضوعات لا نواة لها فى الشاهنامه . وكان القصد من هذا كله أن تكون هذه الموضوعات تصويرا لحياة الايرانيين القدماء كما تصورها الشاهنامه

وإذا كنا قد أصبنا شيئا من التوفيق فيما تناولناه من موضوعات هذا الكتاب بقسميه فمن الله وهو ولى التوفيق . وإذا كنا قد جانبنا الصواب فحسبنا أنها محاولة كادحة ورجاؤنا أن يهدى الله من بعدنا إلى أفضل مما هدينا إليه ؛

الابراهيمية

فى ١٤ / ١٢ / ٥٤

طه ندا

دراسات تاريخية

١ – الفردوسى

يحيط الغموض بحياة الفردوسى وتاريخه من كل جانب مع ما للشاعر من مكانة عظيمة فى تاريخ الفرس الأدبى . فاسم الشاعر غير معروف على وجه التحقيق ، وتاريخ مولده ووفاته محل اختلاف كبير بين الباحثين ، ونشأته الأولى وحياته الخاصة مما يخفى علينا إلى حد كبير ، وحالته الاجتماعية تضاربت فيها الأقوال ، واتصاله ببلاط السلطان محمود الغزنى لماذا كان وعلى أى نحو تم أمر تختلف فيه الروايات . وعلى هذه الوتيرة من الغموض والإبهام تسير حياة الشاعر العظيم فى كل ناحية من نواحيها . ومن هذا الغموض ، والتضارب فى الروايات يتبين للقارىء مدى ما يلاقيه المتعرض لمثل هذا البحث من المشقة والعناء . ولا مفر لنا من أن نواجه هذه المشاكل الجمة مشكلة مشكلة .

اسم الشاعر وكنيته :

من المصادر ما يسميه « حسنا » . ومنها ما يسميه « أحمد » ، ومنها ما يسميه « منصورا » . وكما اختلفوا فى اسمه اختلفوا فى اسم أبيه أيضا . فهو مرة « أسحق بن شرف شاه » ومرة أخرى « على » ، وثالثة « أحمد بن فرخ » . ولو كان الشاعر قد ذكر فى الشاهنامة اسمه أو اسم أبيه لما نشأ كل هذا الخلاف .

أما كنية الشاعر « أبو القاسم » فمتفق عليها بين الجميع .

تخلصه :

ولم يختلفوا فى تخلص الشاعر وهو « الفردوسى » ، وانما اختلفوا فى سبب هذه التسمية . فقال بعضهم إنه سمى كذلك لأن أباه كان بستانيا فى بستان يملكه سورى بن المغيرة يعرف بالفردوس . ومنهم من يرى أن السبب فى هذه

التسمية بستان - فردوس - كان يملكه الشاعر نفسه خارج مدينته طوس. وهناك من يذكر أن السلطان محمودا الغزنى لما دخل عليه الشاعر وأنشده شعره طرب له وقال «لله درك قد صيرت مجلسنا مشرقا كالفردوس» والراجح عندنا أن الشاعر كان معروفا بهذا التخلص قبل قدومه على السلطان كما أن فى الروايات التى تتحدث عن اتصال الشاعر بالسلطان، وتضاربها فى موقف السلطان من الشاعر وكيف استقبله فى بلاطه ما يضعف الرأى الأخير فى سبب التسمية.

متى وأين ولد الشاعر :

أما متى بدأت قصة حياة الشاعر فهذا أمر مشكل. وما دامت بداية القصة غامضة فنحن مضطرون أن نبدأ من نهايتها. والشاعر يشير إلى عمره حينما فرغ من الشاهنامة فيقول ما معناه [1] «الآن وقد قارب العمر الثمانين عصفت الرياح بآمالى دفعة واحدة». والمعروف أن الشاعر أتم قصته حوالى سنة ٤٠٠ هـ. وعلى هذا يكون مولده قد حدث حوالى سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م. وقد أقر نولدكه هذا التاريخ إذ رأى أن ولادة الشاعر لا تبعد عن سنة ٣٢٠ هـ[2]

ومن بيت آخر للشاعر [3] يفهم أنه كان قد بلغ الحادية والسبعين حين أتم ملحمته إذ يذكر فى هذا البيت ما مفاده أن السن حين بلغت الحادية والسبعين كان الشعر قد ذاع فى الكون. وإذا كان المعروف أنه قد أتم كتابه الشاهنامة فى سنة ٤٠٠ هـ وكانت سنه إذ ذاك احدى وسبعين سنة فمن السهل أن نحدد تاريخ مولده على هذا التقدير فى سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م.

---

(١) شاهنامه : ص ٣٠١٧ ج ١٠ ط بروخيم تهران
(٢) الحماسة الايرانية : الترجمة الانجليزية بقلم Bogdanov ص ٣٩
(٣) شاهنامه : ص ٣٠١٧ ج ١٠ ط بروخيم تهران

وفى ترجمة الفتح بن على البندارى ما يفيد أن الشاعر قد انتهى من نظم كتابه فى سنة ٣٨٤ هـ بعد أن بلغ من العمر خمسا وستين سنة (١). وعلى هذا الاعتبار يكون الشاعر قد ولد فى سنة ٣١٩ هـ.

ومهما يكن أمر الاختلاف فى تحديد سنة ولادته فمما لا شك فيه أن هذه السنة أصبحت بعد ما قدمناه محصورة فى فترة قصيرة بين سنوات ٣١٩ و ٣٢٩ هـ.

وكانت ولادة الفردوسى فى قرية باژ من ناحيه طبران وهى قرية كبيرة تضم ألف رجل. وكانت ناحية طبران حسب قول ياقوت قسما من مدينة طوس التى كانت فى ذلك الزمان تنقسم قسمين (٢).

حالته الاجتماعية :

ليس فيما لدينا من المعلومات ما يعين على تكوين فكرة صحيحة واضحة عن نشأة الفردوسى الأولى. وكل ما لدينا عن حالته الاجتماعية شذرات وردت فى بعض المؤلفات مثل « چهار مقاله » واشارات جاءت فى قصته « الشاهنامه ».

فالعروضى، صاحب چهار مقاله، يذكر أن الاستاذ أبا القاسم الفردوسى كان من دهاقين طوس. وكانت له فى تلك القرية شوكة ومكانة، وأنه كان فى غير حاجة إلى الناس بما تدره عليه ضياعه من الدخل (٣). ولكن العروضى - رغم ما لكتابه من الأهمية فى الحديث عن الفردوسى - يشككنا فى صحة هذه القضية حين يذكر بعد ذلك مباشرة « ولم يكن له - أى للشاعر - سوى

---

(١) الترجمة العربية للفتح البندارى نشر عزام ج ٢ ص ٢٧٥، ٢٧٦

(٢) معجم البلدان : مادة طوس ج ٣ ص ٥٦٠ ط ليبزج

(٣) چهار مقاله : ص ٤٠ ط خاور تهران . المقالة الثانية الحكاية التاسعة

ابنة واحدة ، وكان يشتغل بنظم الشاهنامة وكل أمله أن يجهز ابنته بما يناله من الصلة على ذلك الكتاب . ولقد اشتغل خمسا وعشرين سنة إلى أن أتم ذلك الكتاب » (١) . فإذا كان الشاعر ينفق من عمره خمسا وعشرين سنة حتى يتم كتابا يرجو أن يستعين بمكافأته على تجهيز ابنته فكيف يكون غنيا ذا شوكة فى بلدته ؟ وكيف يكون ذا ضياع يستغنى بدخلها عما يصله به الناس ؟

وإذا تجاوزنا عن مقدار ثراء الشاعر الذى يشير إليه العروضى ، وجدنا أن عبارته تفيد أنه كان ممن يهتمون بالزراعة . وليس هناك شك فى هذا . والعروضى نفسه يذكر فى موضع آخر أن الفردوسى كان يقدر حي قتيبه الذى كان عامل طوس حق قدره لأنه أعفاه من الخراج (٢) . ويذكر فى موضع آخر من نفس الحكاية أن الفردوسى قد دفن فى حديقة كان يملكها وأن قبره لا يزال هناك (٣) . وقد مر بنا فيما قبل أن الفردوسى سمى بهذا الاسم نسبة إلى هذه الحديقة التى كان يملكها .

وهذا كله واضح فى أن دخل الشاعر كان يأتيه فى ذلك الوقت من الزراعة . أما مدى ما كان عليه من ثراء فهذا مالا تحققه نصوص العروضى .

والظاهر أن ضياع الشاعر التى يشير إليها العروضى لم تكن أكثر من هذه الحديقة التى ذكرها العروضى فى نصوصه ، وذكرها غيره من المؤلفين فى كتاباتهم عن الشاعر . وليس فيما لدينا من المصادر ذكر لأرض أخرى أو ضياع كان يمتلكها الفردوسى . ويبدو لنا أن هذه الحديقة لم تكن تدر على الشاعر دخلا كبيرا حتى اضطر أن ينفق من عمره خمسا وعشرين سنة فى عناء متصل لكى يتم الشاهنامة وينال ما أمل فيه من صلة يجهز بها ابنته . وليس

---

(١) چهار مقاله : ص ٤٠

(٢) نفس المصدر : ص ٤١

(٣) نفس المصدر : ص ٤٣

ببعيد أيضا أن يكون عامل طوس قد أعفاه من الخراج لضآلة ما يجنيه الشاعر من إيراد هذه الحديقة .

وفى الشاهنامة مواضع كثيرة يتحدث فيها الشاعر عن فقره ، وضيق المجال أمامه فى الحياة حين شرع فى نظم الشاهنامة دون أن يكون لديه ما يعينه على اتمام هذا العمل فيقول « إن ماله لم يكن وافيا للقيام بنفقات هذا العمل، وليس هناك من يشترى منه هذا العناء ، وأن الدنيا قد امتلأت بالحروب فلا مجال فيها لخير وقد ضاق العالم أمام الساعين » . (١)

وفى موضع آخر يذكر أن الله قد بعث اليه من شجعه على العمل ، وهيأ له أسباب التفرغ للنظم ، وأمده بما يحتاجه من المال فعاش فى ظل رعايته ناضرا كالتفاحة ، وارتفع إلى السماء . وكان راعيه هذا هو ابا منصور بن محمد الذى يقول الشاعر عنه إنه ابدى استعداده لمعاونته حتى تنطلق روحه إلى النظم ووعده أن يبذل له مايستطيع دون أن يتحدث إلى أحد بحاجته فكان الشاعر عنده كالتفاحة الناضرة (٢) .

وفى مواضع أخرى من الشاهنامه يشير الشاعر إلى ماتقدم من عمره ، وماعاناه من الفقر طيلة اشتغاله بنظم قصته فيقول :« وهكذا قضيت خمسا وستين فى حياة من الفقر والعناء » (٣) .

ويصرح الشاعر بأنه نظم هذا الكتاب ليستعين فى أيام شيخوخته بما يناله من وراء نظمه من عظمة ومال وجاه ، (٤) وأنه وصل هذا الكتاب باسم محمود ليعينه

---

(١) شاهنامه : ص ٩ ج ١ ط بروخيم تهران
(٢) شاهنامه : ص ١٠ ج ١
(٣) شاهنامه : ص ١٢٧٤ ج ٥
(٤) شاهنامه : ص ١٢٧٣ ج ٥

على مواجهة الحياة فى هذه السن المتقدمة وليأخذ بيده (١).

ومن مثل هذه النصوص والإشارات يتبين أن الشاعر كان متواضع الحال أو متوسطه على أحسن الفروض ولكنه لم يكن ثريا. فإذا قيل كيف يتفق لشاعر - هذه حاله - أن يرفض هبة السلطان فيما بعد مهما يكن قدرها قلنا إن هذه الهبة جاءت أولا مخيبة لآمال الشاعر خيبة عظيمة، وجاءته ثانيا متأخرة بعد أن كانت السن قد علت، والآمال قد خمدت فى صدره، ونهاية العمر قد اقتربت. وسواء أكان قد وزع الجائزة بين الحمامى والفقاعى كما جاء فى احدى الروايات؛ أو ردها إلى السلطان ردا عنيفا لا ينتظره سلطان من شاعر كما جاء فى رواية أخرى فالواضح أن تصرف الشاعر كان تصرف رجل عزيز النفس أبى، يحتفظ بكرامته ويقدر فنه حق قدره. وإذا كان الشاعر لم يورث ابنته مالا وثراء فقد أورثها هذه العزة والإباء حتى إنها رفضت - بعد أن مات ابوها - أن تقبل هدايا السلطان.

رحلة الشاعر إلى غزنين :

لماذا رحل الشاعر من طوس إلى غزنين؟ يذكر دولتشاه أن عامل طوس كان قد ظلمه وجار عليه فسعى إلى غزنه (غزنين) لشكايته (٢). ويذهب هذا المذهب أيضا «قاضى شوشترى» الذى يذكر أن الشاعر اغترب عن أهله ووطنه فى طوس لظلم حاكمها وعدوانه. (٣) ويروى صاحب تاريخ گزيده أن الشاعر هرب من طوس إلى غزنين. (٤) وهذه الروايات كلها مستبعدة عندنا لأنها مناقضة

---

(١) شاهنامه : ص ١٢٧٤ ج ٥
(٢) تذكرة الشعراء : ص ٢٧ ط لاهور تصحيح محمد اقبال
(٣) مجالس المؤمنين : ص ٤٩٧
(٤) تاريخ گزيده : ص ٨٢٢ ط براون ١٩١٠

لرواية العروضى عن عامل طوس الذى كان صاحب فضل على الشاعر ، وكان قد أعفاه من الخراج كما سبق بيانه ، فقدر له الشاعر هذا الصنيع .(١) هذا إلى أن رواية العروضى أوثق ، وقيمة كتابه من الناحية العلمية أعظم .

اذاً ، ماذا كان السبب ؟ قلنا فيما سبق إن الشاعر كان متواضع الحال ، ولم يكن لديه من الوسائل مايعينه على الشروع فى عمله الفنى العظيم حتى أخذ بيده أبو منصور محمد ، ومد عليه جناحه ، وقدم له من المعونة ماامكنه أن يبدأ العمل. ولكن هذا الرجل النبيل لم يدم للشاعر طويلا فتوفى بعد أن كان الفردوسى قد قطع فى نظم ملحمته شوطا . وهنا واجه الشاعر المشكلة التى كان قد واجهها من قبل . من له يعينه ويأخذ بناصره حتى يفرغ من منظومته ؟ وهنا أيضا تذكر الشاعر ماكان أبو منصور محمد قد نصحه به قبل وفاته من ضرورة اهداء الكتاب إلى الملوك بعد اتمامه . ولم يكن أمام الشاعر من الملوك فى ذلك الوقت من هو خير من السلطان محمود فرحل اليه ، واتصل به . ولاداعى لأن نطيل الكلام فى هذه النقطة أو نورد الأدلة على صحة هذا الرأى الذى ذهبنا اليه لأن موضعه فى البحث سيأتى فيما بعد عند الكلام على الشاهنامة وتأليفها . ومن هذا نرى أن الشاعر لم يرحل من طوس لظلم لحقه من حاكمها ولا رغبة فى شكايته .

كيف اتصل الشاعر بالسلطان :

هناك روايات مختلفة فيما يتعلق بهذا الموضوع . فدولتشاه مثلا يذكر أن الفردوسى حين بلغ «غزنين» صادف فى طريقه مجلسا ضم مشاهير شعراء ذلك العهد وهم عنصرى ، عسجدى ، وفرخى . فلما رأوه مقبلا عليهم أرادوا أن

---

(٤) چهار مقاله : ص ٤١

يصرفوه عنهم ، وافهموه أن هذا المجلس خاص بالشعراء ، فلما أخبرهم بمشاركته فى فن الشعر أرادوا اختباره فنظم كل واحد منهم مصراعا على قافيــة صعبة وطلبوا اليه أن يأتى بالمصراع الرابع . فقال عنصرى :ـ

لا يبلغ القمر فى ضيائه مبلغ عارضك (١)

فرد عسجدى :

ليس الورد فى البستان مثل وجنتك (٢)

وواصل فرخى :ـ

سهام أهدابك تخترق الدروع (٣)

فأكمل الفردوسى المصراع الرابع :ـ

مثل سنان گيو فى حرب پشن (٤)

فأعجبهم قوله ، وفطنوا إلى ما فيه من الاشارة إلى قصص الفرس القديمة . وأراد العنصرى أن يستوثق من علمــه وقدرته فامتحنه فى بعض الأبيات والأشعار المشكلة فوجده قادرا ثم يتابع دولتشاه روايته فيذكر أن السلطان محمودا كان فى ذلك الوقت قد طلب أن ينظموا له تاريخ ملوك العجم ، ولم يجدوا من يصلح للقيام بهذا العمل حتى اهتدى العنصرى إلى الفردوسى ، وعرض أمره فى الحال على السلطان الذى استدعى الشاعر ، وراقه ما ارتجله فى مدحه حين مثل أمامه :

حينما يغسل الرضيع شفته من لبن الأم
فأول ما ينطق به فى المهد اسم محمود (٥)

---

(١) چون عارض تو ماه نباشد روشن
(٢) مانند رخت گل نبود در گلشن
(٣) مژگانت گذر همى كند أز جوشن
(٤) مانند سنان گيو درجنگ پشن
(٥) چو كودك لب أز شير مادر بشست
بگهواره محمود گويد نخست

فكلفه أن ينظم الشاهنامه .[١]

ويتفق شوشترى مع دولتشاه فى مجمل هذه القصة وإن كان هنـاك خلاف بينهما فى بعض التفاصيـــل . فشوشترى يذكر أن السلطـان كان قد عهـد إلى العنصرى فى نظم تاريخ ملوك العجم . وكان هذا أمراً مشكلا بالنسبة اليه ، فلما وقع على الفردوسى وعلم أنه كفء للاضطلاع بهذا العمل ارتاح لذلك وابلغ أمره إلى السلطان الذى كلفه القيام بهذه المهمة .[٢]

ويذكر حمد الله المستوفى نفس هذه القصة [٣]. ولا يقدم لنا العروضى شيئا من التفصيلات فى هذا الصدد ولـكنه يكتفى بأن يحدثنا أن الشاعر حمل قصته معه ، وتوجه إلى حضرة السلطان فى غزنين وقدمها إلى الرئيس الـكبير أحمد بن الحسن [٤] الذى قبلها وعرضها على السلطان [٥] .

وبغير أن ندخل فى تفاصيل - لم يأت دورها بعد - ينبغى ألا نلتفت إلى الروايات السابقة باستثناء رواية العروضى . فليس من السهل على نفس كبار شعراء هـذا العهد أمثال عنصرى وفرخى وعسجدى أن يعترفوا للفردوسى بالفضل ، وأن يقدموه على أنفسهم فى مثل هذه البساطة واليسر . وليس مما يقبله العقل أن يقرأ القارىء أن السلطان كان قد عهد إلى عنصرى - وهو كبير شعراء عصره - أن ينظـــم الشاهنامه فعجز عن ذلك وارتاح إلى ما رآه من قدرة الفردوسى - ولـكن المعقـول أن الشاعر بعد أن فقد راعيه أبا منصور محمد ، اتجه إلى السلطان فى غزنه بما كان قد نظمه من ملحمته من تلقاء نفسه أو لدعوة وصلته من السلطان الذى لا يستبعد أن يكـون قد بلغه خبر الشروع فى نظم

---

(١) تذكرة الشعراء ص ٢٧

(٢) مجالس المؤمنين ص ٤٩٨

(٣) تاريخ گزيده ص ٨٢٢

(٤) هو ابو القاسم أحمد بن الحسن الميمندى وزير السلطان

(٥) چهار مقاله ص ٤١

هذه الأقاصيص فرأى أن يدعو إلى بلاطه ناظمها كما كان يفعل فى دعوة غيره ممن يبلغه أمرهم من أهل العلم والأدب .

وهناك فى بلاط السلطان اتصل الفردوسى ببعض أهل الفضل والأدب كالسيابى الأديب الوزير الميمندى - وفق ما يقول العروضى - أو بالفضل ابن أحمد الاسفراينى كما يقول غيره .

وأغلب الظن بعد ذلك أن الشاعر لقى من السلطان - أول الأمر - بعض التشجيع والاكرام ، ثم تغيرت الحال فيما بعد على نحو ما نذكره .

موقف السلطان من الشاعر :

قلنا إن الشاعر لقى من السلطان فى أول الأمر التشجيع والرعاية . وفى بعض المصادر أن السلطان قد أفرد له جناحا فى قصره زينه بالاسلحة وصور الأبطال حتى يعيش الشاعر فى جو القصة ، ورتب له معاشا ليتفرغ للنظم . ثم تغير موقف السلطان من الشاعر بعد ذلك فماذا كان السبب ؟ يرى دولتشاه أن الفردوسى فى اتصاله ببلاط السلطان لم يكن يبالى بغلامه "إياز" . وكان «إياز» هذا غلاما تركيا من أقرب خواص السلطان وأحبهم إلى قلبه . (١) فعاداه إياز ودس له عند السلطان واتهمه بأنه رافضى وحذره منه ومن خطر الرافضية مما حول عاطفة السلطان عن الشاعر (٢) . ولكن مصدرا آخر يبرىء إياز من هذا الاتهام . وهذا صاحب مجالس المؤمنين يذكر أن الشاعر حين هرب من غزنين خائفا من بطش السلطان لم يستطع أحد من عارفى فضله أن يعينه بما يلزمه فى سفرته ولكن « إياز » - وكان صاحب فضل ومروءة - أدرك

---

(١) يروى العروضى عن إياز أنه كان نضر الوجه ، غض العارض ، متناسب الأعضاء ، متسق الحركات . . الخ

(٢) تذكرة الشعراء . ص ٢٨

الشاعر بعد أن خرج من غزنين وقدم له ما استطاع من المعونة سرا دون أن يطلع أحدا على ذلك[١].

وفى چهار مقاله أن الوزير الميمندى كان له فى البلاط أعداء كثيرون فلما رأوا عناية الوزير بالشاعر دسوا لهذا الأخير عند السلطان واتهموه بالرفض والتشيع. وأقاموا من بعض أشعاره الدليل على ذلك[٢]. وكان السلطان محمود متعصبا فأثر فيه دسهم. ويبدو أن مسألة التشيع هذه لم تكن فى الأغلب سببا جوهريا بدليل أن أبا ريحان البيرونى كان يعلن التشع ومع ذلك دعاه محمود إلى بلاطه وأكرمه. وكان بلاط محمود يضم العلماء والفضلاء من كل مذهب كالهندى والمسيحى، واليهودى. ومع ذلك لم تكن مذاهبهم مانعة من إكرامهم.

والميمندى هو أبو القاسم أحمد بن الحسن الميمندى ؛ وكان رجلا عريق الأصل، كريم المحتد ؛ فصيحا، عالى الهمة، معروفا بالمقدرة والكفاءة. وقد اتجهت نية السلطان من أول الامر إلى إسناد الوزارة إليه لولا أن أوغر الوشاة قلب السلطان وصرفوه عن تعيينه. وأسندت الوزارة إلى أبي العباس الفضل ابن أحمد الذى استغل مركزه فى تحقيق المنافع الشخصية، وابتزاز الاموال، وظلم الناس حتى تدهورت الاحوال فى خراسان، وحل بأهلها البؤس والقحط، وعمت منه الشكوى فرأى السلطان أن يتدارك الامر بإسناده إلى الكفء القادر أحمد بن الحسن الميمندى. وكان الميمندى فى أول الامر يلى ديوان الرسائل للسلطان أيام كان السلطان صاحب الجيوش بخراسان من قبل أبيه. ثم وسع السلطان دائرة اختصاصه ونفوذه وولاه أمر عساكره، وأضاف إليه أعمال بست والرخج وكثيرا ما عهد السلطان إليه إنجاز المهام الخطيرة

---

(١) مجالس المؤمنين: ص ٥٠٤.

(٢) چهار مقاله : ص ٤١

فأنجزها على خير وجه ولذا أنس فيه السلطان القدرة والكفاية وهم أن يسند الوزارة إليه من مبدأ الامر لولا أن سبقه إليها الوزير أبو العباس الفضل بن أحمد . ثم عاد فأسندها إليه بعد أن فشل أبو العباس . وبلغ من ثقة السلطان فى الميمندى أنه كان إذا خرج للغزو وكل إليه تصريف الامور فى غيابه .

ومن مآثر الميمندى على العربية أنه لما ولى الوزارة أمر بالامتناع عن استخدام الفارسية إلا عن ضرورة لجهل من يكتب إليه وعجزه عن فهم العربية. والميمندى هذا هو الذى توسط عند السلطان محمود ليطلق سراح البيرونى ، فلما أطلقه أخذ يفهمه ما ينبغى على من يخالط السلطان من الاستحسان لرأيه ، والتأمين على قوله حتى يأمن جانبه ويتقى غضبه(١) .

وللمرة الثانية لم يسلم الميمندى من وشاية الواشين فإنه لما ارتفع أمره ، واستقل بضبط أمور الملك ، سعى جماعة من كبار الامراء فى الإيقاع بينه وبين السلطان ، ونجحوا فى حمل السلطان على عزله ، وحبسه فى قلعة من قلاع بلاد الهند . وظل الميمندى محبوسا هناك حتى توفى السلطان محمود ، وتولى بعده السلطان مسعود فأخرجه من تلك القلعة وأعاده ثانية إلى منصب الوزارة . وظل يشغل هذا المنصب إلى أن توفى فى سنة ٤٢٤ هـ(٢) .

هذا هو الميمندى الذى يقول العروضى إنه مهد السبيل فى البلاط للفردوسى ولكن هناك فريقا من الباحثين يخالفون العروضى فى رأيه ويرون أن الوزير الذى رحب بالفردوسى فى بلاط السلطان محمود كان أبا العباس فضل بن أحمد الاسفراينى . وحجتهم فى هذا أن الاسفراينى كان متعصبا للفارسية حتى أمر بنقل الدواوين من العربية إلى الفارسية . ومن المعقول أن يلجأ الفردوسى

---

(١) چهار مقاله : ص ٦٢ الحكاية الثالثة من المقالة الثالثة .

(٢) دستور الوزراء : لخوندمير . ص ٤٠ ط طهران نشر نفيسى .

إلى مثل هذا الرجل . كما أن الفردوسى نفسه قد أثنى عليه فى شاهنامته[١] بينما لم يرد فى الشاهنامه ذكر عن الميمندى . ويقال إن مصدر ما لقيه الفردوسى من الحرمان انقطاع صلته بأبى العباس الاسفراينى عند ما عزل هـذا الأخير وصودرت أمواله .

ويرجع البعض سبب ما لقيه الفردوسى من الحرمان والإعراض إلى الفردوسى نفسه الذى اعتبر الاتراك فى منظومته أعداء إيران ونسى أن محمودا تركى وأنه من سلالة هؤلاء الاتراك ، وكان من السهل أن يؤثر الوشاة على السلطان ما دام الشاعر ينظر فى منظومته إلى أجداد محمود هذه النظرة ، وليس بغريب أن يضيق صدر السلطان بعصبية الشاعر لقومه الإيرانيين الذين جمع فيهم الفضائل وجرد أعداءهم الاتراك عنها .

ويروى صاحب تاريخ سيستان أن الشاعر بعد أن فرغ من نظم الشاهنامه قدمها إلى السلطان محمود الذى قال بعد أن قرأها فى بضعة أيام إن هذه الشاهنامه ليست شيئا سوى الحديث عن رستم وبين رجال جيشى ألف رجل يشبهون رستم . ولكن الفردوسى تعصبا منه لم يشأ أن يعترف بوجود من يشبه رستم بين جند السلطان وأصر فى حضرة السلطان على أنه لم يخلق لرستم نظير حتى الآن ثم انصرف . فقال محمود لوزيره هذا الرجل الحقير يعرض بى ، فأشار عليه الوزير أن يقتله فطلبوه ولكنهم لم يجدوه[٢] .

فرار الفردوسى :

استطاع الوشاة أن ينالوا من الشاعر عند السلطان، وساعدهم الشاعر على

---

(١) الشاهنامه : ص ١٢٧٣ ، ج ٥ .

(٢) تاريخ سيستان : ص ٧ تصحيح بهار .

النيل منه بهذه العصبية الممقوتة ، فانصرف السلطان عنه ولم يكافئه بما كان قد وعده به عند اتمام الشاهنامه . ويقال إن السلطان قد اتجهت رغبته أول الأمر إلى مكافأته بستين ألف دينار ذهبا لكنها نقصت بفعل الوشاة وتأثيرهم إلى ستين ألف درهم فضة . ويروى أن الشاعر حين خرج من الحمام ولقى رسول السلطان وعلم منه أن الجائزة دراهم فضية وليست دنانير ذهبية ألقى أكياس المال على الأرض وطلب من الرسول أن يبلغ السلطان أنه لم يكن ليعانى ما عاناه فى سبيل إتمام الكتاب من أجل مبلغ كهذا . وفى رواية أخرى أن الجائزة جاءت مخيبة لآمال الشاعر فوزعها بين الحمامى وفقاعى كان قد شرب منه فقاعا احتقارا لقدر الجائزة .

وكان طبيعيا أن يغضب السلطان من فعلة الشاعر وأن يرسل فى طلبه . ولكن الشاعر لم يكن ليفعلها وينتظر فى المدينة حتى تأتيه رسل السلطان وتحمله اليه حيث يلقى جزاءه على هذه الاهانة التى وجهها إلى السلطان ففر من غزنة ليلا إلى هراة واختفى فى دار اسماعيل الوراق ـ والد الأزرقى الشاعر ـ ستة أشهر حتى كف عن طلبه رسل السلطان ، ثم انتقل بعد ذلك إلى طوس وحمل الشاهنامه وسار إلى ملك طبرستان فى ذلك الوقت الاصبهبد شهريار [1] . وأراد أن يقدم اليه الشاهنامه ويجعلها باسمه بعد أن يمحو اسم محمود منها . وكان اصبهبد شهريار خاضعا لنفوذ محمود فلم ير من الحكمة أن يقبل هذا العرض، وأخذ يسترضى الشاعر ، ويطيب خاطره، حتى ينسى ما لقيه من اهمال السلطان ويمحو ما كان قد أثبته فى الشاهنامه من هجائه . وقد طاب الشاعر نفسا، ورضى أن يمحو ذلك الهجاء ـ وكان مائة بيت ـ فاندرس ولم يبق منه كما يقول العروضى

---

(١) شهريار بن شروين حكم مدة طويلة وكان معاصرا لركن الدولة البويهى ، وشمس المعالى قابوس بن وشمگير .

سوى هذه الأبيات الستة [١] :-

لقد طعنوا على وقالوا إن ذلك الثرثار
قد شاب على حب النبي وعلى [٢]

ولئن تحدثت عن حبي لهم
لحميت مائة من أمثال محمود [٣]

إن ابن الأمة لا يحسن أمرا
ولو كان أبوه ملكا [٤]

ما أكثر ما أتحدث به في هذا الموضوع
الذي هو كالبحر لا أعرف له نهايه [٥]

لم يكن للملك مجال في فعل الخير
وإلا لرفعني فوق العرش [٦]

---

(١) چهار مقاله ص ٤٢ .

(٢) مرا غمز كردند كان پرسخن .
بمهر نبي وعلى شد كهن .

(٣) اگر مهرشان من حكايت كنم .
چو محمود را صد حمايت كنم .

(٤) پرستار زاده نيايد بكار .
وگر چند باشد پدر شهريار .

(٥) ازين در سخن چند رانم همی .
چو دريا كرانه ندانم همی .

(٦) به نيكی نبد شاه را دستگاه .
وگرنه مرا بر نشاندی بگاه .

ولما لم يكن أصله عظيما
فإنه لم يحسن الإصغاء إلى العظماء [١]

ويقضى الشاعر بقية حياته فى طوس ، ويشغل محمود بفتوحه فى الهند إلى أن جاء يوم كان السلطان عائدا فيه إلى غزنين من احدى غزواته فاعترضه فى الطريق أحد الثوار وقد تحصن فى قلعة حصينة ، فتوقف محمود لمنازلته . ورأى قبل الشروع فى القتال أن يرسل اليه رسولا يدعوه إلى طاعة السلطان والمثول بين يديه . وكان السلطان فيما يظهر قلقا من أمر هذا الثائر حتى انه سأل وزيره الميمندى ماذا يكون موقفنا لو رفض هذا الثائر ما دعوناه اليه . فتمثل الوزير ببيت الفردوسى الذى يقول فيه :—

إذا جاء الجواب مخالفا لرغبتى
فأنا والدبوس والميدان وافرا سياب [٢]

وسمع السلطان البيت ، فأعجبه ما يشيع فيه من القوة والحزم وسأل عن قائله فعرف أنه الفردوسى الذى قضى السنين الطوال ينظم الشاهنامه حتى أتمها دون أن يرى ثمرة لعمله . فأسف السلطان على ما كان من اهماله الشاعر ، وأراد أن يعوضه عما فاته ، فأرسل اليه بعد عودته إلى غزنين الهدايا العظيمة محملة على الإبل ، ولكن هذه الهدايا وصلت متأخرة إذ بينما كانت الإبل تدخل المدينة من بوابة « رودبار » كانت جنازة الفردوسى تخرج من المدينة من بوابة « رزان » .

---

(١) چو اندر تبارش بزرگى نبود .
ندانست نام بزرگان شنود .

(٢) اگر جز بكام من آيد جواب .
من و گرز وميدان وافرا سياب .

وفاة الفردوسى :

وفى أواخر عمر الفردوسى استولى عليه الضعف الشديد إذ كان عمره فوق الثمانين ، وخابت آماله فى الحياة والناس ، وأثر فيه جزعه على ابنه الذى مات قبله فى سن السابعة والثلاثين . وكانت نهاية الشاعر فى سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م . وترك من بعده ابنة شديدة الكبرياء رفضت هدية السلطان مع شدة حاجتها اليها فرأى المكلفون بالأمر أن يخلدوا بهذه الأموال ذكر الفردوسى فبنوا بها رباطا باسمه . وفى بعض المصادر أن اسم هذا الرباط « چاهه » .[١]

ودفن الشاعر فى الحديقة التى كان يملكها . وقد زار قبره النظامى العروضى فى سنة ٥١٠ هـ[٢] . ويذكر قاضى شوشترى[٣] أنه زار قبر الفردوسى فى خرائب طوس . وقد أمر بعمارته عبيد الله خان اوزبك ، ويزوره الناس وخصوصا جمهور الشيعة[٤] .

---

(١) چهار مقاله : ص ٤٣

(٢) چهار مقاله : ص ٤٣

(٣) القاضى الشوشترى هو سيد نور اله بن شريف المرعشى الشوشترى المعروف بقاضى شوشترى . قتل فى سنة ١٠١٩ هـ . وكتابه « مجالس المؤمنين » من مؤلفات القرن الحادى عشر الهجرى .

(٤) مجالس المؤمنين : ص ٥٠٦ .

٢ — انتشار الثقافة البهلوية فى العهد الاسلامى

يرجع الفضل فى تأليف شاهنامه الفردوسى أو غيرها من الشاهنامات التى تقدمتها إلى ماكان منتشرا فى ذلك الوقت من الثقافة البهلوية التى وصلت إلى المسلمين مترجمة فى أغلب الأحوال على يد فريق من المترجمين المسلمين وكانت هذه المؤلفات البهلوية القديمة معروفة لدى المؤرخين الإسلاميين . فالمسعودى مثلا يحدثنا عن كتاب للفرس يقال له « كهناماه » فيه مراتب مملكة فارس ، ويذكر عن هذا الكتاب أنه من جملة « آئين نامه » أى كتاب الرسوم ، وكان كتابا عظيما يقع فى آلاف الأوراق ، ولا يكاد يوجد كاملا إلا عند الموابذة وغيرهم من ذوى الرياسات[1] . وبلغ من انتشار المؤلفات البهلوية على عهد المسعودى أنه رأى بنفسه بمدينة اصطخر من أرض فارس فى سنة ٣٠٣ ه عند بعض أهل البيوتات من الفرس كتابا عظيما يحوى كثيرا من علوم الفرس وأخبارهم وأبنيتهم وسياساتهم وغير ذلك من المواد التى لم يجد المسعودى لها نظيرا فى كتب الفرس الأخرى « كخداى ناماه » . « وآئين ناماه » . « وكهناماه » ويظهر أن هذا الكتاب كان ذا قيمة كبيرة من الناحية الفنية إلى جانب أهميته التاريخية . ويتحدث عنه المسعودى فيقول : « قد صور (أى الكتاب) كل واحد منهم (أى من ملوكهم) يوم مات شيخا كان أو شابا وحليته وتاجه ومخط لحيته وصورة وجهه ، وأنهم ملكوا الأرض أربعمائة سنة (يعنى ملوك فارس من آل ساسان) وثلاثا وثلاثين سنة وشهرا وسبعة أيام ، وأنهم كانوا إذا مات ملك من ملوكهم صوروه على هيئته ورفعوه إلى الخزائن كى لا يخفى

(١) التنبيه والاشراف : ص ٩١ ط الصاوى ١٩٣٨ .

على الحى منهم صفة الميت وصورة كل ملك كان فى حرب قائما وكل من كان فى أمر جالسا وسيرة كل واحد فى خواصه وعوامه وما حدث فى ملكه من الكوائن العظيمة والأحداث الجليلة وكان تاريخ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد فى خزائن ملوك فارس للنصف من جمادى الآخرة سنة ١١٣ ونقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسية إلى العربية[١] » .

وبلغ من شيوع كتب الفرس أن حمزة الأصفهانى (المتوفى فى منتصف القرن الرابع تقريبا) لكى يكتب ما كتب عن ملوك الفرس اضطر إلى أن يجمع النسخ المختلفة النقل فاتفق له منها ثمانى نسخ وهى كتاب سير ملوك الفرس من نقل ابن المقفع وكتاب سير ملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرمكى وكتاب تاريخ ملوك الفرس المستخرج من خزانة المأمون وكتاب سير ملوك الفرس من نقل زادويه بن شاهويه الاصبهانى وكتاب سير ملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهانى وكتاب تاريخ ملوك بنى ساسان من نقل أو جمع هشام بن قاسم الاصبهانى وكتاب تاريخ ملوك بنى ساسان من اصلاح بهرام ابن مردانشاه موبد كورة شابور من بلاد فارس[٢] . وهكذا ترى أن حمزة استطاع أن يحصل على كل هذه النسخ فى الموضوع الواحد[٣] .

ويروى حمزة عن بهرام موبذ كورة شابور من بلاد فارس أنه جمع نيفا وعشرين نسخة من كتاب « خداى نامه » حتى يصلح منها تواريخ ملوك الفرس من لدن گيومرث والد البشر إلى آخر أيامهم بانتقال الملك عنهم إلى العرب[٤]

وفى عهد بنى العباس اشتغل الموابذه الايرانيون فى فارس وبغداد بالأمور

---

(١) التنبيه والاشراف : ص ٩٢، ٩٣ .

(٢) تاريخ سنى ملوك الأرض : ص ٩ ط برلين .

(٣) عدد النسخ سبع لا ثمان كما ذكر حمزه

(٤) نفس المصدر : ص ١٩

العلمية والأدبية . ونرى فى عصر المأمون « آتور فرن بغ فرخ زاتان » الموبذ يؤلف كتابا فى بضع مجلدات يحتوى على أهم الآداب الدينية الزرد شتيه وهو كتاب « دين كرت »[١] . وفى سبك شناسى بيان طويل بأسماء ما ترجم من الكتب الفارسية إلى العربية فى شتى أنواع المعارف[٢] .

ومن أشهر المترجمين فى هذا الميدان عبد الله بن المقفع الذى، ترجم فى حدود سنة ١٤٢ هـ كتاب « خداى نامه » فى تاريخ ملوك ايران . ولسوء الحظ فقدت الترجمة العربية لابن المقفع . وكان هذا الكتاب معروفا لدى المؤلفين فى العهود الاسلامية .

وهناك غير ابن المقفع نفر اشتغلوا بسير ملوك ايران فترجموا عن البهلويه مباشرة أو قاموا بتهذيب واصلاح ترجمة ابن المقفع وغيرها من الترجمات أمثال محمد بن الجهم البرمكى ، محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى ، وهشام بن قاسم الأصفهانى ، وموسى بن عيسى الكسروى ، وزادويه بن شاهويه الأصفهانى وغيرهم ممن ذكر اسماءهم حمزة الأصفهانى فى تاريخه ، وابن النديم فى فهرسته ، وأبو ريحان البيرونى فى الآثار الباقية ... الخ

وإذا كان معظم هذه المؤلفات أو المترجمات التى تتصل بسير ملوك الفرس لم تصلنا نحن المتأخرين إلا أن المتقدمين قد استفادوا منها واقتبسوا عنها كثيرا من الاقتباسات نجدها فى كتبهم أمثال الطبرى، والمقدسى، وابن قتيبه الدينورى، المسعودى ، حمزه الأصفهانى ، البيرونى ، والثعالبى وغيرهم .

ولكن ماهى أهم هذه المؤلفات أو المترجمات التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت ، وعرفها المؤلفون فى العهد الاسلامى ، وكانت مصدرهم فيما ألفوه من الشاهنامات .

---

(١) سبك شناسى . محمد بهار . ص ١٤٥ ج ١

(٢) نفس المصدر والجزء ص ١٥٥

٣ ـ مصادر الشاهنامات المختلفة

خداى نامه :

هذا الكتاب من أهم ما اعتمد عليه مؤلفو الشاهنامات المختلفة . واصل اسمه فى البهلويه «خوتاى نامك» . وخوتاى بمعنى شاه . فاسم الكتاب على هذا «شاه نامه» . وخوتاى نامك البهلوى كتاب فى تاريخ وسير ملوك إيران من عهد كيومرث حتى آخر الملوك الساسانيين . ويسميه المؤلفون العرب «سير الملوك» وقد كتب فى زمن يزدجرد الثالث [1] وبأمره على يد دهقان عالم اسمه دانشور . وكانت مادة هذا الكتاب فى حقيقة الأمر معدة من قبل يزدجرد إذ كان انوشروان [2] قد أمر بجمع الأخبار المختلفة ووقائع الملوك وتسجيلها فى دفاتر رسمية . وكانت هذه التواريخ قد حفظت فى خزانة إلى أن جاء يزدجرد فأمر الدهقان دانشور ، وكان من أكابر المداين وحكمائها ، بجمعها وأن يضع لها «فهرست» من بداية دولة كيومرث حتى انتهاء دولة خسرو پرويز ، وكلفه أن يسأل الموابذة والعلماء عن كل مالم يكن مذكورا فى ذلك التاريخ وأن يلحقه به حتى يصير تاما كاملا . ولكن إذا كانت مادة الكتاب تنتهى بانتهاء دولة خسرو پرويز فمن أين جاءته هذه الزيادات التى تمتد بمادته إلى آخر الملوك الساسانيين . يرجح كريستنسن أنه بعد موت يزدجرد الثالث ألحق العلماء الزردشت بهذا الكتاب ملحقات تتعلق بوقائع العهد الساسانى الأخير وزادوها على أصل «خوتاى نامك» . وعلى أى حال فان «خوتاى نامك» الأصلى

---

(١) ملك من حوالى سنة ٦٣٢ إلى سنة ٦٥٢ م

(٢) ملك من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٨ م

وقف فى حوادثه وأخباره عند نهاية عهد خسرو پرويز [١] . وقد ضاع المتن البهلوى لخداينامه فى أوائل العهد الإسلامى ولكن بقيت منه أجزاء متفرقة فى كتب التاريخ المختلفة . وقد ترجم فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى على يد عبد الله بن المقفع إلى العربية وسماه « سير ملوك الفرس » والمعتقد أن ابن المقفع ترجمه عن الأصل البهلوى رأسا .

ويظهر أن المؤلفين الفرس أنفسهم قد زادوا على النص الأصلى زيادات مختلفة كما يذكر كريستنسن فيما سبق ، وأن أيدى النساخ قد عبثت بالكتاب إلى حد دعا حمزة الأصفهانى إلى أن يذكر نقلا عن موسى بن عيسى الكسروى أنه نظر فى نسخ الكتاب المسمى « خداى نامه » والذى سمى كتاب تاريخ ملوك الفرس بعد نقله إلى العربية وبحثها بحث استقصاء فوجدها مختلفة حتى إنه لم يظفر منها بنسختين متفقتين [٢] . وعلى كل حال فإن هذا الكتاب بعد أن ترجمه عبد الله بن المقفع قلت أهمية متنه الأصلى وضعف رواج هذا المتن إلى أن اختفى نهائيا ثم اختفت من بعده الترجمة العربية .

ويرى ذبيح الله صفا أن ما كتب عن أساطير ايران من بدء عهد گيومرث حتى عهد يزدجرد بن شهريار فى الكتب المعتبرة أمثال عيون الأخبار ، والأخبار الطوال للدينورى ، وتاريخ البلعمى ، ومروج الذهب ، والتنبيه والاشراف ، وسنى ملوك الأرض ، وغرر أخبار ملوك الفرس ، والآثار الباقية ، والشاهنامه للفردوسى ، ومجمل التواريخ والقصص ، وكامل التواريخ لابن الأثير إنما هو مأخوذ عن متن خداى نامه أو من سير الملوك لابن المقفع

---

(١) كريستنسن : تاريخ إيران فى عهد الساسانيين الترجمة الفارسية لرشيد ياسمى ص ٣٣

(٢) تاريخ سنى ملوك الأرض : ص ١٥ ط برلين .

أو مقتبس من الترجمات الأخرى [١] .

يانكار زريران :

متن هذا الكتاب البهلوى باق حتى اليوم ، وقد طبع الأصل فى بمباى فى ١٦ صفحة . ويشمل ما يقرب من ٣٤٦ سطرا . ويقال له أيضا شاهنامه گشتاسپ . والألف والنون فى زريران علامة النسبة . ومن هذا يتبين أن وقائع الكتاب منسوبة إلى زرير أخى گشتاسب . وقد رأى المستشرق الفرنسى المعروف Beneveniste أن الكتاب بصورته الحالية منظوم فى العهد الأشكانى وقد أدخلت عليه تغييرات فى العهد الساسانى حتى انتهى أمره إلى ما صار عليه . واستطاع هذا العالم بعد بحث وتحقيق أن يجرد الكتاب من الزيادات والاضافات التى لحقته فى العهد الساسانى [٢].

وهذا الكتاب منظوم : وموضوع هذه المنظومه مذهبي يصور النزاع الذى قام بين الايرانيين والتورانيين حـــول المذهب الزردشتى ، فقد اعتنق الملك گشتاسپ هذا الدين وتبعه شعبه . وكان ملك التوران والصين فى ذلك الوقت أرجاسپ يأخذ الأتاوة من الإيرانيين ، فأشار زردشت على گشتاسپ أن يكف عن دفع هذه الأتاوة ، فأجابه إلى مشورته . فلما بلغ ذلك أرجاسپ كتب إلى گشتاسپ كتابا طويلا عنفه فيه على دخوله فى هذا الدين الجديد وأمره بتركه وعدم الاستماع إلى مشورة ذلك لرجل - أى زردشت - وأن يرجع إلى سيرته الأولى فى دفع الأتاوة وأخذ يهدده إن لم يسمع ويطع بالحرب والويل والدمار والقتل . ولما وصل إلى گشتاسپ كتاب أرجاسپ عرضه على

---

(١) حماسه سرائى درايران : ص ٦٨

(٢) نفس المصدر : ص ١١٦

رجال دولته، فأبوا أن يقبلوا التهديد، وتقدم زرير أخو گشتاسپ وولده اسفنديار إلى الملك مستأذنين فى الرد على هذه الرسالة، فأذن لهما گشتاسپ؛ وردا على ملك التوران ردا قاسيا ملآه بالتهديد والوعيد. وكان من جراء هذا أن نشبت الحرب بين الفريقين وجمع ملك الترك جيوشه، وأقبل مندفعا إلى أرض الايرانيين. وهناك تلاقت الجيوش ودامت الحرب بينهم أسبوعين انتهت بانهزام أرجاسپ وعودته خائبا إلى بلاده، لكن انتصار الايرانيين لم يكن هينا سهلا إذ فقدوا فى هذه الحرب ثلاثين ألفا من القتلى كان من بينهم زرير أخو گشتاسپ. وهكذا راح زرير ضحية الدفاع عن الدين والذود عن حياضه مما جعل له مكانة خاصة فى القصص الإيرانى. وهذا الكتاب نقله الدقيقى فى الجزء الذى نظمه من الشاهنامه عن گشتاسپ وقدره ألف بيت (١).

كارنامه اردشير بابكان :

هو كتيب بالپهلوية فى مثل حجم الكتيب السابق. وهو من القصص الحماسية المنثورة. وقد ألف هذا الكتيب فى أواخر العهد الساسانى حوالى سنة ٦٠٠ م. ويتحدث هذا الكتيب عن أعمال الملك أردشير وأحيانا يتعرض لأعمال ابنه وحفيده. وكان هذا الكتاب من بين ما وصلنا من آثار العهد الساسانى. وقد طبع فى بمباى بالهند.

ومن أسباب أهمية كارنامه أردشير أنه مصدر لفصل كبير من شاهنامه المنصورى التى هى بدورها مصدر مهم لشاهنامه الفردوسى المنظومة، وذلك فيما يتعلق بالفصل الخاص بأردشير من بداية أمره حتى ولادة هرمز بن شابور. ومما يؤيد استفادة الشاهنامه من هذا الكتاب التقارب الكامل والارتباط المستقيم

---

(١) الشاهنامه : ص ١٥٠٠ ج ٦ ط بروخيم. تهران

بين الشاهنامه والنسخة الموجودة من كارنامه أردشير بابكان فيما يتصل بحياة أردشير[١]. ويرى نولدكه أن الفردوسى قد استفاد من هذه القصة التى امتزج فيها التاريخ بالأسطورة إلا أنه قدرفع منها أجزاء تتحدث عن الديانة الفارسية القديمة لعدم ملاءمتها للمسلمين كما اختصر فى بعض الحوادث وأضاف اليها بعض الاضافات.[٢] ويظهر من نص أورده صاحب مجمل التواريخ أن هذا الكتاب كان مشهورا فى زمن المؤلف[٣] وكان معروفا باسم عهد أردشير[٤]. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الألمانية بواسطة نولدكه فى ١٨٧٨ م.

قصة رستم واسفنديار:

يورد ابن النديم هذا الكتاب من بين الكتب المؤلفة فى السير والاسمار الصحيحة التى لملوكهم[٥] وقد ترجمه جبله بن سالم.[٦] وكانت هذه القصة من القصص الذائعة وقتذاك. وهذه القصة مثل عدد غيرها من القصص كقصة أردشير بابكان، بهرام چوبين، رستم وسهراب، وبيژن ومنيژة من القصص التى نقلت عن مصادرها المستقلة وضمت إلى الشاهنامه - ويروى ابن هشام فى السيرة أن هذه القصة كانت معروفة تروى فى بداية عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

---

(١) حماسه سرائى درايران : ص ١٢٨

(٢) الحماسة الايرانية لنولدكه : ص ١١ ترجمة Bogdanov

(٣) ألف كتاب مجمل التواريخ والقصص سنة ٥٢٠ هـ فى عهد السلطان سنجر ومؤلفه مجهول. ويتحدث هذا الكتاب عن تاريخ العالم من مبدأ الخليقه حتى سنة تأليفه ويفصل الكلام فيما يتصل بتاريخ ايران.

(٤) مجمل التواريخ : ص ٦١

(٥) الفهرست : ص ٣٠٥ ط ليبزج

(٦) هو جبله بن سالم بن عبد العزيز كاتب هشام بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥ هـ

ويذكر «أن النضر بن الحارث كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوه وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان اذا جاس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الامم من نقمة الله خلفه فى مجلسه إذا قام ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار . . الخ »[١] .

قصة بهرام جوبين :

وقد ذكرها كذلك ابن النديم وترجمها جبلة بن سالم .[٢] وقد ضاعت هذه القصة وترجمتها . وبقى منها بعض الآثار فى المصادر المختلفة كالشاهنامه للفردوسى ، وحديثها طويل عن قصة بهرام چوبين . وكتب التاريخ المختلفة كالأخبار الطوال[٣] والطبرى وابن الأثير وغيرها . وكانت ترجمة هذه القصة سبيلا إلى ذيوع شهرتها فى العهد الاسلامى .

قصة ويس ورامين :

وترجع هذه القصة إلى عهد شابور بن أردشير پابكان . وقد ظل المتن البهلوى لهذه القصة معروفا حتى عهد طغرل السلجوقى يعنى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى . وفى عصر هذا الملك ترجمها نظما بالشعر الفارسى فخر الدين أسعد گرگانى .

---

(١) سيرة ابن هشام : ص ٣٢١ ج ١ ط الحلبى ١٩٣٦

(٢) الفهرست : ص ٣٠٥ ط ليبزج

(٣) الأخبار الطوال : ص ٧٩ وما بعدها ط السعادة ١٣٣٠ هـ

كتاب أخبار الإسكندر :

وهو مأخوذ من الأساطير اليونانية التى رواها جند الاسكندر الذين انتشروا فى البلاد الفارسية بعد الغزو الاسكندرى . ومن مجموع قصص هذا الكتاب يبدو أنه كتب باليونانية فى حدود القرن الثالث الميلادى فى مصر ونسب إلى واحد من المؤرخين المعاصرين للاسكندر وهو « كاليستنس » . وقد ترجم هذا الكتاب فيما يظهر إلى الپهلوية . وقصص الاسكندر المعروفة فى اللغة الفارسية باسم «سكندر نامه» كانت مشهورة . وقد استفاد مؤلفوها من هذا الكتاب كالفردوسى والنظامى . وهذا الكتاب استمد مادته من أخبار الاسكندر واختلطت فيه الموضوعات ببعض الحقائق التاريخية وبعض الروايات السريانية والأقاصيص الايرانية (١) .

كتاب السكيكين :

هكذا يذكر المسعودى اسم الكتاب فى حديثه عن مقتل افراسياب ويقول « والفرس كلام طويل فى قتل افراسياب وكيفية قتله وحروبه وما كان بين الفرس والترك من الحروب والغارات وما كان من قتل سياوخش وخبر رستم بن دستان ،هذا كله مشروح فى الكتاب المترجم بكتاب السكيكين ترجمه ابن المقفع من الفارسية الأولى إلى العربية » . (٢) ويقول بعد قليل إن هذا الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمن من خبر اسلافهم وسير ملوكهم (٣) . وفى

---

(١) حماسه سرائى در ايران : ص ٨٦

(٢) مروج الذهب : ص ١٤ ج ١ ط البهية المصرية ١٣٤٦

(٣) نفس المصدر والجزء : ص ١٤١

اسم هذا الكتاب تحريف . وقد ورد اسمه بصور مختلفة فى المصادر المختلفة فباربيه دى مينار Barbier de Meynard ناشر مروج الذهب طبعة باريس يصححه « سكيسران » [١] . ويرى كريستنسن Christensen أن هذا التصحيح لا يبعد عن الحقيقة لأن سكيسران فى اللغة البهلوية « سكسران » يعنى « سران سك » ، « سران سگستان » (سيستان) . ويعتقد صاحب حماسه سرائى أن أصل الكلمة سكسيين،سگزيين (سگزيان) . ومن عنوان الكتاب يرجح أن يكون موضوع حديثه عن أهل سيستان وأخبار رستم [٢] . ومن هنا تأتى أهمية المادة الواردة فى هذا الكتاب لصلتها برستم وأبطال سيستان وغير ذلك من الحوادث والوقائع التى جرت فى عهد الكيانيين .

كتاب التاج : (تاج نامك)

وهو من الكتب التى ذكرها ابن النديم ويسميه كتاب التاج وما تألفت به ملوكهم [٣] . وقد استفاد منه ابن قتيبه صاحب عيون الأخبار .

نامهٔ تنسر:

وكان تنسر أحد أمراء ملوك الطوائف وقد ورث عن أبيه الملك ولكنه تخلى عنه واختار العزلة ، فلما ظهر أردشير وتغلب على أردوان واستقل بالملك دخل فى خدمته ، وكان له ناصحا ومشيرا . وكان تنسر زاهدا ورعا فكلفه أردشير أن يجمع المتون المقدسة الزرادشتيه وأن يعيد كتابة الأڤستا ولقبه

---

(١) مروج الذهب : ص ١١٨ ج ٢ ط باريس
(٢) حماسه سرائى : ص ٤٣
(٣) الفهرست : ص ٣٠٥

«پور يوتـكيش» أى « داراى كيش پيشينيان»(١). بمعنى راعى دين الاسلاف. ويذكر المسعودى أن أردشـير بن بابك اتصـل فى بدء ملكه بزاهـد من زهادهم وابناء ملوكهم يقال له تنسر وكان افلاطونى المذهب على رأى سقراط وأفلاطون (٢).

ومن المؤلفات التى تحدثت عن تنسر هذا غير المروج والتنبيه للمسعودى، تجارب الأمم لأبى على مسـكويه(٣)، وتحقيق ما للهند من مقوله لأبى ريحان البيرونى(٤)، فارسنامه فى حديثه عن اردشير بابكان ضمن ملوك الساسانيين(٥)، وتاريخ طبرستان لابن اسفنديار (٦).

---

(١) نامۀ تنسر ص و ديباجه مجتبى مينوى ط تهران

(٢) مروج الذهب ص ١٥٤ ج ١

(٣) هو أبو على الخـازن احمد بن محمد يعقوب الملقب بمسكويه. أسلم بعد أن كان مجوسيا. كان ذا علم بكـثير من فروع المعرفة والدراسة كالفلسفة والـكيمياء والأدب والفقه والتاريخ. اتصل بالبويهيين وعظم شأنه عندهم. كان مؤلفا وشاعرا وناثرا. ومن مؤلفاته كتاب تجـارب الأمم ويعرض فيه تاريخ الأمم من بدء الخليقة إلى عام ٣٦٩ هـ. وتوفى أبو على سنة ٤٢١ هـ.

(٤) البيرونى من أشهر علماء المسلمين فى الفلك والرياضيات وينسب إلى بيرون من بلاد السند، أقام فى بلاد الهند مدة طويلة ألم فيها بكثير من علوم الهنود. وله مؤلفات فى الفلك والرياضيات والتاريخ. ومن أشهر مؤلفاته : الآثار البـاقية عن القرون الخالية، التفهيم لأوائل صناعة التنجيم... الخ

(٥) فارسنامه : لابن البلخى ألفه فى بداية القرن السادس الهجرى ويتناول الحديث عن ملوك الفرس وأنسابهم وتواريخهم من اقدم العهود حتى نهاية الدولة الساسانية، وعن فتح المسلمين لبلاد الفرس، وجغرافية بلاد فارس... الخ. نشره ليسترانج ونيكلسون سنة ١٩٢١ م.

(٦) تاريخ طبرستان : تأليف بهاء الدين محمد بن حسن بن اسفنديار من طبرستان. ويتحدث فيه المؤلف عن تاريخ هذه البلاد حتى سنة ٦١٣ هـ.

وقد ترجم ابن المقفع رسالة « نامهٔ تنسر » من البهلوية إلى العربية وضاع الأصل البهلوى ثم ضاعت بعد ذلك الترجمة العربية بعد أن ترجمها إلى الفارسية محمد بن حسن بن اسفنديار صاحب تاريخ طبرستان فى أوائل القرن السابع الهجرى . وقد بقيت هذه الترجمة الفارسية التى ترجمت بدورها عن الترجمة العربية .

وموضوع هذا الكتاب رسالة تنسر هربذان هـ بذ اردشير بابكان إلى «جسنسف» ملك طبرستان . وقد ترجم هذا الكتاب ونشره مع تعليقات قيمة المرحوم جيمس دار مستتر سنة ١٨٩٤ بالمجلة الأسيوية Journal Asiatique .

جترنك نامه :

أو كتاب الشطرنج . وهو كما يبدو من اسمه رسالة وضعت عن اختراع الشطرنج الذى قدمه ملك الهند هدية إلى انو شروان وكيف اخترع بزرجمهر الحكيم المعروف فى عهد انو شروان النرد ليقدم هدية إلى ملك الهند إزاء هديته وقد استفادت الشاهنامه من هذه الرسالة فى الأجزاء المتعلقة بهذا الموضوع .

كتاب الكرنامج (؟)

وقد تحدث عنه المسعودى فذكر أنه كتاب عن اردشير بن بابك وحروبه وسيره (١) .

---

(١) مروج الذهب : ص ١٥٤ ج ١

آئين نامك :

أو كتاب الآيين بمعنى الرسوم . وهو كتاب ضخم سبق أن أشرنا اليه . وقد نقله ابن المقفع الى اللغة العربية . وهو كتاب فى الرسوم والاداب المتصلة بالبلاط والأسمار والأخبار وترتيب رجال الدولة على عهد الساسانيين .

گاهنامك :

وهذا الكتاب فى الواقع حسب نص المسعودى [١] جزء من آئين نامك السابق . وفيه ذكر مراتب رجال الدولة والبلاط فى العهد الساسانى . وقد استفاد من آئين نامه (بما يتضمنه من گاهنامه) عدد كبير من الكتاب والمؤرخين الاسلاميين الذين كتبوا فى موضوعات النظم والادارة والآداب المتصلة ببلاط ملوك الفرس . ومن أخص هؤلاء ابن قتيبه الدينورى الذى يقتبس عن الآيين فى كثير من أبواب كتابه ، ويشير إلى ذلك صراحة فيقول مثلا فى مواضع كثيرة من كتابه : « وقرأت فى الآيين ... » [٢] ، ومنهم الثعالبى الذى يقتبس منه وينص على ذلك فيقول «وفى كتاب الآيين . . . » [٣] ، والمسعودى فى مروج الذهب ، واليعقوبى ، والجاحظ ، وغيرهم .

وهناك إلى جانب كل هذه الكتب مجموعة اخرى من الكتب الدينية المذهبية وقد حفظت هذه الكتب كثيرا من الروايات الوطنية الايرانية . ومن بين هذه الكتب :-

---

(١) التنبيه : ص ٩١

(٢) عيون الأخبار : ص ١١٢ ج ١ ط دار الكتب المصرية ١٩٢٥

(٣) الغرر : ص ١٤ ط باريس

دينكرد :

وهو من أهم الكتب التى ألفت بالپهلوية . وكان هذا الكتاب أصلا فى تسع مجلدات وقد كتبه «آتور فرنبغ فرخ زاتان» .وكان يعيش فى القرن الثانى والثالث الهجرى ويرجع تاريخ كتابه إلى هذا العهد . وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من التوجيهات الدينية تتضمن كثيرا من العادات والعقائد والروايات . وهو يتحدث إلى جانب هذا عن أحوال كثير من ملوك الفرس القدماء أمثال گيومرث ، هوشنگ ، جمشيد ، وفريدون ، ومنوچهر ..الخ حديثا تسوده الناحية الدينية . ولدينا من هذا الكتاب الجزء الخامس وقد نشره فى بمباى « بشوتن دستور بهرامجى سنجانا » سنة ١٨٨٨م . وفى هذا الجزء يتحدث عن موضوعات مختلفة تعلوها المسحة الدينية . فى حديثه عن الملك زو يصفه بأنه حارب الشر حتى اختفت الشياطين من مملكته فى عهده . وقد نفى هذا الملك المفسدين من ايران وأجبرهم على الاختفاء[١]. وفى حديثه عن أفضل الملوك يتخذ من جمشيد وگشتاسپ مثلين لما ينبغى أن يكون عليه الملوك من العظمة والإخلاص للدين والغيرة عليه .[٢] ويوجه رجال الدين إلى اتخاذ الملابس البيضاء فإنها أنسب لهم[٣] .وفى فصل آخر يتحدث عن الخير والشر ويذكر أن الناس يكونون أخيارا أو أشرارا وفق ما فطروا عليه من خصال حميدة أو من عوامل الشر . والخصال الحميدة فى الناس ترجع إلى اتصالهم بالمجد الالهى بينما ترجع صفات الشر إلى انضوائهم تحت ظل الشيطان (اهريمن) . وإذا كان الانسان على صلة

---

(١) دينكرد : ص ٢٧٣ ج ٥ ط بمباى ١٨٨٨ م .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٧٩ ، ٢٨٠

(٣) نفس المصدر : ص ٢٩٧

وثيقة بالإله تجمعت فى طبيعته أحسن الصفات وأصبح مخلوقا ذا طبيعة خيرة وإذا وقع تحت ظل الشيطان أصبح ذا طبيعة شريرة (١). ومن اهم مجلدات هذا الكتاب المجلد الثامن الذى يشمل خلاصة ماجاء فى الواحد والعشرين نسكا من الأ ستا التى جمعت فى عهد الساسانيين (٢).

بندهش :

ومعنى بندهشن أصل الخليقة . وهذا الكتاب الپهلوى يحتوى على كثير من القصص والروايات التاريخية والدينية الزردشتية. ومن عنوانه يفهم أنه يتحدث عن أصل الخليقة وغير ذلك من المسائل الدينية وما يصاحبها من روايات تاريخية أو قومية. وأهم مافيه من الفصول الفصل الثالث والثلاثون ففيه طرف من تاريخ القصص الايرانى حتى نهاية العهد الساسانى وفى الفصل الخامس والثلاثين حديث عن أصل الكيانيين ونسبهم . وفى الفصل الحادى والثلاثين حديث عن الأماكن المهمة من ايران التى اتخذها الكيانيون مقرا لهم (٣). ومؤلف تاريخ سيستان يذكر هذا الكتاب ولكنه يورد اسمه خطأ على هذا النحو «ابن دهشتى». وفى ثنايا حديثه عن أبى المؤيد البلخى يذكر أن أبا المؤيد استفاد من هذا الكتاب فى تكوين معلوماته فكانت بذلك مصدرا من مصادره (٤).

دانستان دينيك :

وهو واحد من هذه الكتب الدينية الپهلوية . وقد ألفه فى القرن التاسع

---

(١) دينكرد : ص ٣٣٩ ، ٣٤٠

(٢) حماسه سرائى : ص ٥٠

(٣) نفس المصدر والصفحة :

(٤) تاريخ سيستان : ص ١٦ ، ١٧ تصحيح بهار .

الميلادى موبذ اسمه «يودان بيم» .

مينوى خرد :

وهو كتاب دينى يتصل موضوعه بالأخلاق والأساطير والعلم بالأمور الدينية .وأهم فصول هذا الكتاب الفصل السابع والعشرون الذى يشمل أعمال ملوك ايران حتى عهد گشتاسپ (١) .

مزدك نامه :

ويتعلق هذا الكتاب كما هو واضح من اسمه بقصة مزدك . وقد ترجمها ابن المقفع ونظمها اللاحقى (٢) .



وقد انتشرت هذه المؤلفات والثقافة الوطنية الفارسية القديمة . وكان كثير من الايرانيين وخاصة الدهاقين والموابذة وأهل البيوتات يحفظون سلسلة أنسابهم والروايات والأحاديث التى ترجع إلى اجدادهم ، ويتناقلونها جيلا بعد جيل . ومامن شك فى أنهم بطبيعة الحال كانوا يتزيدون فيما يروون . ولكنهم على أى حال قدموا مادة خصبة عن اسلافهم. ونشطت حركة الترجمة التى اشترك فيها العرب والفرس حتى تجمع للمسلمين محصول وافر فيما يتعلق بأخبار الفرس وقصصهم وسيرهم . ونتج عن هذا نهضة عظيمة لفتت أنظار كثيرين من الأدباء. وتزايد الشعور القومى عند الفرس فأخذوا فى جمع هذه المادة الخصبة التى

---

(١) حماسه سرائى : ص ٥٢

(٢) الفهرست : ص ١١٨

أتيحت لهم ، وتنسيقها والتأليف بينها وصوغها من جديد فى قالب شعرى أو نثرى . ومن هنا نشأت الشاهنامات التى ألفت ومن بينها شاهنامة الفردوسى . وقد ساعد على ظهور هذه الشاهنامات ، إلى جانب العوامل السابقة كلها ، ظهور الدول الفارسية الاسلامية ، واستقلال الفرس استقلالا عمليا عن الدولة العربية . وازداد الميل إلى كتابة الشاهنامات فى أواخر القرن الثالث وفى الرابع. ولما كان هناك شاهنامات سبقت شاهنامة الفردوسى وجب أن نتحدث عنها حديثا سريعا قبل ان نتحدث عن شاهنامته .



٤ ــ شاهنامه ابى المؤيد البلخى

هى شاهنامه نثرية كتبها فى حدود سنه ٣٥٢ ﻫ أبو المؤيد البلخى من شعراء النصف الأول من القرن الرابع وكتابه. وقد وردت اشارات عن هذه الشاهنامه فى مصادر مختلفة. ففى ديباجة قابوسنامه يتحدث كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير بن زيار إلى ولده گيلا نشاه عن عراقة أصله ويذكر له أن جده هو شمس المعالى قابوس بن وشمگير وأن أهله هم ملوك گيلان من أبناء كيخسرو. ويستشهد فى ذلك بما أورده أبو المؤيد البلخى والفردوسى فى الشاهنامه [١]. ويشير صاحب تاريخ سيستان إلى أبى المؤيد وينقل عن كتاب له اسمه گرشاسپ [٢]. ويغلب على الظن أن يكون كتاب گرشاسپ هذا بعض شاهنامة أبى المؤيد. وهناك اشارة ثالثة فى مجمل التواريخ عما كتبه نثرا أبو المؤيد من أخبار نريمان وسام وكيقباد وافراسياب وأخبار لهراسف [٣].

٥ ــ شاهنامه ابى على البلخى

وثانية الشاهنامات المنثورة شاهنامة أبى على محمد بن أحمد البلخى الشاعر. وقد تحدث عنها أبو ريحان البيرونى [٤]. ويستفاد من كلام أبى ريحان أن شاهنامة هذا الشاعر كانت من المصادر المهمة.

---

(١) منتخب قابوسنامه : الديباجه ص ٣ باهتمام نفيسى

(٢) تاريخ سيستان : ص ٣٥

(٣) مجمل التواريخ : ص ٢

(٤) الآثار الباقية : ص ٩٩

٦ — شاهنامه مسعودى المروزى

والمسعودى هذا أول من نظموا بالفارسية فى هذا الموضوع . وقد أشار إلى هذه المنظومة الثعالبى فى كتابه الغرر فى أكثر من موضع . ففى حديثه عن طهمورث يقول : « وزعم المسعودى فى مزدوجته بالفارسية أن طهمورث بنى قهندزمرو » (١) . وفى حديثه عن بهمن بن اسفنديار وقيادته الجيش إلى سيستان لحرب زال يقول : « فعفا عنه - أى عفا بهمن عن زال - وأمر برده إلى منزله والإفراج له عن مسكة من ماله . وذكر المسعودى المروزى فى مزدوجته الفارسيه أنه قتله ولم يبق على أحد من ذويه (٢) » .

ويتحدث عن هذه المنظومة المسعودية المقدسى فى كتابه البدء والتاريخ فى موضعين أولهما فى الحديث عن سلطنة گيومرث حيث يقول : « زعمت الأعاجم فى كتبها والله أعلم بحقها وباطلها أن أول من ملك من بنى آدم اسمه گيومرث، وأنه كان عريان فى الأرض وكان ملكه ثلاثين سنه . وقد قال المسعودى فى قصيدته المحبرة بالفارسية :

نخستين گيومرث آمد بشاهى
گرفتش بگيتى درون پيش گاهى
چو سى سالى بگيتى پادشا بوذ
كى فرمانش بهر جائى روا بوذ

وإنما ذكرت هذه الأبيات لأنى رأيت الفرس يعظمون هذه الأبيات

---

(١) الغرر : ص ١٠
(٢) نفس المصدر : ص ٣٨٨

والقصيدة ويصورونها ويرونها كتاريخ لهم » . وثانى الموضعين اللذين أشير فيهما إلى منظومة المسعودى المروزى يأتى فى آخر فصل تاريخ ايران حيث يقول : « وانقضى أمر ملوك الفرس وأظهر الله دينه وأنجز وعده وفيه يقول ابن الجهم :

والفرس والروم لها أيـــام

يمنـــع من تفخيمها الاسلام

ويقول المسعودى فى آخر قصيدته بالفارسية :

سپرى شـــد زمان خسروانا

چو كام خويش راندند در جهانا »[1]

ومن الأبيات التى اقتطفها المقدسى من هذه الشاهنامه يتضح أن منظومة المسعودى كانت مثنوية فى بحر الهزج المسدس .

وتحديد تاريخ دقيق لتأليف هذه الشاهنامه غير مستطاع . والمرجح أنها ألفت قبل سنة ٣٥٥ ﻫ وهى سنة تأليف البدء والتاريخ . ومادام هذا المصدر يتحدث عنها وجب اذن أن تكون قد ألفت قبل ذلك . ويرى صاحب حماسه سرائى أنها ألفت حوالى سنة ٣٠٠ ﻫ . لأنها كانت معروفة ومشهورة فى الوقت الذى ألف فيه كتاب البدء والتاريخ . ومثل هذه الشهرة والذيوع محتاجة إلى ما يقرب من أربعين أو خمسين عاما ، كما أن خشونة بعض ألفاظهـا وعدم انسجامها يدل على أن المنظومة قد ألفت فى وقت متقدم إلى حد ما .[2] .

---

(١) بيست مقاله قزوينى : ص ٨٠٧ ج ٢

(٢) حماسه سرائى : ص ١٥٣

وفى الوقت الذى كان فيه الفردوسى مشغولا بنظم الشاهنامه كانت شاهنامه المسعودى المروزى معروفة ذائعة .

٧ - شاهنامه ابى منصور محمد بن عبد الرزاق

كان أبو منصور محمد بن عبد الرزاق أحد رجال القرن الرابع الهجرى . وكان من أعيان طوس ورؤسائها . ولما أساء أبو الحسن محمد بن ابراهيم السيرة وبلغ الحضرة ذلك عزل فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٩ ﻫ وعين مكانه فى قيادة الجيوش بخراسان أبو منصور محمد بن عبد الرزاق ، فأحسن السيرة وضبط الأمور واستن السنن الحميدة وجلس للمظالم وأنصف الرعية[١] . ولكنه لم يلبث طويلا فى هذا المنصب إذ عزل وولى مكانه اليتكين فانصرف أبو منصور إلى بلدته طوس ، ثم استدعى مرة أخرى بعد عزل اليتكين وعادت إليه قيادة الجيوش بخراسان .[٢] وقد خطر له بعد ذلك أن ينضم إلى حسن بن بويه فكتب إليه ودعاه إلى جرجان . فلما بلغ ذلك وشمكير أغرى يوحنا الطبيب بألف دينار ليدس له السم فى طعامه . وبذلك انتهت حياة أبى منصور . ورجعت بعد مقتله قيادة الجيوش بخراسان مرة أخرى إلى أبى الحسن محمد بن ابراهيم[٣] .

وكان أبو منصور كغيره من علية القوم فى ذلك الزمان يحب أن ينتهى نسبه إلى الملوك الأقدمين . وتنسبه مقدمة شاهنامته اليهم . فهو محمد بن عبد الرزاق بن عبد الله بن فرخ بن ماسا بن مازيار بن كشمهان بن كنارنك بن خسرو

---

(١) تاريخ گرديزى : ص ٣١ بمقدمة قزوينى
(٢) نفس المصدر : ص ٣٣
(٣) نفس المصدر : ص ٣٤

بن بهرام بن آذر گشسپ بن گوذرز بن دار آفريد بن فرخ زاد بن بهرام . . . الخ . (١)

وما دام نسب أبى منصور ينتهى أو هو يجب أن ينتهى ، لأننا نشك فى صحة هذه الأنساب ، إلى ملوك الفرس الأقدمين فهو إذن من المتعصبين لإحياء مجد الفرس القديم . وخير ما يحيي به مجدهم ومآثرهم أن يأمر بتأليف كتاب يتحدث عن أمجادهم وسيرهم فيرضى بذلك نزعته المتعصبة . ومن هنا نشأت عنده الفكرة فى تأليف هذه الشاهنامه . واتخذ أبو منصور الخطوات العملية لتحقيق هذه الفكرة فكلف وزيره أبا منصور المعمرى أن يتولى هذه المهمة . وكان أبو منصور المعمرى هذا ايرانى الأصل فهو أبو منصور بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن فرخ زاد . . . الخ . (٢) ولاشك أنه لأصله الايرانى قد تقبل هذه المهمة التى عهدت اليه قبولا حسنا . فاستقدم العلماء من كل مكان أمثال شاج ابن خراسانى (ماخ پير خراسانى) من هراة ، يزدان داد بن شابور من سجستان، وماهوى، خورشيد بن بهرام من نشابور ، شاذان بن برزين من طوس فوضعوا له هذه الشاهنامه فى سنة ٣٤٦ هـ . وقد جاءنا الخبر عن هذه الشاهنامه من ثلاثة مصادر :

١ — الآثار الباقية

٢ - المقدمة القديمة لهذه الشاهنامه

٣ — المقدمة الجديدة المعروفة بمقدمة بايسنقر

---

(١) بيست مقاله قزوينى : ص ٥٢ ، ٥٣ ج ٢

(٢) نفس المصدر : ص ٥٧

فالبيرونى يتحدث عن هذه الشاهنامة فى غير موضع فيقول : « ولكن الأعادى أبدا مولعون بالطعن فى الأنساب والثلب فى الأعراض والوقيعة فى الأفاعيل والآثار كما أن الأولياء والمتشيعين مولعون بتحسين القبيح وسد الخلل واظهار الجميل والنسبة إلى المحاسن كما وصفهم من قال :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

فربما يحملهم التوغل فى هذا من فعلهم على تخرص الأحاديث المكاسبة للحمد وتمويه النسبة إلى الأصول الشريفة كما فعل لابن عبد الرزاق الطوسى من افتعال نسب له فى الشاهنامة ينتمى إلى منو شهر وكما فعل لآل بويه ..» (١) ولاشك أن مقصوده بالشاهنامه التى افتعل فيها هذا النسب هى الشاهنامة المنصورية . ويقول فى موضع آخر : « ووجدنا تواريخ هذا القسم الثانى - أى الملوك الأشكانية - فى كتاب شاهنامه المعمول لأبى منصور بن عبد الرزاق على ما أودعناه فى هذا الجدول » . (٢)

أما عن مقدمات الشاهنامه فيلاحظ القزوينى أن هناك نسخا من الشاهنامه ليست لها مقدمات وتبدأ الشاهنامه مباشرة من شاهنامة الفردوسى المنظومة . وهناك بعض النسخ الأخرى على العكس من هذه تحتوى على مقدمة منثورة مختصرة فى حوالى سبع أو ثمانى صفحات . وتبدأ هذه المقدمة بهذه العبارة « سپاس وآفرين خداى راكه اين جهان وآن جهان آفريد . » وهذه النسخ من الشاهنامة نادرة فى زماننا وآخذة فى التناقص لقلة عددها . والنسخ التى لها

---

(١) الآثار الباقية : ص ٣٨
(٢) نفس المصدر : ص ١١٦

مثل هذه المقدمة نسخ قديمة استنسخت غالبا قبل القرن الثامن الهجرى . وهذه المقدمة هى المعروفة بالمقدمة القديمة للشاهنامه . (١)

وهناك بعض النسخ ذات المقدمة النثرية ولكن مقدمتها فيها تفصيل وتقع فى حوالى ١٥ أو ١٦ صفحة . وتبدأ هذه المقدمة على العموم فى النسخ الخطية بهذا البيت .

افتتاح سخن آن به كه كند أهل كمال

بثناى ملك العرش خداى متعال

وهذه المقدمة فى أغلب النسخ الخطية للشاهنامة التى كتبت ابتداء من القرن التاسع والعاشر . وهذه المقدمة هى المعروفة بالمقدمة الجديدة للشاهنامه أو مقدمة بايسنقر . وقد كتبت هذه المقدمة على المشهور فى سنة ٨٢٩ بأمر بايسنقر بن شاهرخ بن أمير تيمور گورگان المتوفى فى سنة ٨٣٧ . وهذه المقدمة الجديدة لا توجد فى نسخ الشاهنامة فيما قبل القرن التاسع . (٢) وقد أورد الدكتور عزام خلاصة لمقدمة بايسنقر وفيها اشارة إلى هذه الشاهنامه المنصورية وكيف ألفت وأسماء الأربعة الذين ألفوها . (٣) وقد وردت أسماؤهم من قبل .

ولما كانت شاهنامة أبى منصور هذه نثرية وكانت النفوس بطبعها أرغب فى الشعر تقدم الشاعر الفردوسى لنظم هذه الشاهنامه . وحين أتم نظمها طغت شاهنامته المنظومة على هذه الشاهنامه وعلى غيرها من الشاهنامات المنثورة حتى

---

(١) بيست مقاله : ص ١ ج ٢

(٢) بيست مقاله قزوينى : ص ١ ، ٢ ج ٢

(٣) مدخل عزام للترجمة العربية : ص ٢٨ ج ١

قضت عليها . ومهد ذيوع شاهنامة الفردوسى المنظومة لضياع تلك الشاهنامات شيئا فشيئا .

٨ - شاهنامة الدقيقى «كشتاسبنامه»

هو أبو منصور محمد بن أحمد الدقيقى من شعراء العهد السامانى المشهورين وينسبه كثير من المؤرخين إلى طوس بلدة الفردوسى إلا أن نولدكه يستبعد هذا لأنه لوكان مواطنا للفردوسى لذكر الفردوسى هذا (١) . ولكن هذا ليس دليلا قويا يعتد به .

كان الدقيقى فى أول أمره متصلا بالأمير أبى المظفر الصغانى من أمراء آل محتاج .(٢) وكان ابو المظفر هذا يكرم الشعراء ويغدق عليهم الجوائز حتى إن الفرخى الشاعر لما سمع بكرمه واحسانه إلى الشعراء نظم قصيدة فى مدحه وقصده (٣) .

ثم اتصل الدقيقى بأمراء السامانيين ومدحهم وقدم إلى نوح بن منصور الجزء الذى نظمه من الشاهنامه .

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى اسم الدقيقى ، وتاريخ مولده، ومكان

---

(١) الحماسة الايرانية لنولدكه. : ص ٣٣ ترجمه Bogdanov

(٢) أمراء آل محتاج فى صغان تحدث عنهم القزوينى فى تعليقاته على چهار مقاله الملحقة بالترجمة العربية لعزام والخشاب فقال انهم من أسر ماوراء النهر الكبيرة وكان مقر حكمهم ولاية چغانيان (صغانيان) فيما وراء النهر . وقد توارثوا حكم هذه الولاية . . . . : ص ١٣٢ ، ١٣٣

(٣) چهار مقاله . : ص ٣٢ الحكاية الرابعة عن المقالة الثانية

مولده (١) فإنهم لم يختلفوا فى لقبه « الدقيقى » إذ سلم به الجميع . ولا يبعد أن تكون هذه الكلمة منسوبة إلى الدقيق . ويحتمل أن يكون فى أول أمره أو أن يكون أبوه أو جده ممن اشتغلوا ببيع الدقيق . ويكون لقبه هذا أشبه بألقاب الثعالبى والفراء وغيرهما . أما مايدعيه عوفى فى لباب الالباب من أنه الدقيقى بسبب دقة معانيه فهو من صناعة عوفى اللفظية .

ويذكر براون أنه بالرغم من اسم الدقيقى الاسلامى إلا أن كثيرا من أمثال إته Ethé ، نولدكه ، هورن قد مالوا إلى اعتباره زردشتيا وقد بنوا رأيهم هذا على بيتين قالها الدقيقى هما :ـ

دقيقى چار خصلت برگزيده است
بگيتى ازهمه خوبى وزشتى
لب ياقوت رنگ وناله چنگ
مى خون رنگ ودين زردهشتى

ومعناها أن الدقيقى قد اختار من كل مافى الدنيا من حسن وقبيح أربعة أشياء : الشفه الياقوتية ، أنين العود ، والخمر الحمراء كالدم ، ودين زردهشت (٢) . ويخالف براون هؤلاء فى رأيهم فيرى أن هذين البيتين ليسا دليلا على زردشتية الشاعر وإذاكان قد صرح باختيار دين زردشت فما ذلك إلا اعجابا منه بهذا الدين فى نقطة واحدة هى إجازته شرب الخمر . (٣) فهو اذن معجب بهذا الدين

---

(١) اختلفوا فى نسبته إلى بلد من البلاد الآتية : بلخ ـ طوس ـ سمرقند ـ بخارى .
(٢) Browne: Lit. His. of Persia, p. 459 vol. I Cambridge 1951
(٣) المصدر السابق : ص ٤٦٠

لأنه يبيح شرب الخمر التى لا يستغنى عنها الشاعر . ولا يتعدى الأمر حد الاعجاب إلى الاعتناق .

ولكن نولدكه يرى أن الدقيقى يبدو فى بعض أشعاره زردشتيا متحمسا، ويتضح تحمسه للزردشتية فى جزء الشاهنامة الذى نظمه (١) . ومن أدلة نولدكه على زردشتية الدقيقى أنه بدأ عمله فى نظم الشاهنامة بالجزء الخاص بگشتاسپ وشريعة زردشت (٢) .

ويحسن بنا ، وقد عرضنا بعض وجهات النظر ، أن نرجع إلى بعض نصوص الشاعر نفسه فنراه مثلا يقول فى الفصل الخاص باعتزال لهراسپ وذهابه إلى بلخ واعتلاء گشتاسپ العرش إن لهراسپ بعد أن سلم گشتاسپ العرش اختار بلخ ليتعبد فى معبدها المعروف «نوبهار بلخ» . ويشبه الدقيقى مكانة نوبهار بلخ عند الزردشتيين بمكانة مكة عند العرب فى ذلك الزمان ، أى زمان الدقيقى (٣) .

ويقول الدقيقى عن ظهور زردشت : إنه جاء إلى حضرة الملك گشتاسپ وقال له إنى رسول الله اليك (٤) . وقد طلب اليك خالق الكون أن تقبل هذا الدين ، وأن تتفكر فى خلق السموات والأرض وأن تنظر من يستطيع أن يخلق ماخلق فليس غيره خالقا للكون وكفى . فتعلم دينه . وسر فى طريقه ،

---

(١) الحماسة الايرانية : ص ٣٢

(٢) نفس المصدر : ص ٣٣

(٣) الشاهنامه : ص ١٤٩٦ ج ٦

(٤) الشاهنامه : ص ١٤٩٧ ج ٦

وليس يحمل الملك بغير الدين . . . . . الخ (١) .

ونلاحظ فى هذه النصوص أن الشاعر يشبه نوبهار بلخ عند الزردشتيين بمكة عند المسلمين . وهذا ، وإن كان من قبيل التسوية بينهما ، إلا أنه لا يحمل معنى الخروج على الاسلام . كما نلاحظ أن حديث الشاعر عن الدين الجديد جاء كما هو واضح فى القصة ، على لسان زردشت وزردشت هو نبى هذا الدين ومن مهمته أن يغرى الناس بقبوله . فإذا جاء فى النصوص بعض المحاسن أو المزايا لهذا الدين فإنه فى الغالب من دعاوى زردشت ليستميل بها قلب گشتاسپ وغيره من الناس . ومن الطبيعى أن يكون الشاعر لسان صدق معبرا عن حال زردشت خير تعبير . فالتحمس للدين الزردشتى الذى ينسبه نولدكه إلى الشاعر هو فى الحقيقة تحمس زردشت كما عبر عنه الشاعر . ومن بعض نصوص نولدكه نفسه نتبين أن حكمه على الشاعر كان مبالغا فيه . فهو يذكر أن الدقيقى لا يبدو فيما كتبه على إحاطة بالأدب الفارسى القديم حتى يمكن أن يقال إنه أحاط بتلك العقيدة ، إلا أنه كان من مؤيديها . وقد تجنب على أى حال أن يصدم شعور القراء المسلمين ومجد دين مزديسنا كما فعل خلفه العظيم (٢) . فإذا كان الشاعر كما يقول نولدكه لا يحيط بالآداب الفارسيه القديمة ولا يمكن أن يقال إنه أحاط بالعقيدة الزردشتيه ، وإذا كان الشاعر قد تجنب أن يصدم شعور القراء المسلمين فمن المبالغة والمغالاة اذن أن يقول نولدكه إنه كان زردشتيا متحمسا لأن تحمسه للزردشتية يتنافى مع جهله بها وحرصه على شعور

---

(١) الشاهنامه : ص ١٤٩٨ ج ٦

(٢) الحماسه الايرانيه : ص ٣٢

القراء المسلمين . ثم أليس فيما ذكرناه من انتشار المصادر البهلوية ما يدل على أن الدقيقى كان ناظما وصائغا للمادة التى وجدها فى أحد هذه المصادر . فإذا كانت هناك حماسة للدين الزردشتى فلاشك أنها قد سرت من الأصل الذى ينظم عنه الدقيقى . وحسبنا على هذا أن نذكر كلام الفردوسى الذى يقول فيـــه عن الدقيقى « إنه لما عرفت هذه القصص ـ قصص الأقدمين ـ تهافت الناس عليها فتقـــدم فتى طلق اللسان . فصيـــح الـكلام ، واشتغـل بنظم تلك الأقاصيص . وكان سوء خلقه قرين شبابه فأسرع إليه الموت فجأة . . . » (١)

وهذا قاطع فى أن الدقيقى إنما كان ينظم مادة معروفة ولم يكن يؤلف . ولـكن أى مصدر هذا الذى كان الدقيقى ينظم مادته ؟ حين نراجع مادة گشتاسپنامه دقيقى نراها شديدة الشبه فى مجملها بمادة ياتكار زريران . وقد سبق أن ذكرنا موضوع ياتكار زريران والصراع بين الايرانيين والتورانيين حول دين زردشت وكيف لقى زرير حتفـــه وهو يدافع عن الدين . وهذا الشبه فى الموضوع بين الـكتابين يسهل على الباحث ادراك حقيقة هامة هى أن الدقيقى كان ينظم ذلك الـكتاب أو ترجمته على الاصح . وهكذا نكشف أمام نولدكه سر الحماسة للدين الزردشتى التى يصف بها الدقيقى فى منظـومته . فهذه الحماسة ليست سوى حماسة ياتـكار زريران الذى هو كـتاب يدور موضوعه حول الجهاد الدينى .

اما بيتا الشعر السابقان فلا يعتد بهما كثيرا . وليس معناهما أن الشاعر اعتنق فعلا الدين الزردشتى . وكل ما فى الأمر أن الدقيقى كما نعلم من تاريخ

---

(١) الشاهنامـه : ص ٨ ، ٩ ج ١

حياته كان عربيدا فاسقا لاغنى له عن شرب الخمر مما جعله يختار هذا الدين فيما ذهب اليه من إباحة الخمر . ومن تاريخ حياته أيضا نستطيع أن نقرر أن الدقيقى كان مسلما ، ولكنه مسلم ضعيف الاسلام، انغمس فى اللهو والشراب وارتكاب الآثام . ولم يكن يعنيه شيء من أمر دينه ولذلك تعلق ، ظرفا منه ومجونا ، بالدين الزردشتى لانه يبيح له الخمر .

صلة الدقيقى بالشاهنامة :

بدأ الدقيقى نظم الشاهنامه. واشتغل أولا فى نظم الجزء الخاص بگشتاسپ ولكن الأجل لم يمهله حتى يكمل العمل ، فتركه بعد أن نظم منه ألف بيت على أرجح الأقوال .

وجاء الفردوسى بعده فبدأ العمل من أوله إلى نهايته ، وضم اليه ما كان سلفه الدقيقى قد نظمه . وفى هذا يذكر الفردوسى أن الدقيقى قد جاءه فى الرؤيا وطلب اليه أن يسرع فى نظم الكتاب وألا يبخل عليه باثبات ما كان قد نظمه عن گشتاسپ وأرجاسپ وقدره ألف بيت (١) . ويواصل الدقيقى حديثه إلى الفردوسى فى الرؤيا فيقول . «وإذا بلغ الملك ـ أى محمودا ـ مانظمته ارتفعت، روحى من تحت الثرى إلى الثريا » . (٢) ولم يستطع الفردوسى أن يهمل هذه الوصية .

وإذا كان الفردوسى قد أحسن إلى سلفه الدقيقى فأثبت له أبياته الألف

---

(١) الشاهنامه : ص ١٤٩٥ ج ٦

(٢) نفس المصدر والجزء : ص ١٤٩٦

كما هى، ولم يضيع بذلك جهده ، إلا أنه قد أفسد هذا الاحسان حين وصف نظم صاحبه بالضعف والعجز. وكأن الغيرة لحقته من منافسة صاحبه الراحل - الدقيقى - حين قال : « اذا بلغ الملك نظمى ارتفعت روحى إلى الثريا» فأراد الفردوسى أن يقلل أمام السلطان محمود من شأن هذا النظم فوصفه بالضعف والسخف وذكر أنه ما أثبته إلا ليرى السلطان كيف نظم ردىء الكلام . ويصف نظمه ونظم الدقيقى بأنهما جوهران يستطيع الملك أن يميز بينهما بعد أن يصغى اليهما. ثم يوجه الكلام إلى سلفه فى لهجة أبعد ما تكون عن الخلق السليم والمنطق العف فيقول : اذا كان كلامك من هذا النوع فلا ينبغى أن تقوله ولا تكره طبعك عليه ، ولا تتعب الروح والجسد فى حفر منجم لا تجد فيه جوهرا . وإذا لم يكن لك طبع يسيل كالماء فلا تمد يدك نحو كتاب الملوك . والخير لك أن تبقى جائعا من أن تعد مائدة لا تليق [1] . فترى الفردوسى قد أساء بهذا الأسلوب الذميم إلى فن سلفه كما أساء فيما قبل إلى سيرته الشخصية [2] .

ويلاحظ نولدكه أن الجزء الذى نظمه الدقيقى قد ساده الاضطراب فى كثير من المواضع مما يحمل على الظن أن هذا الجزء لم يصل كاملا كما وضعه المؤلف أو أن أحدا من الشعراء قد تدخل فيه بشعره الخاص فأفسد وحدة العمل الأصلى واتساقه ، ويشبه أسلوب الدقيقى فى النظم أسلوب الفردوسى إلى حد كبير ولكن عند النظرة الفاحصة تبدو بينهما بعض الفروق . فالدقيقى على العموم أقل براعة ومهارة من خلفه الفردوسى وهو كثير التكرار فى طريقة العرض

---

(١) الشاهنامه : ص ١٥٥٤ ج ٦

(٢) الشاهنامه : ص ٩ ج ١

فحين يظهر بطل جديد أو يختفى هذا البطل تراه يعرض لنا نفس المنظر بنفس الطريقة وفى نفس العبارات والألفاظ فى كثير من الأحيان بينما يحسن الفردوسى المغايرة فى مثل هذه المواقف. ومناظر الحروب عند الدقيقى مناظر عامة ليس فيها وصف تفصيلى . وأكثر مايكون نجاح الدقيقى فى الخطب الطويلة والرسائل بينما تظهر المحاورات والخطب القصار جمود المؤلف (١) .

ولعل السبب فيما يعيبه نولدكه على الدقيقى من الاختصار، وايجاز الوصف فى المواقف المختلفة وخاصة الحروب أنه كان يتقيد بالأصل الذى ينظمه تقيدا كبيرا . وقد رجحنا فيما سبق أن يكون هذا الأصل هو « ياتكار زريران » . ولذلك لم ينطلق الشاعر على سجيته ، ولم يضف إلى المادة الأصلية شيئا كبيرا من خيالاته واحساساته وآرائه . وهذا السبب الذى قدمناه يصلح فى نفس الوقت تعليلا لما لاحظه نولدكه من نجاح الشاعر فى الخطب الطويلة والرسائل إذ يستطيع هنا أن يجد المجال فسيحا فينفخ فى موضوعها من روحه بينما تقيده الوقائع فى ارتباطها والحوادث فى تسلسلها فلا يجد أمامه ميدانا للانطلاق الحر.

والألف بيت التى للدقيقى فى الشاهنامه تبدأ بقوله :ـ

چو گشتاسپ را داد لهراسپ تخت

فرود آمد از تخت وبربست رخت (٢)

وتنتهى بالبيت :ـ

---

(١) الحماسة الايرانيه : ص ٣٤

(٢) الشاهنامـه : ص ١٤٩٦ ج ٦

بدو باز خـــواندند لشكرش را

گزيده سواران كشورش را(۱)

ولا يعلم متى بدأ الدقيقى ينظم أبياته الألف ولـكن المرجح أنه شرع فى نظمها فى عهد نوح بن منصور السامانى الذى جلس على العرش سنة ٣٦٥ ﻫ.

وقد سـبق الدقيقى خلفـه الفردوسى إلى الإقلال من استعمال الألفاظ العربية فى شعره . وقد أحصى نولدكه عدد الألفاظ العربية فى أبيات الدقيقى الألف فوجدها ستا وثلاثين كلمة (۲) .

---

(۱) الشاهنامـــه : ص ١٥٥٣ ج ٦

(۲) الحماسة الايرانية : ص ٣٧ هامش

٩ ـ شاهنامة الفردوسى

عرض عام :

الشاهنامة التى نظمها الفردوسى منظومة طويلة فى حوالى ستين الف بيت على المشهور . وهى مفخرة الآثار الأدبيـــة عند الايرانيين ، ويعتبرونها فى الوقت الحاضر مصدراً رئيسياً لمعلوماتهم عن الفرس القدماء وتاريخهم وتقوم شهرة الفردوسى سواء فى بلاده أو فى العالم على هذه الشاهنامه .

وتتناول الشاهنامه تاريخ الايرانيين منذ أقدم عصورهم إلى أن حطم العرب ملكهم . وهو تاريخ طويل يغلب عليه القصص والأساطير فى العهود السحيقة ثم يتخلص من هذه الأساطير شيئاً فشيئاً وإن كان لا يسلم منها تماما .

دول الشاهنامه :

وإذا نظرنا إلى تاريخ الشاهنامه من حيث تقسيماته السياسية وجدنا أنه ينقسم أربعة أقسام أو أربع دول: فالقسم الأول هو الخاص بالدولة البيشدادية وكان ملوك هذه الدولة عشرة حكموا على النحو الآتى :ـ

١ ـ كيومرث	حكم ثلاثين سنة
٢ ـ هوشنك	حكم اربعين سنة
٣ ـ طهمورث	حكم ثلاثين سنة

٤ - جمشيد	حكم سبعمائة سنة
٥ - الضحاك	« ألف سنة
٦ - فريدون	« خمسمائة سنة
٧ - منوچهر	حكم مائة وعشرين سنة
٨ - نوذر	« سبع سنوات
٩ - زو	حكم خمس سنوات
١٠ - گرشاسپ	« تسع سنوات

ويتضح من هذا الجدول أن ملوك هذه الدولة حكموا مدة ألفين واربعمائة واحدى وأربعين سنة .

ولعل أهم ملوك هذه الدولة هو فريدون . ففى عهده نشأت الخلافات بين اولاده على الملك حتى اقتتلوا . وكان هذا الاقتتال الشرارة التى أشعلت نار الحروب الطويلة طيلة العهدين البيشدادى والكيانى فى الشاهنامه ، كما كانت البذرة التى أنبتت شجرة الخلاف الطويل ، والكراهة الشديدة بين العنصرين الايرانى والتورانى على نحو ما سيأتى فيما بعد .

ويأتى بعد الدولة البيشدادية الدولة الكيانية وملوكها هم الكيانيون . وقد سموا بذلك لأن أسماءهم تبدأ بكلمة « كى » بمعنى ملك . وعدد ملوكهم تسعة . وفيما يلى بيان بأسمائهم ومدة حكم كل واحد منهم :-

١ - كيقباد	حكم مائة سنة
٢ - كيكاوس	حكم مائة وخمسين سنة
٣ - كيخسرو	حكم ستين سنة

٤ - لهراسپ	حكم مائة وعشرين سنة
٥ - گشتاسپ	« مائة وعشرين سنة
٦ - بهمن اسفنديار	« تسعا وتسعين سنة
٧ - هماى	« اثنتين وثلاثين سنة
٨ - داراب بن بهمن بن اسفنديار	« اثنتى عشرة سنة
٩ - داراب بن داراب	« اربع عشرة سنة

ويتبين من هذا الجدول مجموع سنى حكمهم وهو سبعمائة وسبع سنوات.

ومن أشهر ملوك هذه الدولة الملك كيكاوس الذى استطاع بمساعدة البطل رستم أن يقهر بلاد مازندران وهاماوران (حمير)، كيخسرو الذى هزم أعداءه التورانيين فى أكثر من موقعة حتى استطاع فى نهاية الأمر أن يقبض على بطلهم افراسياب ويقتله فيستريح بذلك الايرانيون من شره إلى الأبد. ومن ملوكهم المشهورين أيضا گشتاسپ بن لهراسپ. وأهم الأحداث فى عهده ظهور زردشت واعلانه الدعوة إلى الدين الجديد ودخول الملك وأعيان المملكة وسائر رجال الدين فى هذا الدين الزردشتى. ولم يكتف گشتاسپ باعتناقه هذا الدين بل اتخذ سبيل القوة فى نشره بين الناس.

والعهدان البيشدادى والكيانى هما عهدا الخرافات والأساطير وإن كان بينهما فى هذا فارق. فالعهد البيشدادى عهد الخرافة الخالصة بينما تمتزج بعض الحقائق بالخرافات السائده فى العهد الكيانى، وتزداد هذه الحقائق التاريخية فى العصر الكيانى كلما اقتربنا من نهايته. وحوادث الشاهنامة متصلة الحلقات فيما يتصل بهذين العهدين فليس هناك معالم واضحة لكل منهما.

وقد ظهر فى هذين العهدين أبطال كثيرون منهم رستم ، افراسياب ، اسفنديار .

رستم :

أما رستم فهو بطل أبطال الشاهنامه غير منازع وهو ابن دستان بن سام ابن نريمان . وكان ابوه دستان يتولى حكم ممالك الهند والسند فى غيبة جده سام بن نريمان . فخرج مرة للصيد قرب كابل فلقيه ملكها مهراب بالترحاب والتكريم . وكان مهراب هذا جميل الصورة ، حسن الهيئة ، عذب الحديث فأعجب به دستان ، وأبدى هذا الأعجاب لرفاقه الذين حدثوه عن جمال ابنته روذابه فعشقها دستان بعد ما سمع عن جمالها كما عشقته روذابه بنت مهراب بعدما سمعت من أبيها عن جماله وكماله . وأخذت الجوارى تتردد بين العاشقين حتى تهيأ لهما اللقاء وتعاهدا على الزواج .

ولكن قامت فى وجه هذا الزواج عقبة ذلك أن مهراب كان من نسل الضحاك وأن مثل هذا الزواج لا يمكن أن يرضى عنه أبوه سام ولا الملك منوچهر فكتب دستان إلى أبيه سام يحدثه عن عشقه ويشرح له ما يعانيه من حرقة الوجد والهيام ويضرع إليه أن يوافق على هذا الزواج . فلما وصل كتابه إلى أبيه فى مازندران علا وجهه الوجوم ، وانتابته الهموم لعلمه أن هذا مما يغضب الملك منوچهر وأسرع إلى منجميه وحكمائه يستفتيهم فى الأمر فقاموا إلى الزيجات والتقاويم ثم جاءوه مهللين وبشروه بمولود يأتيهما من هذا الزواج يملأ الدنيا مجدا وفخرا . فلما سمع سام مابشروه به رأى أن ينهض إلى حضرة الملك لاستئذانه فى عقد هذا الزواج . ولكن الملك رفض الموافقة لعلمه أن

مهراب من نسل الضحاك، وأن الحكمة تقتضى الحذر من سليل الأعداء، وكلف سام أن ينهض لحربه، وأن يستخلص ملكه، وأن يضيفه إلى مافى يده من ممالك الهند ولم يجد سام بدا من الطاعة فتوجه إلى بلاد الهند يستعد للأمر. وبلغ الخبر أسماع زال (دستان) فأحزنه أن يكون السبب فيما سينتهى اليه أمر مهراب وعزم على حمايته ودفع الأذى عنه. فلما عاد أبوه إلى مستقر ملكه خلابه ابنه وحدثه عما يعانيه من لواعج الحب وما يضطرم فى قلبه من نيران الوجد، وماعزم عليه من الدفاع عن مهراب وحمايته من كل أذى يرادبه. فرق قلب الأب ورأى أن يتريث فى حرب مهراب وأوفد ابنه إلى حضرة السلطان يستعطفه ويرجوه وكتب معه كتابا يؤكد فيه اخلاصه لذات السلطان ويبين فيه ماأداه لدولته من خدمات، ويشرح ما يكابده ولده من لوعة الغرام. ولما وصل زال إلى الحضرة وقرأ الملك الكتاب تأثر لما جاء فيه ومال قلبه إلى زال فأمر بتحقيق رغبته. وبذلك تم زواج زال (دستان) من حبيبته روذابه بنت مهراب ملك كابل. وولد لهما من هذا الزواج رستم.

وكان رستم عند ولادته ضخم الجثة. وقد لقيت أمه فى حمله وولادته مالم تلق امرأة بسبب كبر حجمه. ويقول الثعالبى عن رستم «إنه لما حملته أمه اثقلت اثقالا لاعهد للنساء بمثله وبلغ الحمل منها مبلغا شق عليها وأثر فى محاسنها وأحال ياسمينا وردها وأقعدها عن الحركة حتى أشرفت على الهلكة. ولما كان وقت الولادة وضعت بعد جهد جهيد وطلق شديد مولودا كفلقة القمر وشبل الأسد ...» (١). ولما حانت ساعة ولادته لجئوا إلى الجراحة لاستخراج هذا

(١) الغرر : ص ١٠٤

المولود فسقوا أمه خمرا صافية مركزة حتى سكرت وغابت عن وعيها . وعند ذاك تقدم الموبذ وكان ممن يحذقون صناعة الطب فشق خاصرتها بحديدة كانت معه وأخرج الجنين من بطن أمه . وكان ساعة ولد كأنه ابن عشر سنين لكبر حجمه . ويقال إن أمه لما رأته وشعرت بالخلاص من هذا الحمل الثقيل تبسمت وقالت «برستم» أى خلصت . ولذا سموا الصبي «رستم» [1] . وكان رستم على جانب عظيم من القوة البدنية حتى إنه عندما خرج لحرب أهل مازندران قبض على يد أحد فرسانهم فعصرها فى يده حتى طار قلبه خوفا . وأراد ملك مازندران أن يثبت قلوب اتباعه فدعا بجنى اسمه «كلاهور» وكان أقوى من فى المعسكر وأشدهم بأسا ، شرس الطبع ، حاد الخلق لا يعيش إلا للحرب والقتال وأمره أن يخرج لاستقبال رستم فلما مد يده ضغط عليها رستم ضغطة شديدة أسقطت أظفار هذا الجنى من أصابعه كما تسقط الريح أوراق الشجر [2] . وتذكر لنا الشاهنامة كثيرا من مظاهر قوته الخارقة فى حروبه مع أهالى مازندران الذين عرفوا بالقوة والسحر .

وكان الله قد منح رستم قوة تزلزل الأرض إذا مشى وتشقق الحجارة . ورأى رستم أن هذه القوة لا تمكنه من السير فى الطريق كما يسير الناس فدعا الله أن ينقص من هذه القوة فكان له ما أراد ، ولكنه حين حارب سهراب ولقى من مظاهر شجاعته وقوته ما أعجزه عن التغلب عليه ضرع إلى الله أن يرد

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٢٤ ج ١

(٢) الشاهنامه : ص ٣٦٣ ج ٢

عليه ما كان قد نقص من قوته فاستجاب له [١] واستطاع رستم أن يقهر سهراب على نحو مانذكره فيما بعد . وكان لا بد لهذه القوة البدنية الخارقة من من غذاء يناسبها فكان رستم إذا أكل أتى وحده على حمار وحش [٢] . وقد أربى عمره على ثلاثمائه عام .

وكان رستم يضع هذه القوة البدنية الخارقة ، والشجاعة النادرة فى خدمة ملوكه . وما دخل حربا إلا انتصر فيها وما هاجم عدوا إلا قضى عليه . ولما تولى كيكاوس الملك بعد أبيه سولت له نفسه بعد ما رأى من امتلاء الخزائن وطاعة الجند ووفرة الخيرات ، وارتفاع قدره بين الملوك أن يغزو بلاد مازندران . وكانت بلادا حصينة وعرة . وكان الملوك من قبله يتهيبون غزوها وقد حاول زال وأعيان مملكته أن يثنوه عن هذا الغزو لكنه أصر . وأمر كيكاوس قواده بالسير الى مازندران وشن الغارة على العدو فى كل مكان . فبلغ الخبر ملك مازندران فأسرع إلى ملك الجن سپيدديو (العفريت الأبيض) يستنجد به فما إن حل الليل حتى خرج العفريت بجنوده من كل مكان . ورمى كيكاوس وجنده بالحجارة والنصال حتى سد الأرض فى وجههم وأطبق عليهم من كل جانب فأظلمت الدنيا فى عين كيكاوس واضطرب أمر عسكره ووقعوا أسرى . ولم يعرف كيكاوس سبيلا للخلاص فأرسل إلى زال يخبره بما جرى له ويعتذر عن اهمال نصحه ، ويدعوه إليه عسى أن يكون الفرج على يديه . ولم يخب رجاء الملك فيه إذ كلف زال ابنه رستم أن ينهض

---

(١) الشاهنامه : ص ٥٠١ ج ٢

(٢) الشاهنامه : ص ١٦٥١ ج ٦

لنجدة الملك ، فقام سريعاً ، وركب فرسه الرخش يطوى به الأرض متعرضاً للمهالك والأخطار حتى بلغ ناحية كان ملكها يسمى اولاذ فقيده وأخذه أسيراً ووعده أن يطلق سراحـــه وأن يوليه على بلاد مازندران إذا دله على الموضع الذى حبس فيه كيكاوس. فتقدمه اولاذ دليلا ؛ وصار لا يستريح نهاراً ولا ليلا حتى وصل إلى جبل أسفروز حيث حبس كيكاوس. وكان قواد ملك الجن مثل كولاذ ، وارزنك ، وبيذ يتولون حراسة ذلك المكان . فهجم رستم على ارزنك ففصل رأسه ورمى به بين أصحابه فخافت الجن وتفرقت . وتقدم رستم من كيكاوس يبشره بالسلامة ويهنئه بالنجاة. فشكره الملك على ما قاساه من أجله ونصحه أن يغتنم الفرصة ويقضى على «سپيدديو» قبل أن يبلغه الخبر ويستعد لمواجهة الخطر. وكان على رستم كى يصل إلى ملك الجن أن يعبر سبعة جبال ينتهى بعدها إلى مغارة مظلمة عميقة هى مقر ملك الجن. وكان يتـــولى حراسة هذه المغارة عدد كبير من الجن. وقد عرف رستم من عادتهم أنهم يقيلون فى وقت الظهيرة فلا يبقى قائماً على الحراسة إلا القليـل فانتظر رستم حتى إذا اشتدت الحرارة وقالوا ركب فرسه الرخش واخترق نطاق الشياطين فبلغ باب المغارة واقتحمها بفرسه وكانت الظلمة شديدة لكنها لم تمنعه من النزول إلى قاع المغارة حيث كان الجنى الأكبر رابضاً أسود الوجه ، أحمر العينين ، أشعث الشعر ، كالح الأنياب . وحين هم الجنى بالوثوب عاجله رستم بضربة قاضية وخرج من المغارة منتصراً وعاد إلى حضرة الملك كيكاوس يزف اليه البشرى ؛ وانتشر هو ورفاقه فى مدينة مازندران يعملون القتل ؛ ويحرقون الديار ؛ وينهبون الأموال ، وينتقمون لأنفسهم أشد الانتقام.

وبعد أن فرغ الملك من أمر مازندران عاد إلى مقر ملكه فى بلاد فارس

حيث استقبله الإيرانيون بالفرح . وجلس الملك على تختـه ووزع الهبات ؛ وفرق الأرزاق ؛ وأمر لرستم من الهدايا بكل غال وثمين وولاه على ممالك نيمـــروز .

وفى عهد الملك كيخسرو حارب الايرانيون بقيادة طوس التورانيين بقيادة پيران . وبدا أن النصر فى جانب الإيرانيين أول الامر ولكن الفوز كان أخيراً للتورانيين وقتل فى هذه الحرب خلق كبير من الإيرانيين . ولم يبق لگودرز - أحد ابطال الايرانيين - من أبنائه وعددهم ثمانية وسبعون سوى ثمانية ؛ كما ضاع لبهرام بن گودرز سوط فى المعركة فـــرجع ليسترده فكان مصيره هو الآخر القتل . وعادت فلول الايرانيين إلى كيخسرو تجر وراءها أذيال الخيبة . لكن الإيرانيين لم يستول عليهم اليأس فعادوا من جديد الى القتال ؛ وتولى طوس قيادتهم للمرة الثانية . لكنه لم يقو هذه المرة أيضاً على قتال التورانيين فأرسل يستنجد بالملك كيخسرو ويطلب اليه أن يشد أزره برستم . وهكذا لم يجد الملك بدأ من الاستعانة برستم فدعاه اليه وكلفه أن يخف لنجدة زميله بعد أن أشرف على الهزيمة . وكان پيران قائد التورانيين قد تلقى فى تلك الأثناء الأمداد العظيمة وجمع له افراسياب كل من فى مملكته من فرسان وشجعان منهم خاقان الصين وكاموس الكشانى أشجع فرسان ما وراء النهر فقويت بذلك روح پيران المعنوية وعزم على أن يتخلص من أعدائه فى غده وأوصى أصحابه بمراقبة الإيرانيين حتى لا يفلتوا ليلا من الحصار الذى ضربه حولهم فى ذلك الجبل الذى اعتصموا به . ولما علم الايرانيون بهذه الأمداد التى وصلت التورانيين وهن عزمهم ، وعلموا أن أجلهم قد دنا ، وتفرقوا فى الجبل جماعات ينتظرون الهلاك فى كل لحظة . وبينما هم كذلك إذ

جاءهم الخبر بقرب وصول النجدة فانقلب حزنهم فرحا ، ويأسهم أملا ، ووهنهم قوة وعزماً . ووصلت اليهم ليلا جيوش رستم فاستقبلوها فرحين مهللين . وقضى رستم الليل مع أصحابه گوذرز ، گيو ، طوس وسائر الامراء والقواد يتشاورون فى الامر . حتى اذا أصبح الصباح ، نشب القتال واستمر بينهم طيلة النهار . وفى اليوم التالى فقد التورانيون أحد أبطالهم - كاموس الكشانى - إذ اختطفه رستم بالوهق وجره اليه أسيراً وأباح دمه لأصحابه . فلما رأت التورانية ذلك مالت فترة الى الصلح ولكن الرغبة فى القتال غلبتهم فعادوا الى حرب رستم الذى جندل أبطالهم واحداً بعد واحد وسحق عساكرهم سحقا ؛ وأوغل فى صفوفهم يقتل ويأسر حتى وصل الى الفيل الابيض الذى يركبه الخاقان فرمى بالوهق وطرح الخاقان عن ظهر فيله وجذبه اليه فأخذه اتباعه أسيراً . ولما رأى پيران ما أصاب الابطال والشجعان ركن إلى الفرار وتبدد شمل من كانوا معه من التوران . وهكذا نرى أن هزيمة الايرانيين قد تحولت فيما بعد الى نصر باهر بفضل رستم وشجاعته ، وان جيوش الايرانيين لم تكن تستغنى عنه فى واقعة من الوقائع ليحقق لها النصر على الاعداء .

ورستم هو الذى أنقذ بيژن بن گيو فى قصة طويلة ملخصها أن أهل أرمان ، وهى ناحية بين مملكة ايران وتوران ، وفدوا على كيخسرو ذات يوم يشكون إليه انتشار الحيوانات الضارية فى ناحيتهم مما أفسد الزرع وأتلف الثمر ، فرق لحالهم قلب كيخسرو وندب بيژن بن گيو لتطهير تلك الناحية وتأمين أهلها . وأمر گرگين بن ميلاد أن يرافقه فى سفرته ليدله على المسالك والطرق . وقد نجح بيژن فى مهمته ، وطهر تلك الناحية مما فيها من الحيوانات المؤذية فاغتاظ گرگين لما أصابه بيژن من النجاح ، وانفراده به ، وامتلأ قلبه حقدا عليه

وسلك سبيل الحيلة ليتخلص منه فأخذ يثني على بيژن ويمتدح شجاعته ويتحدث عن بأسه وقوته نفاقا وخداعا . ثم شرع بعد ذلك يحدثه عن روضة غناء ، كثيرة العشب والماء ، طيبة الهواء ملتفة الأشجار ، منوعة الرياحين والأزهار على مسيرة يومين من مكانهما . ثم تمادى فى إغرائه فأخبره أن ابنة افراسياب منيژة تذهب إلى هنـــاك فى فصل الربيع من كل سنة تقضى فترة من الزمان مستمتعة بطيب ذلك المكان ، ومعها عدد كبير من الجوارى الحسان من نساء التوران . فمال قلب بيژن إلى الذهاب ودفعه الشباب وحب النساء إلى الموافقه على ارتياد ذلك المكان . ولما وصلا جلس بيژن يستريح تحت شجرة قريبة من خيمة ابنة افراسياب - عدو الايرانيين اللدود - فرأته منيژه وراقها جماله ، وفتنها شبابه ، فأرسلت اليه جارية من جواريها تدعـــوه إليها . وقضت مدة مقامها معه فى تلك الغيضة حتى تمكن حبه من قلبها . فلما حان وقت الرحيل لم تطق أن تفارقه فسقته مخدرا أسلمه إلى النوم العميق وحملته معها إلى أن بلغت قصر أبيها افراسياب فأفردت له حجرة هناك وجعلت تتردد عليه وتقضى جل وقتها لديه، حتى بلغ الأمر افراسياب فكلف كرسيوز أن يفتش القصر ويأتيه بكل غريب يجده فيه . وصدع كرسيوز بالأمر ، وأحاط القصر برجاله من جميع نواحيه ودخل هو حتى إذا قرب من الحجرة انتهى إلى سمعه صوتهما وهما يلهوان ويقصفان فخلع البـاب ودخل فإذا به أمام بيژن بن گيو ، فحمله إلى حضرة افراسياب الذى أمر أن يصلبوه . لكن پيران حين علم بذلك نصحه أن يعـدل عن صلبه حتى لا يضاعف عداوة الايرانيين له ، فاستصوب رأيه وأمر أن يقيد ويلقى فى جب مظلم إلى أن يموت ، وأن تخرج ابنته من قصره ذليلة مكسورة فتلقى فى الصحراء عند جب صاحبها . وكان فى رأس الجب

فجوة صغيرة جعلت منيژه تلقى منها إلى بيژن كل ما يتجمع لديها من كسر وفتات ليقتات بها صاحبها . وكانت هى تقضى طول يومها عند رأس الجب تبكى وتنتحب .

ولما اطمأن گرگين الخائن إلى وقوع صاحبه فى الكمين رجع يبدى الأسف والحزن وأخبرهم بفقده. وكان عند الملك جام عجيب إذا نظر فيه رأى مايجرى فى كل الأقاليم فجاء به ونظر فوجد بيژن مقيدا فى الجب فى قليم كركساران ووجد منيژه قابعة عند رأس الجب تبكى وتنتحب ، ففطن إلى الأمر ، وكلف رستم أن يسرع إلى إنقاذ بيژن . ورأى رستم أنه لاسبيل لخلاص بيژن بالقتال وأن النجح لا يتم إلا بالمكر والاحتيال . فارتدى هو وأصحابه ملابس التجار ودخلوا بلاد التوران بدعوى البيع والشراء حتى اهتدوا إلى الجب الذى قيد فيه بيژن فرفع رستم عنه غطاءه ودلى الوهق فأخرج بيژن وحمله مع صاحبته منيژه وقفل راجعا . وبلغ افراسياب ما احتال به رستم وكيف أخرج من الجب صاحبه فتبعه فى جنده حتى أدركه فى بعض الطريق ولكن رستم ومن معه حملوا عليهم حملة قوية فولى افراسياب وجنده منهزمين . وعاد رستم إلى الملك يحمل معه بيژن سالما .

وهكذا ترى أن رستم كان عماد هذا العهد الخرافى ، وبطله غير منازع . ولم تخل حياة هذا البطل الخيالى القومى من مأساتين داميتين : أولاهما مأساته مع ابنه سهراب ، وثانيتهما مأساته مع أخيه شغاذ .

مأساة رستم وسهراب :

أما مأساة رستم مع ابنه سهراب فهى أفجع مافى الشاهنامه من المآسى .

وموقف رستم من ابنه سهراب فى هذه المأساة من المواقف المؤثرة العنيفة .
وخلاصة هذه المأساة أن رستم كان قد خرج ذات يوم للصيد وأوغل فى السير حتى وصل حدود توران . وكان صيده كثيرا فشوى منه وأكل ونام بعد ذلك ليستريح . وترك فرسه الرخش يرعى إلا أن بعض المارة من التورانيين رأوا الفرس وحيدا فأخذوه إلى بلدتهم سمنجان . ولما صحا رستم لم يجد فرسه فأخذ يتتبع أثره حتى وصل إلى تلك المدينة. وشاع فى المدينة خبر قدوم رستم فأسرع اليه ملكها ورحب به ووعده بالبحث عن فرسه واستضافه تلك الليلة . وبينما هو نائم إذ أحس بحركة فى حجرته ورأى امرأة بارعة الجمال تقترب منه فسألها عن أمرها فعرف أنها ابنة ملك سمنجان وقد سمعت بخلقه وشجاعته فأحبته وعرضت نفسها عليه تريد أن يرزقها الله مولودا فى مثل قوة رستم .
فبات معها تلك الليلة وأهداها خرزة كانت معه وأوصاها أن تشدها على عضد المولود إن جاء ذكرا . ولما أصبح الصباح جاءه الملك بفرسه ففرح به وعاد مسرورا إلى ايران . وبعد تسعة أشهر ولدت ابنة الملك مولودا ذكرا سمته سهراب كان يشبه أباه فى شجاعته وقوته . ولما كبر سأل أمه عن أبيه فأخبرته الخبر . وعند ذاك صح عزمه على خوض غمار الحروب اقتداء بأبيه وجده وجمع عساكر عظيمة من الترك أراد بها أن يخلع أولا كيكاوس عن عرشه ثم يعطف بعد ذلك على افراسياب فيخلو له بذلك ملك الإيرانيين والتورانيين .
ولما علم افراسياب بعزم سهراب على قتال كيكاوس سر لذلك وشجعه عليه واوفد معه بعض أعوانه وأوصاهم إذا التقى الجمعان أن يحولوا بين سهراب وبين رستم حتى لا يعرف الابن أباه عند الملاقاة . وقد يسعد الحظ افراسياب فيقتل أحدهما الآخر أو يقتلان معا . وقبل أن يرحل سهراب ودعته أمه

وربطت إلى عضده الخرزة وأوصته أن يسعى للقـاء أبيه . ولما بلغ الأمر كيكاوس كتب إلى رستم يستدعيه ، وتجهزت الجيوش ، وحاول سهراب قبل القتال أن يهتدى إلى أبيه رستم بين رجال الأعداء فلم يتحقق له ذلك . وبدأ سهراب القتال فهجم على سرادق كيكاوس فقوضه وأزعج عسكره فأوفد الملك « طوس » إلى رستم يخبره بما فعله سهراب ، ويستحثه على لقائه . فخرج رستم لمبارزة سهراب وهو لا يعرف أنه ابنه . وكان سهراب قد رأى من قوة رستم ومتانة بنيانه وطول قامته وشدة أعضائه ما ذكره بحديث أمه عن أبيه ، فدنا من غريمه ، وسأله عن أصله وحقيقته فلم يفز منه بإجابة شافية . وعند ذاك يئس سهراب من لقاء أبيه وبدأ المبارزة ، وحمل على عدوه ، أو أبيه ، حملة شديدة . وما زالا يتبارزان حتى تكسرت سيوفهما ، وسال عرقهما ، واشتد تعبهما دون أن يعرف الأب ابنه ولا الابن أباه . ثم استراحا ساعة عادا بعدها إلى القتال وطال بينهما الأمر فأخرج سهراب جرزه وأهوى به على اكتاف رستم فتألم رستم لشدة الضربة ، وضحك سهراب ضحك من يظن أنه ظافر بعدوه منتصر عليه . ولما أدركهما الليل توقف بينهما القتال . وفى الصباح تقابل الفارسان فأقبل سهراب على رستم يسأله عن حاله كأنه صديق حميم ، وأخذ يعرض عليه وقف القتال ، والجنوح إلى السلام لما يستشعره فى قلبه من حب له وميل إليه ؛ ولـكن رستم الذى عرك الدهر ، وصرع الأبطال ، وهزم الملوك من الإنس والجان ظن ذلك حيلة وخديعة فرفض ما عرضه عليه سهراب ، ويعلم الله أنه فيما عرض كان مخلصا ملبيا نداء القلب والدم ولـكن هكذا شاء القدر ولا يملك الانسان لنفسه النفع أو الضر . وترجل كل منهما عن فرسه ، وبدأت بينهما المبارزة ، وحميت المصارعة الى أن القى سهراب رستم على الأرض وجثم على

صدره وهم باحتزاز رأسه لكن رستم عمد إلى الحيلة واستمهله الى الجولة الثانية واستطاع فى هذه الجولة الأخيرة أن يتغلب على سهراب فيلقيه أرضا ويستل خنجره ويشق به نحره . ولما رأى سهراب الموت ذكر أمه وما أوصته به من البحث عن أبيه رستم . فما أن سمع رستم هذا الكلام حتى أظلمت الدنيا فى عينيه ومادت الأرض تحت قدميه ثم إنه نظر فوجد فى عضد سهراب تلك الخرزة وتيقن عند ذاك أنه قتل ولده بيده ، فأخذ يندبه ويشق عليه الصدر ، وينتف الشعر . وعاد إلى عسكره على تلك الهيئة المنكرة ، أغبر الوجه ، أشعث الشعر ، سائل الدمع ، ممزق الثياب، معفر الرأس بالتراب . فأقبلوا عليه يعزونه ويواسونه . ورجع بعد ذلك الى زابلستان يحمل ولده وقتيله سهراب فى تابوته حيث دفنه فى موطنه . وهكذا قتل الأب الابن وقضى بذلك الأمر (١) .

هذه هى المأساة الأولى وفيها قتل رستم ابنه سهراب .

مأساة رستم وشغاذ :

أما المأساة الثانية فقد لقى رستم حتفه فيها على يدى أخيه شغاذ . وخلاصة الخبر فى هذه المأساة أن زال بن سام - أبا رستم - كانت له جارية حملت منه وولدت له ولداً سماه شغاذ . ولما كبر شغاذ تزوج ابنة ملك كابل وكان رستم قد فرض على ملك كابل خراجاً يؤديه إليه كل عام . وظن ملك كابل بعد أن زوج ابنته إلى شغاذ أن هذا يعفيه من أداء الخراج ، وحاول أن يسوف فى الأداء لكن رستم اشتد عليه حتى أدى الخراج المعلوم فاغتاظ أخوه شغاذ

---

(١) الشاهنامه : ص ٤٣٣ وما بعدها ج ٢

واعتبر هذا إهانة له ، واتفق مع صهره على اتباع الحيلة للخلاص من رستم فدعواه الى كابل وحفروا فى طريقه حفائر غرزت فى قاعها النصال المحددة والحراب المشرعة وغطوا هذه الحفائر . ولما أقبل رستم بفرسه وقع فى حفيرة منها فتمزق جسده وأصيب إصابات خطيرة قضت عليه .(١)

هذا بعض ما تحدثت به الشاهنامه عن رستم .

وأبطال الإيرانيين فى الشاهنامه ، غير رستم ، كثيرون نشير من بينهم إلى اسفنديار بن گشتاسپ .

اسفنديار :

كان اسفنديار ساعد أبيه الأيمن حتى دخل بينهما الوشاة ففسد قلب الأب على ابنه ، وقيده بالأغلال والسلاسل وسجنه فى إحدى القلاع . ثم توجه أبوه بعد ذلك إلى زابلستان فأقام فى ضيافة زال سنتين . ووصل إلى علم أرجاسپ التورانى أن گشتاسپ بعيد عن مملكته ، وأن ابنه اسفنديار مقيد فى احدى القلاع ، وأنه ليس فى مدينة بلخ غير لهراسپ الشيخ مع سبعمائة من عبدة النار فوجد الفرصة سانحة للثأر من الإيرانيين . وكلف ابنه كهرم ان يسرع إليهم . وصل كهرم إلى بلخ وقتل لهراسپ ودخل الى بيوت النار والمعابد والقصور فهدمها وأحرق ما فيها من كتب الزند وأهلك من كان فيها من الموابذة وأطفأ النيران المشتعلة . وحين وصل الخبر إلى گشتاسپ بما فعله ارجاسپ تقدم لقتاله ، ونشبت بينهما الحرب ، وانهزم الايرانيون هزيمة

---

(١) الشاهنامه : ص ١٧٢٩ ج ٦

منكرة ، وقتل أبناء گشتاسپ وعددهم ثمانية وثلاثون ، وتراجع گشتاسپ الى جبل عظيم يعصمه ، فجاء ارجاسپ وحصره فيه . ولما ضيق عليهم الحصار ، وقلت أرزاقهم ، وشحت أقواتهم ، وعلم گشتاسپ أنهم صائرون إلى الهلاك ذكر ابنه اسفنديار فأوفد اليه من يطلق سراحه ، ويعتذر اليه ؛ ويستنهض همته لنجدة أبيه فى محنته . وركض اسفنديار للنجدة ناسياً ما أصابه على يد أبيه من شدة ، ووصل إلى الإيرانيين فضاعف وصوله حماسهم ، وقوى عزائمهم ، وباتوا طول ليلهم يستعدون . ولما طلع النهار حمل اسفنديار على عسكر الأعداء حملة شديدة ففر أرجاسپ وأعوانه وتركوا عساكرهم للموت يحصدهم حتى امتلأت الارض بجثثهم . وسار اسفنديار من بلخ قاصدا توران يقتفى أثر ارجاسپ الذى اختفى فى قلعة منيعة هى قلعة روئين دژ . وقد سلك اسفنديار طريقاً محفوفة بالمخاطر هى طريق هفتخوان حتى بلغها آخر الامر (١) ، فهاله ما رأى من حصانتها ومناعتها وعرف أنها لا تفتح بالقتال ولا سبيل إليها بغير المكر والاحتيال فأمر باحضار الرواحل وحملوها بصنوف البضائع وأحضر مائة وستين صندوقا جعل فى كل صندوق منها فارسا من فرسانه كامل العدة و السلاح وحمل هذه الصناديق على الرواحل ، ولبس الجميع ملابس التجار من الأتراك وجاءوا الى سور القلعة فسر أهلها بمقدمهم وأرادوا أن يعاينوا ما معهم من بضاعة وتجارة ولكنه رفض أن يعرض عليهم شيئاً قبل أن يعرضه على الملك فأخذوه إليه فحدثه عما معه من تجارة ونفائس

---

(١) راجع تفاصيل المخاطر التى تعرض لها اسفنديار فى هذه الطريق وكيف تغلب عليها فى الشاهنامه .

وطرائف تركها فى الصناديق عند باب القلعة فأمر الملك فرفعوا تلك الصناديق إلى داخل القلعة . ووهبه الملك داراً يقيم بها ومتجراً يبيع فيه ويشترى . وبعد أيام أقام وليمة عظيمة دعا إليها الملك والامراء والقواد وكبار القوم فقضوا الليل كله فى القصف والمنادمة ثم انصرفوا وهم ثملون . وانتهز اسفنديار هذه الفرصة وأشعل النار فوق سور المدينة . وكان هذا اشارة متفقا عليها ، فأقبل بشوتن أخو اسفنديار بالجيش الى القلعة . ولما علم ارجاسپ بمجىء الايرانيين اخرج الجيش لمقاتلتهم فخلت بذلك القلعة وعند ذاك أخرج اسفنديار رجاله من الصناديق فهجموا على أرجاسپ ولم يكن قد أفاق بعد من سكره فقتلوه وألقوا برأسه بين جنده وهم يقاتلون فسادهم الاضطراب وعمهم الذعر فولوا هاربين . وقتل فى هذه المعركة كهرم واندريمان ابنا أرجاسپ وأسرت أختاه وبنتاه وزوجته . وعاد اسفنديار إلى أبيه ظافراً منصوراً .

وكان اسفنديار يطمع إذا انتصر فى حربه على أرجاسپ أن يتنحى له أبوه عن التاج والعرش مكافأة له فلما لم يفعل ساءه ذلك . والظاهر أن أباه أحس بما يجول فى خاطره ولم يكن التنازل عن الملك سهلا لديه فأراد أن يتخلص منه وأوفده لقتال رستم بن دستان مدعيا أنه لم يسرع إلى خدمته كما كان يفعل مع الملوك السابقين وأنه اعتزل فى زابل من عهد لهراسپ دون سبب وجيه متغافلا عما يجب عليه نحو الملك . ووعده أن يلقى اليه مقاليد الأمور إذا جاءه برستم أسيرا . فخرج اسفنديار بجيشه لمقاتلة رستم الذى حاول أن يرده بالحسنى عن سلوك طريق الشر ، وأخذ يعتذر إليه عما كان من تقصيره فى خدمة گشتاسپ ، ووعده أن يسرع لأداء فروض الطاعة والولاء ، وأن يكون عند حسن ظن گشتاسپ كما كان عند من سبقوه من الملوك والأمراء . ولكن

هذا المقال الحلو لم يزد اسفنديار إلا تمسكا بالقتال فانتهى أمره إلى وبال وكان قتله هو العاقبة والمآل .

افراسياب :

ومن أبطال الشاهنامه من غير الإيرانيين افراسياب التوراني . وهو افراسياب بن بشنك من ولد تور بن افريدون . ويقول الثعالبى عنه إنه كان بطلا مقاتلا وفاتكا باسلا بل كان شيطان الإنس وسلطان السحرة وجمرة الترك (١) . ومع أن افراسياب بطل فذ من أبطال الشاهنامة بلا شك إلا أن الشاهنامة لا تمجد فيه روح البطولة ولا تسلم له بها فى صراحة ، بل إنها تحاول أن تنتقص من هذه البطولة بما تصفه من الغدر والنكث بالعهود (٢) . وعلة هذا واضحة فأفراسياب تورانى والتورانيون فى الشاهنامة ألد أعداء الايرانيين . ولا يستسيغ ناظم الشاهنامة فى تعصبه لقومه أن يسلم بمجد أو بطولة لغير الإيرانيين . وسنتحدث فيما بعد عن موقف الشاهنامة من التورانيين وغيرهم من الأمم والشعوب الأخرى .

* * *

هذا بعض ما ورد فى الشاهنامة عن هذين العهدين ، عهد الدولة البيشدادية والدولة الكيانية ، وطرف من سيرة الأبطال الذين ذاع صيتهم . وقد أنكر كثير من المؤرخين ما فى هذا القسم من الشاهنامه من الخرافات والأساطير .

---

(١) الغرر : ص ١٠٧

(٢) الشاهنامة : ص ٥٥٦ ج ٣

يقول البيرونى « ولهم فى تواريخ القسم الأول (أى البيشداديين) وأعمار الملوك وأفاعيلهم المشهورة ما يستفر عن استماعه القلوب وتمجه الآذان ولا تقبله العقول » . (١) أما ابن الأثير فيقول عند حديثه على الملك جمشيد « وهذا الفصل من حديث جم قد أتينا به تاما بعد أن كنا عازمين على تركه لما فيه من الأشياء التى تمجها الأسماع ، وتأباها العقول والطباع فإنها من خرافات الفرس مع أشياء أخرى قد تقدمت قبلها وإنما ذكرناها ليعلم جهل الفرس فإنهم كثيرا ما يشنعون على العرب بجهلهم . » (٢) ويقول فى موضع آخر عن قصة الضحاك الخرافية « وهذا أيضا من أكاذيب الفرس الباردة ولهم فيه أكاذيب أعجب . » (٣)

ويذكر الدكتور عزام فى تعليقاته على الترجمة العربية أن قارىء الشاهنامه لا يشعر بالفصل بين العهدين البيشدادى والكيانى فسياق القصة مستمر لا ينقطع ولا يتغير وأبطال العهد البيشدادى هم أنفسهم أبطال العهد الكيانى (٤) . ويبدأ الخلاف بين العهدين أيام الملك لهراسب فتتغير بواعث الحرب وميادينها . (٥) ويذكر أن القارىء حين يبلغ عهد گشتاسب يشعر أنه قد بدأ ينتقل من ظلمة الأساطير إلى ضوء التاريخ حيث يجد من الحوادث والأسماء ما يشبه ما عرف فى تاريخ الأكمينيين . (٦)

---

(١) الآثار الباقية : ص ١٠٠ ط سخاو ليبزج ١٩٢٣
(٢) ابن الأثير : ص ٢٦ ج ١ ط مصر
(٣) نفس المصدر والجزء : ص ٣٠
(٤) تعليقات عزام على الترجمة العربية : ص ٩٩ ج ١
(٥) نفس المصدر والجزء : ص ٣٠٨
(٦) نفس المصدر والجزء : ص ٣٢٥

نكتفى الآن بهذا القدر من الحديث عن العهدين الأولين من الشاهنامة وهما العهد البيشدادى والكيانى .

* * *

يأتى بعد ذلك القسم الخاص بالاسكندر ومن خلفه من الملوك الأشكانيين . وهذا القسم فى الشاهنامة موجز ايجازا شديدا لا يتناسب مع الطول والامتداد اللذين نجدهما فى القسمين السابقين من الشاهنامه . ولعل هذا راجع إلى أن الفرس لا يعتبرون عهد الاسكندر ومن جاء بعده من الأشكانيين من عهودهم الزاهرة . ويطلق على هذا العهد العهد الاسكندرى أو الأشكانى وهو من عهود الانحطاط فى تاريخهم القومى ، ذلك أن الإسكندر حين تغلب على البلاد محا كثيرا من النقوش والآثار الايرانية كما أحرق فى حالة سكره مدينة اصطخر وكانت عاصمة ملوك الدولة الهخامنشية وخربها وأحرق مكتباتها التى كانت تشمل آثاراً نفيسة فى شتى المعارف الإنسانية . فلما قضى الاسكندر لم يهتم خلفاؤه بالآداب والعلوم الايرانية وكان من نتيجة هــذا أن انتشرت اللغة والثقافة اليونانية فى البلاد وضعفت العصبية القومية . ولما جاء الأشكانيون (البارث) كانوا بصفة عامه من أهل الحرب ولهذا لم يهتموا بأحياء التراث الايرانى والعمل على حمايته . وعلى العكس مما كان ينتظر منهم اتجهوا نحو الثقافة اليونانية كأسلافهم من خلفاء الاسكندر . وكان أغلب ملوكهم يجيد هذه اللغة وآدابها .

وعلى العموم لم يكن عهد الاسكندر وخلفائه ، وعهد ملوك الأشكانيين من العهود الزاهرة فى تاريخ الفرس .

وقد دام هذا العهد من فتح الاسكندر إلى انتصار اردشير بن بابك على

اردوان مائتين وستا وستين سنة .

ومع أن الاسكندر غزا الايرانيين وقهرهم وحطم ملك الكيانيين ، إلا أن الشاهنامة تصوره لنا فى صورة جميلة . فإنه عند ما آل اليه الأمر أعفى الناس من الخراج خمس سنين ووعد بمساعدة الفقراء دون أن يكون فى هذه المساعدة مساس بما فى أيدى الأغنياء (١) . وأى خلق أجمل من هذا الخلق الذى تنسبه الشاهنامة للاسكندر حين حضرته الوفاة إذ كتب إلى أمه يوصيها ألا تمسك من الأموال التى جمعها أكثر مما تحتاج اليه فى قوتها وأن تفرق الباقى على المحتاجين . (٢)

ولعل سبب هذه الصورة الجميلة التى صور بها الشاعر الاسكندر ما ادعاه من انتساب الاسكندر للايرانيين . ولعل الشاعر أراد أيضاً بنسبة الإسكندر للايرانيين أن يمحو عن هؤلاء عار هزيمتهم أمامه ، فأصبح الاسكندر بهذه النسبة منهم ولا يعيب الايرانيين انهزامهم أمامه . ومادام الاسكندر إيرانياً فمن الواجب أن يصوره الشاعر بهذه الصورة الجميلة .

ويرى الدكتور عزام أن الاشكانيين لتأثرهم بالحضارة اليونانية ولأن سلطانهم لم يكن شاملا لبلاد الفرس كلها لم تعن بهم الأقاصيص الفارسية بل جارت على تاريخهم فسلبتهم بعض مفاخرهم وأبطالهم ووقائعهم ونسبتها إلى البيشداديين والكيانيين ، فقارن وگوذرز وگيو وبيژن أبطال العهد الكيانى فى الشاهنامة

---

(١) الشاهنامه : ص ١٨١٠ ج٧

(٢) الشاهنامه : ص ١٩١٢ ج٧

ليسوا إلا من أمراء الأشكانيين [١] .

* * *

يأتى بعد هذا العهد الأخير فى الشاهنامة وهو العهد الساسانى . وهذا بيان ملوك هذا العهد ومدة حكم كل منهم :

١ - اردشير بن بابك	حكم أربعين سنة وشهرين
٢ - شابور بن اردشير	« احدى وثلاثين سنة وشهرا ويومين
٣ - هرمزد بن شابور	حكم سنة واحدة وشهرين
٤ - بهرام بن هرمزد	حكم ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام
٥ - بهرام بن بهرام بن هرمزد	حكم تسع عشرة سنة
٦ - بهرام بهراميان (بن بهرام بن بهرام)	« أربعة أشهر
٧ - نرسى بن بهرام	« تسع سنين
٨ - هرمز بن نرسى	« تسع سنين
٩ - سابور بن هرمز بن نرسى وهو المعروف بسابور ذى الأكتاف	« اثنتين وسبعين سنة
١٠ - أردشير الملقب بالمحسن (نيكوكار) أخى سابور	« اثنتى عشرة سنة
١١ - سابور بن سابور ذى الأكتاف	« خمس سنين وأربعة أشهر
١٢ - بهرام بن سابور بن سابور	« أربع عشرة سنة
١٣ - يزدجرد بن سابور بن سابور ذى الأكتاف	« احدى وعشرين سنة

---

(١) تعليقات عزام على الترجمة العربية ص ٣٦ ج ٢

١٤ - بهرام گور بن يزدجرد	حكم	ثلاثاً وستين سنة .
١٥ - يزدجرد بن بهرام گور (جور)	»	ثماني عشرة سنة .
١٦ - هرمزد بن يزدجرد	»	سنة وشهراً .
١٧ - فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور	»	إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر .
١٨ - بلاش بن فيروز	»	خمس سنوات وشهراً وستة أيام .
١٩ - قباد بن فيروز	»	أربعين سنة .
٢٠ - كسرى أنوشروان بن قباد بن فيروز	»	ثمانياً وأربعين سنة .
٢١ - هرمزد بن كسرى أنو شروان	»	أربع عشرة سنة .
٢٢ - كسرى پرويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان	»	ثمانياً وثلاثين سنة
٢٣ - قباد بن پرويز بن هرمز بن كسرى انو شروان	»	سبعة أشهر .
٢٤ - اردشير بن شيرويه بن پرويز	»	ستة أشهر .
٢٥ - فرائين جراز	»	خمسين يوماً .
٢٦ - پوران دخت بنت كسرى پرويز	حكمت	ستة أشهر .
٢٧ - آزرم دخت بنت كسرى پرويز	»	أربعة أشهر .
٢٨ - فرخزاد	»	شهراً واحداً .
٢٩ - يزدجرد بن شهريار بن كسرى پرويز	»	ست عشرة سنة .(١)

* * *

ومن هذا يتبين أن عدد ملوكهم كان تسعة وعشرين ملكا حكموا مدة

---

(١) الشاهنامة : ج ٧ ، ٨ ، ٩

أربعمائة وثلاث وتسعين سنة وعشرة أشهر ويوم واحد .

وعهد الدولة الساسانية من أزهى عهود التاريخ الفارسى . وحديث الشاهنامة عن هذه الدولة حديث تاريخى وإن لم يسلم من بعض القصص . ويبدو أن مجال الإنشاد فى هذا القسم من الشاهنامة لم يكن فسيحا أمام الشاعر كما كان فى العهدين البيشدادى والـكيانى لقلة المادة الأسطورية ولارتباط الشاعر بحوادث التاريخ التى ينظمها من المصادر التى لديه . وأشهر ملوك هذه الدولة أردشير الذى أسس الدولة بعد أن تغلب على اردوان ، وسابور ذو الاكتاف وله مع العرب حروب كثيرة هزمهم فيها وقتل منهم خلقا كثيرا وكان ينزع أكتاف الأسرى حتى سمى ذا الأكتاف . ويمتاز عهد قباد بالفتنة الدينية التى أثارها مزدك فى عهده . وقد دخل قباد فى دين مزدك وشاع هذا المذهب على عهده حتى ضج الموابذة وسعوا لدى قباد حتى انحرف عن هذا الدين الجديد وترك لابنه أمر التخلص من مزدك واتباعه فقتله ونكل بهم وعاد الناس إلى دينهم الأول . وأما كسرى أنو شروان فعهده من العهود الزاهرة فى هذه الدولة إذ ارتفع شأن البلاد فى جميع النواحى السياسية والحربية والأدبية والأدارية . ويتجلى الترف الملكى بأجلى مظاهره فى عهد كسروى پرويز . وبعد ذلك أخذت الدولة فى الانحطاط والتدهور فكان يلى امر البلاد ملوك ضعفاء لا يبقى الواحد منهم فى الحـكم غير أشهر أو أيام . ولاختفاء الملوك الاكفاء الممتازين استطاع أن يرقى العرش بعض النساء مما زاد البلاد ضعفا وأطمع فيها أعداءها وأعدها لتكون فريسة سهلة للغزاة العرب .

هذه هى تقسيمات الشاهنامة من حيث عهودها ودولها . ويمكن أن تنظر

إلى الشاهنامة نظرات أخرى فنقسمها على ضوء الاعتبـارات الموضوعية لا العهود والدول السياسية .

تقسيم آخر للشاهنامة :

هناك تقسيمات أخرى يمكن أن نقسم اليها الشاهنامه . أول هذه التقسيمات تقسيمها إلى ثلاثة أدوار متمايزة :

١ ـ الدور الأسطورى

٢ ـ دور البطـولة

٣ ـ الدور التـاريخى

١ ـ أما الدور الأسطورى فنعنى به عهد كيومرث وهو شنكَ وطهمورث وجمشيد والضحاك حتى ظهور افريدون . وتتمثل الأساطير فى هذا العهد فيما تصوره الشاهنامه من تسخير الجن لخدمة الملوك كما كان الحال مع كيومرث وجمشيد ، وفيما ترويه لنا عن ابليس الذى تمثل للضحاك طباخا حاذقا وكيف كان السبب فى ظهور الحيتين على كتفيه وما احتاج إليه الضحاك من قتل العباد لاطعام هاتين الحيتين إلى أن كثر منه التقتيل وعم الظلم فثار عليه كاوه .

هذا الدور الاسطورى لا نجد فيه بطولة ظاهرة ، ولا أبطـالا قوميين تعتد بهم الشاهنامة ، ولا دوافع قومية تدور من أجلها الحروب ، ولا مثلا توجه المنازعات وجهة خاصة . ومن هنا جاء الفرق بينه وبين الدور الثانى دور البطولة .

٢ ـ دور البطولة : وهذا الدور مشترك مع الدور الأسطورى الذى قبله

فى الأساطير ولكن الفرق بينهما الذى جعلنا نميزها عن بعضهما ظهور المثل فى حياة الناس ، الوعى القومى الذى يخلق أبطالا قوميين تدور حروبهم حول الدفاع عن الوطن ، والتعصب لأهله ، والقضاء على أعدائه ، واعتناق دين خاص ، ومحاولة نشره بين الناس إيمانا به . فثورة الشعب ضد الضحاك كانت ثورة واضحة الهدف . وكان هدفها القضاء على الظلم والاضطهاد ، واستطاع الشعب أن ينجح فى تحقيق هدفه فعزل الضحاك وولى مكانه افريدون الذى اشتهر بالعدل . وحروب رستم وافراسياب الذى شغلت الجزء الأعظم من هذا الدور لم تكن حروبا طائشة لا هدف لها ولا مثل من ورائها فهى حروب قامت من أجل تسويد العنصر الايرانى وتحقيق السيادة له فى الأرض على جميع العناصر والشعوب والقضاء على منافسيه فى هذه السيادة وهم التورانيون . وحروب اسفنديار ضد التورانيين فى سبيل الدفاع عن العقيدة ، ونشر راية الدين الجديد بقوة السلاح كانت حروبا يدفع إليها الايمان والحماسة الدينية . فالفكرة القومية هنا واضحة ، والمثل العليا ظاهرة . وهذا هو أهم ما يميز هذا العهد عن سابقه . ويبدأ هذا الدور منذ ظهر الثائر الشعبى كاوه وينتهى بقتل رستم . وهذا العهد أهم ما جاء فى الشاهنامة من ناحية تمثيله للحماسة القومية الايرانية .

٣ ـ الدور التاريخى : وهو القسم الثالث من الشاهنامة . وفيه يختفى عنصر البطولة الفردية القائمة على الأمور الخارقة والأعمال العجيبة . ويحل محل هذا أشخاص عاديون ، وأعمال تاريخية . ولغلبة الناحية التاريخية فى هذا العهد يلاحظ أن الأشعار من حيث مستواها الفنى ليست فى جمالها التى رأيناها عليه فى العهود الأسطورية السابقة . وهذا طبيعى حيث يتقيد الشاعر بحوادث

تاريخية لا يسهل عليه أن يحيد عنها أو يضفى عليها كثيرا من الخيال . وفى بعض الأحيان تكون الشاهنامة فى هذا القسم أشبه بكتاب التاريخ من حيث سردها للحقائق وحدها .

تقسيم ثالث للشاهنامة :

وهذا تقسيم آخر للشاهنامة من حيث مادتها وما يخالطها من حقائق أو أساطير . فهناك :-

١ - عهد اسطورى خالص وهو عهد البيشداديين

٢ - عهد اسطورى يمتزج بشىء من التاريخ وهو عهد الكيانيين .

٣ - عهد تاريخى يمتزج بشىء من الأساطير وهو العهد الساسانى .

تقسيم رابع للشاهنامة :

وهذا تقسيم آخر يقوم على التطور الطبيعى للحياة الانسانية ويصور مراحل المجتمع الانسانى . فهناك :-

١ - العهد الطبيعى أو البدائى : وفيه خلق الانسان الأول « گيومرث » . وفيه عاش الانسان عيشة بدائية أو طبيعية يحاول أن يستكشف البيئة الطبيعية التى حوله ويذللها لمصلحته. وفى هذا العهد توصل إلى النار كما فعل « هوشنگ » إذ رمى حية فى الجبل بحجر فأفلتت الحية واصطدم الحجر بالصخر فأخرج اصطدامهما نارا . وكان هذا كشفا عظيما . وفيه شق مجارى المياه واهتدى إلى الزراعة . واتخذ من جلود الثعالب وأصواف الحيوان غطاء له وكساء . وعلم الجوارح لتكون فى خدمته وأذل قوى الشر كالعفاريت ونحوها لتصفو له الحياة كما فعل طهمورث . واتخذ آلات الحرب المختلفة من دروع وسيوف

ورماح ، وتعلم الغزل والنسيج ، واستخرج المعادن وبنى البيوت، وعالج المرض بصنع الأدوية . وقد حدث كل هذا فى عهد جمشيد .

فهذا العهد اذن يمثل النشأة الطبيعية أو البـــدائية التى مر بها الانسان والمجتمع الانسانى .

٢ - عهد النزاع : وطبيعى بعدأن يسيطر الانسان على البيئة المحيطة به ويوفر لنفسه حاجاتها من غذاء وكساء ومسكن أن يسعى ليفرض سيطرته على من يحيط به من الناس ليهيء لنفسه حياة أفضل.ومن ثم ينشأ النزاع بينه وبين غيره من أفراد المجتمع . ويستمر هذا النزاع قائما إلى أن يستطيع فرد أن يتفوق على الباقين فيخضعهم لسلطانه ، ويصبـح هو رأس هذا المجتمع ويدين له أفراده بالطاعة والولاء. وفى مثل هذا الدور تظهر الغرائز الانسانية من حب للسيطرة، والتملك ، والمقاتلة ونحو ذلك . وهـذا الدور من أدوار المجتمع الانسانى تصوره لنا الشاهنامه خير تمثيل . ويمكن أن نعتبر بدايته النزاع الذى قام بين الاخوة ايرج وسلم وتور ابناء افريدون ، هذا النزاع الذى أدى إلى إشعال نيران الحروب التى استغرقت هذا الدور كله حتى قتل رستم وانتهى العهد الكيانى .

وكان افريدون قد قسم الملك بين أولاده الثلاثة وجعل لسلم وهو أكبر أبنائه أرض الروم وبلاد المغرب ، واعطى لتور بلاد الصين والترك ، ومنح ايرج وهو أصغر الأخوة العراق وبابل حتى الهند وجعله وليا لعهده . ونظر الإخوة فوجدوا أن أباهم قد خص ايرج بأهم أجزاء المملكة فضلا عن ولاية العهد مع أنه أصغرهم . وبدأت عوامل الغيرة والتنازع تظهر بينهم . ولما أحس ايرج ما يجول بخاطر أخويه - وكان عاقلا حكيما - عرض على أخويه أن

يتنازل لهما عن نصيبه الذى خصه به أبوهم لترتفع من بين الاخوة أسباب الشجار وتسود بينهم المحبة والوئام . ولكن السلام لم يدم بين الاخوة طويلا ودفعت الغيرة العمياء والرغبة فى السيطرة والاستعلاء « تور » إلى قتل أخيه ايرج . وكان لإيرج جارية قد حملت منه وولدت له بنتا رباها جدها افريدون حتى إذا كبرت زوجها ابن أخيه بشج . وكان ثمرة هذا الزواج منوچهر الذى استطاع فيما بعد أن ينتقم لايرج وأن يقتل تور . وبعد قتل تور صار سلم وحيدا فى الميدان، فلم يستطع أن يقاوم طويلا وانتهى أمره إلى القتل كذلك . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد إذ انتقل النزاع بعد ذلك من دائرته الفردية إلى دائرة شعبية قومية بين الشعب الايرانى وبين الشعب التورانى الذى ينتسب إلى تور . ولم ينته هذا النزاع القومى إلا بموت أبطاله افراسياب التورانى ورستم الايرانى . وبموت هذين البطلين ينتهى هذا النزاع وينتهى فى نفس الوقت عهد النزاع .

٣ ـ عهد الاستقرار والحضارة : والحضارة بطبعها ثمرة من ثمار الاستقرار وهذا الاستقرار لا يتحقق إلا بانتهاء النزاع بين المتنازعين وخضوعهما لسلطان قوى يقضى على عوامل الفوضى ويبذل جهده فى رفع مستوى الحياة الإنسانية .

وهذا الدور من أدوار المجتمع الإنسانى تصوره لنا الشاهنامة فى العهد الساسانى فهو عهد استقرار إلى حد كبير . وفيه قام مجتمع منظم له أصوله وطبقاته . وعرف الناس معنى الدولة ، وظهرت الهيئة الحاكمة بتقاليدها ، ووضعت القواعد والقوانين لتنظيم المعاملات، وأخذت الدولة بأسباب الحضارة فى كافة النواحى المختلفة .

هذا تعريف عام بالشاهنامة التى ألفها الفردوسى

عصر الفردوسى والشاهنامة :

لم تكن ايران على عهد الفردوسى هى ايران الموحدة القديمة التى عرفناها فى العهد الساسانى إذ كانت تلك الرقعة الواسعة قد تقسمت أقساما سيطر على كل قسم منها دولة من الدول. وبذلك ضاعت الوحدة السياسية القديمة لايران. ولم يعد ممكنا أن نطلق لفظ الدولة الايرانية على أى واحدة من هذه الدول لأنها فى الحقيقة لم تكن تسيطر إلا على جزء من ايران كما كان يشركها غيرها من الدول فى السيطرة على أجزاء أخرى . ولهذا السبب كان يطلق على كل دولة من هذه الدول اسما محليا حسب الإقليم الذى تسيطر عليه ؛ فسمى امراء السامانيين أمراء خراسان ، وأولاد بويه ملوك العراق والجبال ، وخلفاء البتكين الذين استقروا فى غزنة الغزنيين .. وهكذا :

وفى القرن الرابع الهجرى الذى ولد فيه الفردوسى وشرع ينظم شاهنامته كان قد ظهر فى كل ركن من أركان الدولة الساسانية القديمة دولة جديدة ، فكانت هناك دولة السامانيين فى خراسان وما وراء النهر ، والدولة الزيارية ، والدولة البويهية ، ودولة الغزنيين . وهذه الدولة الأخيرة هى التى تهمنا بصفة خاصة .

الدولة الغزنية :

ولا بأس أن نطيل الكلام بعض الإطالة عن هذه الدولة وعن السلطان محمود أهم ملوكها إذ كان هذا الكلام مما يتصل أشد الاتصال بشاعرنا الفردوسى ومنظومته الشاهنامة .

مؤسس الأسرة الغزنية البتكين أحد عبيد الاتراك الذين كان لهم شأن يذكر فى عهد الدولة السامانية . وقد خصه الأمير السامانى عبد الملك (٣٤٣ هـ/ ٩٥٤ م) بعطف كبير إذ اتخذه حاجباً له وولاه قيادة الجيوش فى خراسان . وبعد أن توفى عبد الملك انتقل البتكين ومن معه من الأتراك فى سنة ٣٥١ هـ/ ٩٦٢ م إلى مدينة غزنة التى كان يحكمها أبوه من قبل السامانيين وتولى هو من بعده حكمها . ولم يطل حكم البتكين إذ مات بعد سنة دون أن يستطيع أداء عمل ذى شأن سوى أن يضع النواة الأولى للدولة الناشئة .

وجاء من بعده ابنه أسحق (٣٥٢ هـ/ ٩٦٣ م) ثم « بلكاتكين » (٣٥٥ هـ/ ٩٦٦ م) الذى كان من مماليك البتكين .

ويعتبر سبكتكين المؤسس الفعلى لهذه الدولة وكان هو الآخر عبدا من عبيد « البتكين » وزوجا لابنته . وكان معروفا بالشجاعة والحزم فاستطاع أن يمد سلطان دولته وأن يمكن لها فى الأرض . وولى وجهه شطر المشرق فى الهند فهزم ملوكها وأنشأ حكومة فى پيشاور . وكذلك اتجه إلى الناحية الأخرى واستولى على خراسان فلم يجد الأمير السامانى بدا من تعيينه حاكما عليها . وقد رضى سبكتكين وهو صاحب القوة الفعلية أن يقدم خضوعه وولاءه إلى الدولة السامانية صاحبة الحكم الشرعى .

وقد جمع سبكتكين حوله طائفة من أهل العلم والأدب . ولما مات رثاه كثير من الشعراء من بينهم ابو الفتح البستى الذى يقول :ـ

قلت إذ مات ناصر الدين والدو

لة حياه ربه بالكرامة

وتداعت جموعـــه باقتراق

هكـذا هكـذا تكون القيامة

وكان ابو الفتح البستى الشاعر كاتبا للملك فى « بست » ووقع بين الأسرى الذين اسرهم سبكتكين حين فتحها .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الذى يعتبر أشهر ملوك هذه الدولة ومن أبرز أعلام التاريخ الاسلامى . وقد نال محمود هذه المكانة بما قام به من الغزوات الكثيرة التى رفعت لواء الاسلام . وتعتبر غزواته فى بلاد الهند من اعظم الغزوات التى قام بها المسلمون فى كفاحهم الطويل لنشر الدين .

وقبل أن يبدأ هذه الغزوات التاريخية رأى أن يأمن جانب جيرانه ليتفرغ لمحاربة الهنود وهو مطمئن . وكان جيرانه فى ذلك الوقت السامانيين، والاتراك الايلخانية .

أما السامانيون فقد ضعف أمرهم فى ذلك الوقت ضعفا شديدا ولم يعد بأيديهم سوى اقليم ما وراء النهر بعد أن انتزعت خراسان منهم . وحتى هذا الاقليم ، ما وراء النهر ،لم يدم لهم طويلا لأن ايلك خان استطاع بجيشه أن يزحف إلى بخارى فى سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م . وأن يأسر عبد الملك السامانى ويحبسه بافكند حتى مات . ومع أن الدولة السامانية لم يعد لها شأن أو كيان فقد حرص محمود على أن يفى الناحية الشكلية حقها وطلب موافقه الخليفة على ولايته فجاءته خلعة السلطنة من القادر بالله الخليفة العباسى . وكان محمود يحرص وهو صاحب القوة والغلبة على إظهار الخضوع الشكلى للخليفة العباسى حتى انه كان يلقب نفسه فى كتبه إلى الخليفة « عبد مولانا أمير المؤمنين وصنيعته محمود

ا. سبكتكين »(١). ومنحه الخليفة لقب يمين الدولة وأمين الملة.

أما ايلك خان التركى فقد رأى محمود أن مسالمته أحسن وسيلة لائتمان جانبه فأخذ فى توطيد أواصر الصداقة بينهما، ورأى أن يؤكد ما بينهما من ود وإخاء فأرسل اليه وفداً يرجو مصاهرته ويخطب كريمته. وقد كان لمحمود ماأراد وقبل أيلك خان أن يزوجه ابنته. وبهذا نجح محمود فيما أراده، وهيأ نفسه بعد ذلك لغزو الهند.

وقد بلغت غزوات محمود فى الهند اثنتى عشرة غزوة بين سنتى ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م، ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م. ولا شك أن تفصيل الكلام فى هذه الغزوات لا تدعو اليه ضرورة فى مثل هذا التأليف الأدبى.

والمتتبع لغزوات محمود فى بلاد الهند يرى أنه كان يتخذهاوسيلة إلى التقرب من الله بمجاهدة الكافرين ونشر الدين. ويحدثنا ابن الأثير أنه عندما قام بغزوته الأولى فى بلاد الهند كان يتخذ منها كفارة لما كان منه من قتال المسلمين.(٢) ولامراء فى أن الغنائم والأسلاب العظيمة كانت تغريه دائما بمتابعة الفتح والغزو. ويتهمه ابن الأثير بأنه كان محبا للمال فيقول عنه « ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق » وروى لذلك قصة رجل عرف عنه الغنى فاتهمه محمود بأنه قرمطى فلما افتدى الرجل نفسه بالمال برأه محمود من هذه التهمة (٣).

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٢٥٩ ج ٤ ط دار الكتب ١٩٣٣.
(٢) ابن الأثير : ص ٦٣ ج ٩ حوادث سنة ٣٩٢.
(٣) ابن الأثير : ص ١٥٠ ج ٩ حوادث سنة ٤٢١.

ويبدو أن ابن الأثير غالى فيما نسبه إلى محمود ودليلنا على هذا موقف محمود من الهنود حين همّ بتحطيم صنمهم الأكبر « سومنات » فأسرعوا اليه ضارعين ليدع لهم معبودهم على أن يقدموا اليه مالا يحصى من الأموال والنفائس . وقد أغرت كثرة الأموال التى عرضها الهنود رجال محمود فأشاروا عليه أن يقبل هذا العرض ويترك لهم صنمهم ولكنه رفض قائلا « إن محمودا محطم الأصنام وليس بائعها » .

وفى نهاية عهد محمود كانت دولته قد امتدت امتدادا عظيما وشملت خراسان وطبرستان فى الغرب ، والتركستان وما وراء النهر فى الشمال ، واقليم البنجاب فى الشرق ، والاقليم المعروف فى الوقت الحاضر ببلاد الأفغان فى الوسط .

وبعد أن رجع محمود من إحدى غزواته ضد البويهيين التى استولى فيها على أصفهان مات فى غزنة سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م بالغا من العمر احدى وستين سنة إذ كان قد ولد فى سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م .

ولم يجد الزمان على الدولة الغزنية بمثل محمود . ويذكر البيهقى ان محمودا كان يحس أنه لن يظهر فى أسرته بعد موته من يضارعه [١] . فكأنه كان يتنبأ بذلك :

ولم يفطن محمود فى حياته إلى الخطر الذى يهدد دولته من وجود الأتراك السلاجقة وازدياد نفوذ رؤسائهم أمثال طغرل بك . ومع أن مسعودا خليفة محمود كان من الملوك الأكفاء والمقاتلين الشجعان إلا أنه انهزم أمام طغرل فى

---

(١) تاريخ بيهقى : ص ١١٤ نشر غنى وفياض . طهران

الموقعة التى دارت بينهما فى داندانقان بين مرو وسرخس سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م. وكان من أثر هذه الهزيمة التى لحقت مسعودا أن انتزع منه السلاجقة خراسان وجميع الأقاليم الغربية التابعة للدولة الغزنية. وكانت هذه الهزيمة قاضية على جميع آمال مسعود بل وعليه نفسه إذ قتل بعد ذلك فى سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م.

ويتوالى الملوك من الأسرة الغزنية بعد ذلك وتزداد فى نفس الوقت قوة السلاجقة وقد لجأ بعضهم إلى مسالمة السلاجقة مثـــل ابراهيم الغزنى الذى تجاوزت مدة حكمه أربعين عاما امتازت بالسلم والرخاء. وكان سبب ذلك ما لجأ اليه من تزويج ابنه مسعود الثالث إلى ابنة ملكشاه السلجوقى. واستغل ابراهيم هذه الصلة بينه وبين السلاجقة وانصرف إلى الاصلاح الداخلى. وكذلك كانت الحال فى عهد مسعود الثالث، إلا أن العلاقات قد ساءت بعد ذلك بين الطارفين واستطاع السلاجقة ومن بعدهم الغوريون أن يستولوا على غزنة وأن يقضوا على ملك الغزنيين بها. وفى الحروب التى دارت بين السلطان علاء الدين حسين من ملوك الغوريين (١) وبين بهرام شاه الغزنى سقطت غزنة واشتعلت الحرائق فيها حتى صيرتها رمادا ولم يعد لها بعد ذلك مجدها القديم.

وبعد سقوط غزنة، وضياع الجزء الغربى من الدولة، اتجه الغزنيون إلى

---

(١) الغوريون أوآل شنسب هم طائفتان : ملوك الغور الذين حـــكموا فى غور نفسها وكانت عاصمتهم فيروزكوه، وملوك طخارستان وعاصمتهم باميـان. واشهر سلاطين الغوريين السلطان عـــلاء الدين حسين الذى هزم بهرام شاه الغزنى ودخل غزنة وأشعل النار فيها ونشر الخراب والدمار حتى لقب « جهانسوز » أى محرق الدنيا وقد حكم الغوريون مايقرب من سبع وستين سنة من ٥٤٣هـ/١١٤٨م-٦١٢هـ/١٢١٥م. راجع أيضا ما كتبه القزوينى فى حواشيه الملحقة بالترجمة العربية لـكتاب چهار مقاله.

مقاطعاتهم فى الشرق واتخذوا لاهور عاصمة لهم واستمروا يحكمون هناك إلى أن قضى الغوريون على الأسرة الغزنية نهائيا وكان ذلك فى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م .

نهضة الادب والحضارة فى العهد الغزنى :

كان العصر الغزنى عصر نهضة أدبية واسعة . وقد أجمع مؤرخو الأدب على أن هذه النهضة لم يكن لها فيما سبق مثيل . وتركزت هذه النهضة بصفة خاصة فى بلاط السلطان محمود الغزنى الذى اجتمع فيه من أهل الأدب زهاء أربعمائة. وظهر فى هذا العصر مجموعة من الشعراء الذين يعتز بهم الأدب الفارسى فى جميع عصوره . ويمكن أن نجمل فيما يأتى الأسباب التى أدت إلى هذه النهضة الأدبية .

إن انتصارات محمود الحربية وغزواته المختلفة التى قام بها لنشر الدين كانت من الأسباب القوية التى أطلقت لسان الشعراء بمدح محمود والثناء عليه . وقد جعلت الناحية الدينية فى فتوحات محمود منه بطلا شعبيا رويت حوله القصص ونظمت فيه الأشعار . وحسبك أن تقرأ مجموعة من الأشعار التى امتدح بها السلطان محمود لتلمس أثر الباعث الدينى فى نظم هذه الأشعار. ولم يكن موقف الشعراء من هذه الفتوح الدينية والحروب المختلفة قاصرا على مدح السلطان بل تجاوزه إلى غير هذا من الأغراض التى لم يسبق الشعراء الالتفات إليها فيما سبق كوصف الحروب وصف معاينة ومشاركة ، والحث على القتال ، وإثارة الحماسة فى نفوس الجند ونحو ذلك من الأغراض الحيوية فى دولة حربية فتية .

ولم يكن السلطان محمود وحده هو الذى حرك ألسنة الشعراء بانتصاراته

الحربية ، فأبوه من قبله ، وأخوه نالا من شعر الشعراء نصيبهما لنفس السبب .

وكان للانتصارات الحربية ثمرة أخرى ساعدت على رواج الأدب والفن هى وفرة الأموال والغنائم التى يعود بها الغزاة المنتصرون . وقد أدى تدفق الأموال وانتشار الثراء إلى شيوع الترف بحيث صار البلاط الغزنى قبلة أنظار عدد كبير من الشعراء والعلماء. وفيما بين أيدينا من المصادر أمثلة عديدة على هذا .

ومع أن محمودا كان متدينا إلا أن جو الترف الذى ساد بلاطه أدى به إلى عشق أحد غلمانه الأتراك عشقا عظيما ولكن دينه وخلقه نهاه عن أن يمزج العشق بالفسق .

ومما يصور الترف الشديد الذى انغمس فيه السلطان وأفاءه على من حوله أن الفرخى الشاعر كان إذا ركب تبعه من الغلمان عشرون قد عقدوا على خصورهم مناطق الفضة (١) .

ونال فن العمارة نصيبه من عناية محمود نتيجة لهذا الثراء والترف . ويحدثنا العتبى حديثا طويلا عن مسجد غزنة الجديد الذى بناه محمود وكيف كان يغرى العمال الذين اشتركوا فى بنائه بالأجور والأموال طلبا للإجادة والاتقان ، وكيف نقل ما احتاجه البناء من الأخشاب من الهند والسند ، وكيف بالغ فى تجميل المسجد وتزيينه حتى استخدم الأصباغ والألوان والتذهيب ، وفرش ساحته بالمرمر الصقيل اللامع ، وألحق به مدرسة ملئت قاعاتها بالمؤلفات فى جميع العلوم . ووكل التدريس فيها إلى فريق من الفقهاء والعلماء كان يغدق عليهم

---

(١) چهار مقاله : ص ٣٥

ويغمرهم بالنعمة (١) .

وظلت غزنين أو غزنة زينة المدائن حتى قامت الحروب التى وقعت بين علاء الدين حسين من ملوك الغور وبين بهرام شاه الغزنى . واستطاع الملك الغورى أن يهزم الغزنى وأن يستولى على عاصمته ، وينتقم لأخيه الذى كان قد قتله بهرام شاه شر انتقام لدرجة أنه أباح المدينة ، وأشعل فيها الحرائق التى صيرتها رمادا . ولم تستعد غزنة بعد هذه الحروب ما كان لها من مجد وشأن .

وكان محمود نفسه محبا للعلم والعلماء ، والأدب والأدباء . وكان لحبه إياهم يقرب مجلسهم منه ويدنيهم اليه . ومع أن محمودا كان من رجال السيف والحرب ، وقد قام بعدد كبير من الفتوحات ، وحقق لجيوشه كثيرا من الانتصارات الرائعة ، وضم لدولته عن طريق الحرب والسيف ملكا واسعا إلا أنه كان بعد هذا كله يرى أن أفضل ما يخلد ذكر المرء أن يكون ممدحا من الشعراء ، محببا إلى العلماء .

وكان محمود نفسه شاعراً وقد نسبت اليه أشعار مختلفة فى الغزل والرثاء والبطولة وتورد كتب التذاكر ما بقى له من هذه الأشعار . وحين أنس رجال الأدب فيه هذا الميل التفوا حوله حتى اجتمع ببلاطه منهم عدد كبير . وكان العنصرى كبير الشعراء فى بلاطه وقد جرى العرف بين الشعراء أن يعرضوا عليه أولا ما يريدون إنشاده فى حضرة السلطان .

ولم يكن الشعر عند السلطان محمود وسيلة من وسائل المتعة الفنية بالبلاط

---

(١) العتبي : ص ٢٩١ ج ٢

فى أوقات الفراغ واللهو فحسب فكثيرا ما كان يصحب فى حروبه عددا من شعرائه أمثال عنصرى وفرخى ليستعين بهم فى إشعال نار الحماسة وتقوية عزائم الجند فى الحروب . وكان هؤلاء الشعراء يصفون فى أشعارهم المعارك والوقائع ، ويتحدثون عما يصيبه السلطان من الغنائم أو يفتحه جنده من البلاد . ويتخلل هذه الأشعار بطبيعة الحال الثناء والمديح لما يبديه السلطان من ضروب البسالة فى قتال الأعداء ونشر الدين .

وكان للعلم نصيب عظيم من عناية محمود ، ولم يكن يدخر وسعا فى استقدام العلماء اليه . ويذكر صاحب چهار مقاله أن أبا العباس مأمون ملك خوارزم ووزيره أبا الحسين أحمد بن محمد السهلى كانا من أهل الفضل والعلم فاجتمع حولهما كثير من العلماء والفضلاء أمثال أبى على بن سينا ، وابى سهل المسيحى ، وأبى الخير الخمار ، وأبى ريحان البيرونى ، وابى نصر العراق . وكان كل واحد من هؤلاء من نوابغ فنه ، فابن سينا وابو سهل من نوابغ أهل الحكمة ، والخمار ممن برعوا فى الطب ، والبيرونى برع فى علم النجوم ، والعراق فى الرياضيات . وكان أبو العباس المأمون يتولاهم بالرعاية والعناية . فلما سمع السلطان محمود بما كان من اجتماع هؤلاء العلماء وأمثالهم فى بلاط ملك خوارزم كتب يطلب ايفادهم اليه ليزدان بلاطه بهم ويفيد من علمهم . وقد وفد منهم بالفعل إلى بلاط السلطان العراق والخمار والبيرونى . أما ابن سينا وأبو سهل المسيحى فقد رفضا القدوم . وكان رفض ابن سينا خسارة كبيرة لبلاط محمود(١) .

وكان لمحمود مشاركة فى الفقه . وتذكر بعض المصادر اسمه بين أسماء الفقهاء .

---

(١) چهار مقاله : ص ٦٢ الحكاية الخامسة من المقالة الرابعة .

ويروى أنه ألف فى الفقه كتابا [١]، كما كان مولعا بعلم الحديث يجمع الناس لسماع الأحاديث من الشيوخ بين يديه، ويقارن بين المذاهب المختلفة ويدعو العلماء إلى التناظر فيها وترجيح بعضها على بعض [٢].

ومما ساعد على نهضة الأدب والعلم فى العصر الغزنى — وخاصة الأول — وجود مراكز أخرى للحضارة إلى جانب بلاط غزنة. وكانت هذه المراكز تجتذب اليها العلماء والأدباء. وأهمها البلاط البويهى حيث كان الصاحب ابن عباد الذى كان يقيم غالبا فى اصفهان أو الرى، والبلاط السامانى فى بخارى، وبلاط قابوس بن وشمگير فى طبرستان، وبلاط ملوك خوارزم فى خيوه الذين يعرفون بالمأمونيين. ويلاحظ أن هذه المراكز لم تحتفظ جميعها بطابعها أو حيويتها زمناً طويلا. ففى العشرين سنة التى انقضت بين ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م، ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م مات الصاحب ابن عباد فى ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م وسقطت الدولة السامانية فى ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م، وقتل شمس المعالى قابوس بن وشمگير فى ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م، وقتل مأمون الثانى ملك خوارزم وضمت مملكته إلى أملاك السلطان محمود فى ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م.

ولا جدال فى أن هذه المراكز ساعدت على نهضة الأدب ونشر الحضارة فترة من الزمان. وكان العلماء والأدباء يجدون من العناية والتشجيع مايجذبهم اليها. وقد ذكرنا فيما سبق كيف اجتمع العلماء فى بلاط المأمون أمير خوارزم أمثال ابن سينا، البيرونى. وكان محمود الغزنى حريصا على ضم ابن سينا إلى

---

(١) شعر العجم : ص ٣٥ ج ١ لشبلى النعمانى ترجمة فخر گيلانى

(٢) ابن خلكان : ص ١١٠ ج ٢

بلاطه ولكنه آثر منذ أن ترك بلاط أمير خوارزم أن يتصل أولا بشمس المعالى قابوس بن وشمكير الذى اعتز به ولم يسلمه إلى محمود ثم رحل بعد ذلك إلى الرى ودخل فى خدمة علاء الدولة محمد وصار وزيره . وفى خلال هذه الفتره كان يكتب فى الصباح الباكر من كل يوم - إلى جانب عمله الرسمى - بعضا من صفحات كتابه الشفاء .

وكما فعل السلطان محمود فى بلاطه بغزنة من رعاية العلماء والأدباء كان الأمراء المحليون يتنافسون فى استقدام العلماء ورعاية الأدباء ، ومنهم فى نيشابور أبو المظفر نصر — أخو السلطان محمود — . وكان ابو المظفر هذا يرعى الأدباء والعلماء . وقد جمع حوله عددا كبيرا من الشعراء مدحوه فى حياته ، ورثوه فى مماته بالكثير من الأشعار [1] .

وكانت هناك طائفة من الأدباء تنتقل من بلاط إلى بلاط كما فعل أبو منصور الثعالبي النيسابورى فإنه قدم لطائف المعارف إلى الصاحب اسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة البويهى ، وقدم المبهج والتمثل والمحاضرة لشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، وقدم سحر البلاغة وفقه اللغة للأمير أبى الفضل الميكالى ، والنهاية فى الكناية ونثر النظم واللطائف والطرائف للمأمون بن مأمون خوارزمشاه .

وكذلك كان أبو ريحان البيرونى فإنه قضى الجزء الأول من حياته فى رعاية المأمونيين أمراء خوارزم أو خيوه ، ثم اتصل بعد ذلك ببلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان حيث أهداه مؤلفه عن الأمم القديمة ، ثم عاد

---

(١) العتبى : ص ٣٣٠ ج ١

بعد ذلك إلى خوارزم إلى أن جاء كتاب السلطان محمود الغزنى يستقدم من كانوا فى بلاط خوارزمشاه من العلماء. وبقى فى البلاط إلى أن توفى محمود. وبعد ذلك بسنين ألف كتابه « التفهيم فى صناعة التنجيم » ثم القانون المسعودى الذى وجهه إلى السلطان مسعود بن محمود ثم كتابه عن الأحجار الكريمة الذى أهداه إلى ابن مسعود وخليفته مودود (١).

متى نظمت الشاهنامة :

يذكر الفردوسى أنه سأل كثيرين لعل أحدا يهديه إلى الكتاب الفهلوى الذى جمع قصص الماضين. ويذكر أن ماله لم يكن يكفيه للقيام بعبء هذا العمل فضلا عن أنه لن يجد من يشترى منه هذا الجهد وأخيرا أحضر له الكتاب أحد أصدقائه وطلب إليه أن يبغى بعمله المكانة عند العظماء (٢). وكان الشاعر إذ ذاك شابا (٣).

ولكن متى بدأ الشاعر فى نظم هذه القصة ؟ فى بعض نسخ الشاهنامة أنه نظمها فى ثلاثين سنة آخرها ٣٨٤ ﻫ (٤). فيكون قد بدأ نظم الشاهنامة على هذا الأساس سنة ٣٥٤ ﻫ. وفى بعض الروايات الأخرى وهى الأشهر أنه أتمها سنة ٤٠٠ ﻫ وعلى هذا الأساس يكون قد بدأ نظمها حوالى ٣٧٠ ﻫ وهذا أقرب إلى الصواب لأن المعروف أن الفردوسى بدأ عمله بعد موت الدقيقى سنة ٣٦٧ ﻫ.

---

(١) Browne : Lit. His. of Persia. Vol 2. p. 101. Cambridge 1951.

(٢) الشاهنامه : ص ١٠ ج ١

(٣) الشاهنامه : ص ١٠ ج ١

(٤) الترجمة العربية للشاهنامه : ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ج ٢

وقد اختلفت المصادر فى عدد السنوات التى قضاها الشاعر فى نظم الشاهنامة بين خمس وعشرين سنة ، و ثلاثين سنة ، وخمس وثلاثين سنة . كما اختلفت فى تحديد تاريخ انتهاء الشاعر من النظم بين سنتى ٣٨٤ هـ ، سنة ٤٠٠ هـ . ويتعذر مادام الأمر كذلك أن نقطع بالسنة التى بدأ ينظم فيها الشاهنامة ولكن هذا لا يمنعنا من أن نحاول معرفة السن التى بدأ الشاعر فيها ينظم قصته . وقد ذكرنا فيما قبل أن ولادة الفردوسى كانت فى إحدى السنوات الواقعة بين ٣١٩ ، ٣٢٩ هـ . فاذا أخذنا تاريخا متوسطا بين هاتين النهايتين وليكن سنة ٣٢٤ هـ وتاريخا متوسطا بين سنتى ٣٥٤ هـ ، ٣٧٠ هـ وهما السنتان اللتان يحتمل أن يكون قد بدأ فى إحداهما نظم الشاهنامة ولتكن سنة ٣٦٢ هـ وجدنا أن سن الشاعر حين بدأ هذا العمل الأدبى العظيم تقارب الثامنة والثلاثين . وهذه السن تناسب الشباب الذى يصفه به صاحبه الذى أهداه الكتاب الفهلوى لينظمه (١) .

وعلى أى حال كان شروع الفردوسى فى نظم الشاهنامة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ولا شك أن الجزء الذى نظمه الدقيقى « گشتاسپ نامهٔ دقيق » كان قد شاع أمره وعرف الفردوسى ما يلاقيه مثل هذا العمل من اهتمام النـــاس واقبالهم فشرع ينظم الشاهنامة ولم يكن فى يده نسخة منها حتى أهداها إليه إحد أصدقائه . والغالب على الظن أن تكون تلك الشاهنامة التى أهداها اليه صديقه هى شاهنامة المنصورى المنثورة التى تحدثنا عنهـــا فيما سبق . وسنعود اليها مرة أخرى عند الكلام على مصادر الفردوسى .

---

(١) الشاهنامه : ص ١٠ ج ١

سبب تأليف الشاهنامة :

لاحظنا فيما سبق أن الشاعر بدأ فى نظم شاهنامته فى سنة ٣٥٤ هـ فى رأى، سنة ٣٧٠ هـ فى رأى آخر . وقد اخترنا تاريخاً ترجيحياً وسطا بين هذين التاريخين هو سنة ٣٦٢ هـ . ومهما يكن أمر الأختلاف فى التـــاريخ الصحيح فالمؤكدمن مراجعة هذه التواريخ أن الشاعر قد بدأ ينظم قصته قبل أن يرتقى السلطـان محمود العرش (٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) بزمن طويل . وفى هذا ما ينفى صحة الرواية الذائعة التى تزعم أن الشاعر نظم قصته بتكليف من السلطان محمود ويثبت أن الشاعر كان مدفوعا إلى نظم قصـته بدافع شخصى آخر لم يفرضه عليه أحد .

لقد رأى الفردوسى الذيوع والشهرة التى نالتها أبيات الدقيقى فرأى أن يسير هو أيضا فى الطريق المؤدية إلى المجد والشهرة . وقد تحقق له ما أراد .

يضاف إلى هذا أن الفردوسى كان فارسياً متعصباً ، وقد رأى ماحل ببلاد ايران القديمة من تفـكك وانقسام ، وكيف ضاعت وحدتها ، وأخذت الدول المختلفة التى قامت فى تلك الرقعة الواسعة تتطاحن وتتنازع . وكان طبيعياً فى هذه الرقعه التى تتنازعها دول من أصول مختلفة كالفرس والترك والديلم أن تعم الحروب جميع البلاد وأن ينصرف الناس ومن بينهم الفرس عن التغنى بأمجاد أجدادهم وأن تضعف فيهم العناية بالنواحى القومية والوطنية خصوصاً بعد أن أصبحت الـكلمة العليا للاتراك منذ أسس الغزنيون ملـكهم . فأراد الفردوسى أن ينبه الفرس إلى ما غفـلوا عنه ، وأن يؤجج فى قلوبهم نيران العصبية التى خمدت بفعل العوامل الـكثيرة المختلفة كالدين الاسلامى ، واللغة

العربية ، وانتشار الحروب ،وكثرة المنازعات ، وأخيراً غلبة الأتراك على البلاد وكانت وسيلته إلى ذلك أن ينظم لهم تاريخهم الحافل فيردهم بذلك إلى ماضيهم الذى نسوه وتخلوا عنه .

وكان الفردوسى يتوقع لنفسه ما ينتظره من مجد فهو يصرح أن كتابه إذا تم سيكون حديث الناس فى كل مكان وأن أصحاب العقل والفضل والرأى والدين سيقدرون له هذا الجهد فيترحمون عليه بعد موته ويحيون اسمه على ألسنتهم فيخلد بذلك ذكره [١] .

أما عطاء السلطان ، وتحصيل المال فلم يكن للشاعر إليهما حاجة وقت أن شرع فى النظم لأنه كان مستغنياً فى ذلك الوقت بما لديه من دخل خاص . ويظهر أن هذا الدخل كان متواضعاً إلى حد كبير كما رأينا فى الباب الأول من هذا البحث ولكنه على أى حال كان يكفيه ويغنيه ، وهو الفنان الأبى ، عن طلب المعونة من الناس . وهذا ما تفيده نصوص العروضى فى حديثه عن الفردوسى . وقد شجعه ما لقيه أول الأمر من عطف بعض الفضلاء أمثال أبى منصور بن محمد على التفرغ للنظم والانصراف عن الاهتمام بشئونه الخاصة مما بدد ذلك الدخل الذى كان يغنيه عن الناس . فلما توفى أبو منصور وانقطع عن الشاعر عونه لم يجد بدأً من أن يسعى إلى السلطان لينال من عطائه مايعينه على مواجهة أعباء الحياة .

صلة الشاعر بالسلطان :

سعى الشاعر إلى السلطان محمود بعد أن فقد أبا منصور لأنه كان فى حاجة

---

(١) الشاهنامه : ص ٣٠١٨ ج ٩

إلى معين . ومثل هذا العمل الأدبى الضخم الذى يقوم به الشاعر يتطلب مالا كثيرا وقد نصحه أبو منصور قبل موته أن يهدى كتابه إلى الملوك فهم أقدر على تقويمه ، وأسخى فى المكافأة .

رحل الشاعر إذن إلى السلطان محمود بعد أن كان قد نظم من شاهنامته قدرا . ورحلة الشاعر إلى السلطان ومعه هذا القدر المنظوم من الشاهنامة دليل آخر على بطلان ما زعمه الزاعمون من أن السلطان محمود هو الذى كلفه القيام بهذا العمل . ومن المستبعد بطبيعة الحال أن يهتم السلطان محمود ، وهو التركى ، بإحياء مجد الإيرانيين فضلا عما قد يتطلبه نشر تاريخ الإيرانيين من التعرض لدياناتهم القديمة وإذاعتها بين الناس الأمر الذى لا يمكن أن يقره محمود وهو المعروف بتعصبه للدين الإسلامى . زد على هذا أن الشاهنامه تمجد الإيرانيين وتحقر التورانيين أجداد محمود وأن نشرها قد يثير نوازع الشر الكامنة بين العنصرين الإيرانى والتورانى . فليس من مصلحة محمود إذن،بعد كل ما قدمناه، أن يدعو شاعرنا لينظم الشاهنامه .

ومما يؤيدنا أيضاً فى رأينا أن الشاهنامه ، فيما عدا المقدمة، لاتمدح السلطان محمودا للمرة الأولى إلا بعد فترة طويلة فى أواخر قصة كيخسرو مما يحمل على الاعتقاد بأن هذا الموضع هو بداية ما نظمه الشاعر عند محمود . وقد وجد من واجبه أن يبدأ عمله معه بمدحه ، فمدحه بهذه الأبيات . ولكن ما بالنا نرى الشاعر يمدح السلطان فى نهاية مقدمته ؟ أغلب الظن أن هذه المقدمة قد كتبت بعد أن انتهى الشاعر من نظم الشاهنامه . ولذلك نراه يمدح السلطان محمودا بعد أن مدح أبا منصور محمد . وإلا لو كان كتبها قبل أن يشرع فى النظم لخص أبا منصور وحده بالمدح .

وفى أول مديح مدح الشاعر به السلطان نراه يصفه بشدة الكرم حتى لتشكو كنوزه من فرط ما يهب منها للناس ، ويصفه بالشجاعة والقوة إذ ينتزع الممالك من الملوك إذا تأخروا فى دفع الخراج . ويمدح فى نفس هذا النص وزيره الفضل بن أحمد ويصفه بالحزم والجود والفصاحة . ويذكر أنه بدأ صلته بالسلطان محمود وله من العمر ثمان وخمسون سنة . وجعل الكتاب باسمه ليحقق له الآمال ويقضى الحاجات (١) .

ويعود مرة ثانية إلى مدح السلطان فيصفه بأنه جنة فيحاء اهتدى إليها بعد عشرين عاما ، وأنه فى عظمته وعليائه تسجد له النجوم والأقمار ، وأنه فرد بين الملوك ليس له بينهم نظير ، وأنه فى الحروب سيف باتر ، وفى الولائم ذهب غامر (٢) . وفى هذين النصين ما يفيد أن الشاعر كان قد شرع فى نظم الشاهنامه قبل أن يتصل بالسلطان محمود بعشرين عاما . وفيهما أيضا ما يؤيد رأينا الذى رجحناه من أن الشاعر بدأ ينظم الشاهنامه وله من العمر ثمان وثلاثون سنة . وقد سبق (٣) .

ويمدح الشاعر السلطان مرة أخرى فى الفصل الخاص بمقتل رستم ، ويستدر عطفه عليه بما يذكره من ضعفه ، وحلول الشيخوخة به . ويذكر فى صراحة أنه يقدم كتابه باسم محمود ويقضى الليل والنهار فى التسبيح بحمده حتى ينال من عطائه وتقديره ما يجعل له ذكرا باقيا بعد موته (٤) .

---

(١) الشاهنامه : ص ١٢٧٤ ج ٥
(٢) الشاهنامه : ص ١٥٥٥ ج ٦
(٣) راجع : ص ١٠١
(٤) الشاهنامه : ص ١٧٣٠ ج ٦

ويتكرر مدح الشاعر للسلطان بعد ذلك فنراه يمدحه فى مقدمة الفصل الخاص بالاسكندر (١) ، وفى مقدمة حديثه عن ملوك الطوائف (٢) ، وفى مواضع أخرى بعد هذه .

ولكن هذا المدح الذى صاغه الشاعر فى السلطان ، وهذا العمل الأدبى الخالد الذى أفنى فيه عمره لم يلق من السلطان ما هو جدير به من المكافأة والاحسان نتيجة الوشاية كما يذكر فى بداية قصة خسرو وشيرين (٣) .

أما لماذا لم يحقق الشاعر آماله فى السلطان محمود ورجع من عنده يائساً خائباً فهذا ما ذكرناه فى الباب الأول من هذا البحث .

والطريف أن خيبة الشاعر لم تقتصر على آماله فى السلطان وحده إذ خابت آماله عند الجميع فقد نسخ أغلب الكبراء وأهل الفضل والعلم كتابه مجاناً دون أن يدفعوا له شيئا ينتفع به . وكانت كل مكافأته عندهم أن قالوا له « أحسنت » وقد غاظ الشاعر منهم هذا الاستحسان الذى لا يغنى وأثر فيه أسوأ التأثير . ولكن هناك نفراً قليلا أشفق على الشاعر فلم يضيع جهده سدى كما فعل الآخرون . ومن هذا النفر على الديلمى ، أبو نصر الوراق ، وحسين بن قتيب . وقد خصهم الفردوسى بشكره (٤) .

---

(١) الشاهنامه : ص ١٨٠٨ ج ٧

(٢) الشاهنامه : ص ١٩٢٠ ج ٧

(٣) الشاهنامه : ص ٢٨٦٩ ج ٩

(٤) الشاهنامه : ص ٣٠١٧ ج ٩

مصادر الفردوسى :

ونقصد بمصادر الفردوسى المصادر المباشرة التى لجأ إليها فى نظم الشاهنامه ولا شك أن الفردوسى كان ينظم شاهنامته من مصادر مكتوبة لديه فهو يذكر مثلا أنه أرق ذات ليلة وعز عليه النوم فأيقظ غلامه وأمره أن يهيء المجلس والشراب . وقد صدع الغلام بأمر سيده وأخذ يغنيه ويسقيه ويقرأ عليه من الكتاب الفهلوى ، والفردوسى يشرب ويطرب وينظم ما يسمع [١] . وإذا كان الشاعر قد وصف الكتاب بأنه فهلوى فلا ينبغى أن ينصرف الذهن إلى أنه كان مكتوبا بالفهلوية ساعة كان ينظمه الفردوسى ولعل الشاعر يقصد أصل الكتاب حين ألف بالپهلوية . فالكتاب مؤلف فى الاصل بالفهلوية فهو إذن فهلوى الاصل أو فهلوى كما يصفه الشاعر . ولاشك أيضا أن هذا الكتاب الذى كان ينظم عنه الفردوسى هو الشاهنامة المنثورة التى ألفت بأمر أبى منصور محمد بن عبد الرزاق الطوسى والتى تحدثنا عنها فيما سبق. وقد ذكرنا أن الذين تولوا كتابة هذه الشاهنامه هم تاج بن خراسانى من هراة، يزدان داذ بن شابور من سيستان ، وماهوى خورشيد بن بهرام من نيشابور ، شادان بن برزين من طوس . وهؤلاء الاربعة مجوس ولم يكن يجيد قراءة الپهلوية غير المجوس [٢] . وهؤلاء المجوس هم الذين تولوا جمع المادة ونقلها من المصادر الفهلوية وترجمتها على الصورة التى وردت فى شاهنامة أبى منصور النثرية التى نظمها الفردوسى فيما بعد . والفردوسى يذكر أسماء هؤلاء العلماء المجوس فى

---

(١) الشاهنامه : ص ١٠٦٦ ج ٤

(٢) نولدكه : ص ٢٧

مواضع متفرقه من شاهنامته . فهو يذكر « ماخ » فى بداية عهد هرمزد بن كسرى انو شروان ، ويصفه بالعلم بأخبار الملوك المتقدمين ويدعى أنه اتصل به وسأله عما يعرف من أحوال هرمزد حين ارتقى العرش فأجابه ماخ إلى ما طلب [١] . وفى مفتتح قصة احضار كليلة ودمنه من بلاد الهند يصرح باسم « شادان برزين » [٢] . وفى بداية قصة گو وطلحند واختراع الشطرنج يشير إلى مصدر الرواية فى هذه القصة وهو « شاهوى پير » [٣] . ويرجح نولدكه أن شاهوى پير الذى أخذ عنه الفردوسى رواية احضار الشطرنج هو « ماهوى ». ومن السهل التصحيف بين شاهوى وماهوى. وهذه الشاهنامه المنثورة التى ينقل عنها الفردوسى اعتمدت هى الأخرى فى مادتها على خداينامه .

ومن الرواة الذين يرد ذكرهم فى شاهنامة الفردوسى « آزاد سرو » . [٤] وكان من ملازمى احمد بن سهل أحد عظماء العهد السامانى الذى اشتهر أمره فى عهد نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ - ٣٣١ هـ) إذ عينه واليا على نيسابور لكنه عصى وانتهى أمره إلى الأسر ومات فى بخارى سنة ٣٠٧ هـ . ويذكر الفردوسى عن سرو أنه كان متقدما فى السن ينتهى نسبه إلى سام بن نيرم ولذا كان يحفظ أخبار آبائه واسلافه من الايرانيين .

ويتوهم القارىء لكلام الفردوسى أنه استمع رأسا لهؤلاء الرواة وأخذ

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٥٦٧ ج ٨

(٢) الشاهنامه : ص ٢٤٩٩ ج ٨

(٣) الشاهنامه : ص ٢٤٧١ ج ٨

(٤) الشاهنامه : ص ١٧٢٩ ج ٦

عنهم مادته مباشرة . ولكن الواضح أنه لم ينقل عنهم بطريق مباشر ، انما كان ينقل من مصادر مكتوبة لا سماعية .

ويشير الفردوسى إلى الشاهنامه المنصورية بأسماء مختلفة فى مواضع كثيرة فيسميها نامهٔ خسروى ، نامهٔ خسروان ، نامهٔ پهلوى ، نامهٔ شهريار ، نامهٔ باستان وأحيانا يكتفى بكلمة نامه .

ومن المصادر التى يبدو أثرها واضحا فى الشاهنامه « كارنامك أردشير » . وقد استفاد الفردوسى من هذه القصة التى امتزج فيها التاريخ بالأسطورة . ويرى نولدكه أن الفردوسى قد رفع من هذه القصة أجزاء وأسقط ما تحدثت به عن الديانة الفارسية القديمه لعدم ملاءمته للمسلمين كما اختصر فى بعض الحوادث وأضاف إلى بعضها (١). ومن أمثلة التشابه القوى التى يوردها نولدكه دليلا على استفادة الفردوسى من هذا الكتاب قصة الملك فيروز الذى قتل بالقرب من دهستان فى احدى وقائعه ضد هياطلة الشمال دون أن يعثر له على أثر فتعرضت مملكته بذلك لإغارة العدو المتوحش ، ولكن بطلا من سلالة أسرة قارن فى ذلك الوقت رد لايران شرفها وأجلى العدو عن البلاد وارغمه على طلب الصلح . ونفس هذا الدور مثله بطل آخر فى الأزمنة القديمة حين أسر الملك نوذر فى حربه مع أعدائه الشماليين بالقرب من دهستان حيث قتل ما مكن الأعداء من السيطرة على ايران . وهذه المشابهة القوية بين القصتين لا يحتمل أن ترجع إلى المصادفة وحدها (٢) .

---

(١) نولدكه : ص ١١

(٢) نولدكه : ص ١٦

دراسات الشاهنامه وترجماتها :

من أحسن الاحصائيات التي وضعت عن الدراسات والترجمات الخاصة بالشاهنامه ما ورد فى كتاب نولدكه « الحماسة الإيرانية » وقد استفاد منها كثير ممن وضعوا احصائيات عن هذا الموضوع أمثال نفيسى وخانم سياح فى مجلة مهر وذبيح الله صفا فى كتابه حماسه سرائى در إيران . ومن مجموع ما كتبه هؤلاء نستفيد فى هذا الجزء من البحث .

ونولدكه يذكر أن الشاهنامه قد نسخت نسخاً كثيرة ولكن ليس من بين هذه النسخ الكثيرة التى بأيدينا ما هو قديم يرجع إلى عهد المؤلف أو يقرب منه مما يشكك فى أصالة النسخ الموجودة ومطابقتها للأصل الذى كتبه الشاعر . ويبدو أن النساخ قد أباحوا لأنفسهم حرية واسعة فى النسخ مست النص الأصلى مما أدى إلى هـذا التفاوت بين النسخ الموجودة . ومع أن الفردوسى يذكر أن عدد أبيات قصته ستون ألف بيت إلا أننا نجد مخطوطة واحدة أوفت على هذا القدر إذ بلغ عـــدد أبياتها ٦١٢٦٦ وهذه المخطوطة هى الموجودة بالمتحف البريطانى Brit. Mus. Add. 27, 258 . كما أن هناك مخطوطتين أخريين بلغ عـدد أبيات كل منهما حوالى ٦٠٠٠٠ . أما معظم المخطوطات الأخرى فينقص عدد أبياتها عن هذا القدر ويتراوح عدد الأبيات فيها بين ٤٨٠٠٠ ، ٥٢٠٠٠ . ويرتفع بعضها إلى ٥٥٠٠٠ وهناك مخطوطة ينخفض فيها عدد الأبيات إلى ٣٩٨٥١ (١) . ويلاحظ نولدكه أن النسخة التى بلغ عدد أبياتها ٦١٢٦٦ فيها ٣٧٠٠ بيت من « برزو نمه » الحقت بالشاهنامه وليست من عمل

---

(١) نولدكه : ص ١١٠

الفردوسى . وكذلك الحال فى النسخ الأخرى كنسخة ستراسبورج التى يرتفع عدد الأبيات فيها ارتفاعا كبيرا . ومثل هذه الزيادة فى عدد الأبيات ترجح أن الشاهنامه قد أضيفت إليها اضافات أخرى فى عصور متأخرة مثل نسخة Vullers - Landauer, Macan, Lumsden وإذا كانت هناك زيادات قد زيدت على النص الأصلى فهناك أيضاً بعض القطع أو المقالات قد حذفها النساخ . ويذهب نولدكه إلى أبعد من هذا فيختار قصصا بعينها ويقارن بينها فى النسخ المختلفة ليظهر مدى الاختلاف بين النسخ فى القصة الواحدة . فهناك قصه بيژن ومنيژة بلغ عدد أبياتها فى طبعة Vullers ١٣٣٥ ، وفى Mohl ١٣٨٧ ، وفى Macan ١٣٩٢ ، وفى مخطوطة ليدن ١٥٠٣ ، وفى مخطوطة استراسبورج ١٥٦١ . وقصة رستم والعفريت الأبيض بلغ عدد أبياتها فى مول وڤولرز ٩٦ ، وفى ماكان ١١٨ ، وفى سان بترسبورج ٧٥ ، وفى ليدن وستراسبورج ٧٩ .(١)

وفى رأى نولدكه أن النساخ قد حرفوا النسخ عن طريق تبديل بعض الألفاظ والتعبيرات القديمة واحلال غيرها من المفردات والتعبيرات المألوفة كما أنهم كانوا يبدلون مالا يفهمونه أو ماكان غامضا عليهم.(٢) هذا كله بالاضافة إلى الحذف أو الزيادة . وينقل نولدكه عن Lumsden أنه من بين الأسباب التى أدت إلى هذه الاختلافات فى النسخ أن كثيرا منها كان ينقل أجزاء من النص قبل أن يتم النص كله أو من نص قد كمل ولكن لم يفرغ الشاعر من مراجعته . والفردوسى نفسه فى الجزء الختامى من أشعاره يصرح بأن عمله

---

(١) نولدكه : ص ١١١
(٢) نفس المصدر : ص ١٢٢

قد نسخ قبل أن يتم . ومن كثير من اشاراته يستدل على أن الشاعر كان يراجع أشعاره لمدة طويلة .[١]

وفيما يتصل بالترجمات والدراسات تعتبر ترجمة البندارى العربية أول الترجمات للشاهنامه . وهى ترجمة ملخصة نثرية كتبها البندارى الأصفهانى بين سنتى ٦١٥ ، ٦٢٣ ﻫ (١٢١٨ - ١٢٢٧ م) .

وقد ترجمت إلى التركية على يد على افندى سنة ٩١٦ ﻫ . وهذه الترجمة شعرية كاملة . وهناك ترجمة تركية أخرى ولكنها نثرية قام بها مهدى أحد رجال البلاط فى عهد السلطان عثمان ثانى سلاطين العثمانيين فى سنة ١٠٣٠ ﻫ . وفى سنة ١٠٦٢ ﻫ قام توكل بك بتلخيص الشاهنامه وترجمها إلى النثر الفارسى باسم « منتخب التواريخ » وهو أوجز بكثير من ترجمة البندارى[٢] .

ولم يظهر فى الشرق دراسات وتعليقات كثيرة على الشاهامنه . وهناك « لغت شاهنامه » كتبه عبد القادر البغدادى بالتركية فى القرن السابع عشر الميلادى ونشره Salemano فى بترسبورج سنة ١٨٩٥ .[٣]

أما المستشرقون فقد كان أول من لفت الأنظار منهم إلى الشاهنامه السيروليم جونس W. Jones فى كتابه المسمى شرح آداب آسيا . وترجم فيه قطعا من الشاهنامة فى سنة ١٧٧٤ م .

وجاء بعده المستشرق الانجليزى Lumsden وكان حجة فى اللغة الفارسية

---

(١) نفس المصدر : ص ١٢٤

(٢) حماسة سرائى : ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

(٣) نولدكه : ص ١٢٨

فحاول أن ينشر النص كله ولكنه لم يوفق إلى أكثر من الجزء الأول الذى يحتوى على مقدمة باللغة الانجليزية وملحق . وكان ترنرماكان Turner Macan أسعد حظا وأكثر توفيقا فى عمله إذ أفاد من مجهودات سابقيه . وتحتوى طبعته على ملحق فارسى أيضا للقطع الحماسية التى ألفت على نسق الشاهنامه ، ومقدمة فارسية تحوى مقدمة بايسنقر ، ومقدمة انجليزية ثم مجموعة بالاصطلاحات الصعبة .

ومن الطبعات الأخرى التى ظهرت للشاهنامة طبعة آموزنده شيرمرد Amuzanda Shirmard فى بومباى سنة ١٩١٤ ، وطبعة مول J. Mohl وقد ارفق النص الفارسى بترجمة فرنسية . ولمقدمات مول اهميتها وخاصة مقدمته فى الجزء الأول .

وهناك طبعة Vullers وقد استفاد من نسختى ما كان ومول Macan & Mohl وقد اتبع على العموم نسخة مول وحاول أن يصحح أخطاءها فى مواضع كثيرة . وبعد موته أكمل الطبعة Landauer .

فاذا تركنا جهود المستشرقين فى ميدان الطبع والنشر إلى ميدان الترجمة رأينا James Atkinson قد ترجم إلى الانجليزية فى سنة ١٨١٤ قصة رستم وسهراب وهى ترجمة سهلة . كما أنه ترجم الشاهنامة كلها ترجمة مختصرة نثرية وإن لم تخل من بعض الأشعار . وهى فى الحقيقة ترجمة للشاهنامه المختصرة التى كتبها توكل بك وكانت رائجة فى الشرق .

وبعد Atkinson شارك فى ميدان الترجمة Stephan Weston سنة ١٨١٥ .

وهناك ملخص بالألمانية لمحتويات الشاهنامه حتى عهد رستم فى شكل قصة نثرية بقلم J. Gœrres

وفى سنة ١٨٣٧م قام F. Ruckert بترجمة قصة رستم وسهراب ترجمة شعرية. وكان روكرت أحد الذين تزعموا فن الترجمة إلى الألمانية، كما كان واحدا من علماء اللغة الفارسية الذين استطاعوا امتلاك ناصيتها.

وفى سنة ١٨٣٨ ظهرت ترجمة J. Mohl وهذه الترجمة فى سبعة مجلدات من الحجم الكبير. وقد كتب مول فى بداية كل مجلد من هذه المجلدات مقدمة. وفى المجلد الأخير الفهارس المختلفة. وقد ظهر لترجمة مول طبعات مصورة ومزينة.

وفى سنة ١٨٣٩، ١٨٤٠ ظهرت ترجمات Halisten إلى اللاتينية، Von Estarkenfels إلى الألمانية.

وفى سنة ١٨٥١ ظهرت ترجمة Schack وصدرت بحديث مفصل عن الفردوسى. وهى من أحسن الترجمات.

وفى سنة ١٨٨٨ ظهرت الترجمة الإيطالية الشعرية الكاملة للعالم الإيطالى Italo Pizzi الذى قام إلى جانب هذه الترجمة بكتابة بعض المقالات عن الشاهنامه.

وظهرت بعد ذلك ترجمة Joukovsky الروسية لقصة رستم وسهراب. ثم ترجمة Krymsky الذى نظم بالروسية من أول الشاهنامه حتى عهد منوچهر. وترجمة Sokoloff بالروسية أيضا فى سنة ١٩٠٥ م وهى ترجمة نثرية من أول الشاهنامه حتى نهاية عهد افريدون. وفى نفس سنة ١٩٠٥ ظهرت ترجمة Arthur G. Warner & Edmond Warner وتلاها فى سنة ١٩٠٧ ترجمة W. Buxton إلى الإنجليزية. وفى نفس هذه السنة ظهرت ترجمتان أخريان بالإنجليزية هما ترجمة Alexander Rogers، William Stigand، وفى سنة ١٩١٢ ظهرت بالإنجليزية ترجمة Wallace Gandy وفى سنة ١٩١٩ ظهرت ترجمة Essigmann الألمانية. ثم

جاءت بعد ذلك ترجمات George L. Leszczinski بالألمانية فى سنة ١٩٢٠ ، ترجمة Werner Yansen فى سنة ١٩٢٢ بالألمانية ، ترجمة Christensen سنة ١٩٣١ بالدانيماركية ، ترجمة Axel Eric Hermelin بالسويدية فى نفس السنة ، ترجمة Joseph Orbely بالروسية فى سنة ١٩٣٤ .

هذا بعض جهود المستشرقين فى ميدان الترجمة . أما مجهوداتهم المتصلة بالدراسات فهناك ما كتبه J. Von Hammer بالألمانية فى كتابه عن تاريخ الأدب الإيرانى المطبوع فى سنة ١٨١٨ م .

وفى كتاب Baumgarten الألمانى الذى كتبه عن التاريخ العام للآداب العالمية فصل مفصل عن الفردوسى والشاهنامه .

وهناك دراسات هرمان اتيه Herman Ethé فى كتابه عن تاريخ الأدب الفارسى الحديث Neu Persische Literatur وحديثه عن الفردوسى الشاعر الغنائى Firdausi Als Lyriker .

ثم دراسات تيودور نولدكه وهى من أهم الدراسات التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث . وقد نشرت أولا فى كتاب فقه اللغة الايرانية ثم نشرت منفصلة بعد ذلك فى سنة ١٩٢٠ فى برلين .

وبراون تكلم فى هذا الموضوع فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى .

ومن الدراسات المهمة فى اللغة الفرنسية دراسات مول فى مقدماته لأجزاء ترجمته . وقد اطلع فيما كتبه على أغلب المصادر التى تحدثت عن الشاعر .

وهناك كتاب Darmesteter الذى طبع فى سنة ١٨٨١ وتحدث فيه المؤلف عن نشأة الشعر الفارسى وأثنى فيه على الفردوسى ثناء جماً . وقد أصدر هنرى

ماسيه كتابا عن الفردوسى والحماسة القومية Firdousi et l'epopée Nationale

وقد ظهر عن الفردوسى بالروسية كتاب Nazariants ثم كتاب Zinoveff الذى يدرس أساطير الايرانيين . وقد رجع هذا المستشرق إلى مؤلفات قديمة وانتهى إلى أن الأساطير الهندية أثرت فى كتاب الأفستا . وهناك كتاب Krimsiky عن تاريخ إيران وأدبياتها . وقد طبع فى موسكو ١٩١٣ .

وقد كان لانتشار الترجمات الخاصة بالشاهنامه فى أوربا أثر كبير إذ لفتت أنظار كثير من شعراء القرن التاسع عشر إلى ما فيها من مادة خصبة لنظم الاشعار وخاصة قصة رستم وسهراب . وقد اشتغل كثير من شعراء أوربا بنظم هذه القصة فى لغاتهم المختلفة مثل ماتيو آرنولد المولود فى ١٨٢٢ والمتوفى فى ١٨٨٨ وواسيلى اندريفتش ژوكوفسكى Vassili Andrievitch Joukovsky المولود فى ١٧٨٣ والمتوفى فى ١٨٥٢ وهو من مشاهير شعراء الروس . وهناك من شعراء أوربا من تأثر بالفردوسى أمثال جيته Gœthe فى كتابه المعروف باسم ديوان الشرق والغرب. وفكتور هوجو فى كتابه "Orientales" ولشاعر الالمان Henri Heine منظومة فى قصة الفردوسى مع السلطان محمود الغزنى حين وصلته الجائزة من محمود بينما كانت جنازته تخرج من باب المدينة.

١ — المنظومات التى قلدت الشاهنامة [١]

كان للشاهنامه أثر كبير فى الأدب الفارسى وقدحاول الكثيرون أن ينظموا على نسقها. وفيما يلى موجز لأهم المنظومات الحماسية القومية التى قلدت الشاهنامه

كرشاسب نامه :

نظمها أبو نصر على بن احمد اسدى طوسى . وقد انتهى من نظمها سنة ٤٥٨ هـ. وأسدى من شعراء الفرس الكبار. وتعتبر منظومته گرشاسپ نامه من أعظم الأعمال الأدبية التى جاءت على نسق الشاهنامة. وليست منظومة أسدى قاصرة على نظم تاريخ الفرس وسرد أقاصيصهم فحسب لأنها تتضمن إلى جانب ذلك كثيرا من الفوائد والالتفاتات والآراء الخاصة بالشاعر فى المسائل الخلقية والاجتماعية .ويقدر ما ورد من أبيات هذه المنظومة فى الحكمة والموعظة وشئون الحياة بثلثها كما أن الشاعر يعرض فى ثنايا كلامه كثيراً من الآراء الفلسفية والمذهبية والموضوعات التاريخية. وفى كثير من المواضع يترجم فى كتابه بعض عبارات القرآن المجيد والأحاديث بعبارة جامعة موجزة كما يعرض بشىء من التفصيل العقائد المختلفة للفلاسفة القدماء من اليونان فيما يتعلق بمبدأ الكون وأصل الخليقة. ولما كان بطل المنظومة قد صال وجال فى شرق العالم المعروف وقتذاك وغربه فقد دعا هذا إلى أن يتحدث الشاعر عن كثير من الممالك والبلاد والجزائر ويعدد ما فيها من العجائب.

وگرشاسپ نامه كما هو واضح من اسمها تتعلق بقصة گرشاسپ بطل

---

(١) أهم مصادر هذا الموضوع مقدمة مول على ترجمته الفرنسية، حماسه سرائى.

سيستان وجد رستم الأكبر . وينتهى نسب گرشاسپ فى بندهشن إلى أفريدون وفى گرشاسپ نامه إلى جمشيد .

ولا يبعد أن يكون أسدى الطوسى قد استفاد فى منظومته من شاهنامه أبى المؤيد البلخى إلى جانب المؤلفات والمصادر البهلوية .

وليست لدينا عن حياة صاحب هذه المنظومة ، أسدى الطوسى ، تفصيلات محققة وأسدى هذا هو أسدى الصغير إذ ينبغى أن نفرق بين أسدى الكبير وهو الأب والصغير وهو الابن . فالأصغر هذا هو صاحب گرشاسپ نامه . أما أبوه أسدى الكبير فكان يقال إنه من أساتذة الفردوسى ، وكان صاحب المناظرات المعروفة باسمه ، وقد توفى فى عهد السلطان مسعود . وقد اتفق كتاب التذاكر على أن مولد صاحب المنظومة وموطنه كان فى طوس وأنه فى حوالى منتصف القرن الخامس ذهب إلى نخجوان واتصل بحاكمها أبى دلف . وقد دفعه إلى ذلك الفتنة فى خراسان وانتقال الملك من الغزنيين إلى السلاجقة مما أدى إلى كساد سوق الشعر والأدب فى خراسان . ولم يعد هناك من يقوم الشعر ويقدره حق قدره سوى أبى دلف . وقد عاش الشاعر فى بلاط أبى دلف مكرما معززا . وقد دفعه ما لقيه من انعام الملك إلى نظم هذه القصة . وقد فرغ من منظومته سنة ٤٥٨ ﻫ بعد أن تقدمت به السن . وتحمل أشعاره التى وردت فى آخر گرشاسپ نامه هذا المعنى(١)

ولأسدى هذا ، غير المنظومة ، كتابه المعروف لغت فرس .

---

(١) گرشاسپ نامه : مقدمة حبيب يغمائى . تهران .

وقد صدر أسدى منظومته بعدد من المقدمات، الأولى فى مدح الله ، والثانية فى نعت النبى ، والثالثة فى مدح الدين ، والرابعة فى ذم الدنيا ، والخامسة فى وصف السماء ، والسادسة فى الحديث عن العناصر الأربعة ، والسابعة فى شكر الناس ، والثامنة فى صفة الروح والبدن ، والتاسعة فى سبب نظم القصة ، والعاشرة فى مدح الشاه أبى دلف ، والحادية عشرة فى بيان رجولة گرشاسپ . ثم تبدأ القصة بعد ذلك[1]

ويتراوح عدد أبيات المنظومة تبعا لاختلاف النسخ بين سبعة آلاف ، وأحد عشر ألف بيت .

بهمن نامه :

وهو من المصادر التى استفاد منها صاحب مجمل التواريخ ويسميه فى مقدمة الكتاب أخبار بهمن[2] ويعود إلى ذكره مرة ثانية ويسميه بهمن نامه . وينسب تأليفه إلى الحكيم إيرانشاه بن أبى الخير[3] .

وهذا الكتاب ، ولو أنه معنون باسم بهمن بن اسفنديار ، إلا أن القسم الأكبر منه حديث عن سلسلة أبطال سيستان من أسرة رستم . وهذا الكتاب من مؤلفات أواخر القرن الخامس أو أوائل السادس وهو كغيره من المنظومات التى قلدت الشاهنامه منظوم فى البحر المتقارب المثمن . ويشمل أربعة أقسام على هذا الترتيب :ـ

---

(١) گرشاسپ نامه : ص ٢١.

(٢) مجمل التواريخ : ص ٢. نشر بهار .

(٣) مجمل التواريخ : ص ٩٢ .

القسم الأول : عن جلوس بهمن على تخت السلطنة . وفى نهاية هذا القسم قصة موت رستم .

القسم الثانى : عن حرب بهمن مع أبطال سيستان

القسم الثالث : عن تعقب بهمن بنات رستم فى سيستان وأسرهن ، ثم ما كان من ندمه على هذا العمل وإعادته الأسيرات إلى موطنهن.

القسم الرابع : عن آذر برزين بن فرامرز . وكان بطل العالم فى عهد بهمن .

وفى بهمن نامه ميل إلى التحسينات الأدبية وبه مقدمة يقلد فيها الفردوسى ويذكر أنه اعتمد على المصادر الشفهيه . والمؤلف لا ينقل عن كتاب الملوك ولا يمكن الشك فى أنه اعتمد على روايات قديمة إذ أن الكتاب يدور فى دائرة الشعر الحماسى القديم إلى حد بعيد . وقد كشف المؤلف فى منظومته عن جهل كبير . وفى الجزء الرابع يبين عجزه التام عن أى نوع من النقد وملاحظة العيوب الظاهرة فى الخرافات الشعبية التى ذكرها . وفى هذا الجزء يخلط بين طيسفون وبغداد كما يخلط هاتين المدينتين ببابل أو بأى مدينة أخرى من مدن ما بين النهرين .

ويصل عدد أبيات بهمن نامه إلى عشرة آلاف .

فرامرز نامه :

وفرامرز هذا هو ابن رستم وقد ذكرنا فيما سبق كيف لقى رستم مصرعه بيد أخيه شغاد بالتواطؤ مع ملك كابل . أما شغاد فقد لقى مصرعه جزاء فعلته ذلك أن رستم لما شعر بدنو الأجل ، وانقضاء العمر عز عليه أن يفارق الحياة

قبل أن ينتقم من قاتله شغاد فدعاه إليه ورجاه أن يحضر له قوسه مع نشابتين ليدفع بهما عن نفسه السباع والكلاب إلى أن تخرج روحه فانخدع شغاد وقدم لأخيه القوس والنشابتين ووضعهما بين يديه . فمدرستم يده إلى القوس وأحس شغاد منه الشر فاحتمى خلف شجرة . وألقى رستم إحدى النشابتين فاخترقت الشجرة ونفذت إلى شغاد فقتل من فوره . وهكذا مات رستم بعد أن انتقم لنفسه.

أما ملك كابل فقد توجه للانتقام منه فرامرز بن رستم الذى استطاع أن يسحق جيشه وأن يأسره مع عدد كبير من أهله . ثم أخذه إلى تلك الحفيرة التى تردى فيها رستم فسلخ جلده وعلقه على حافتها ، وأحرق أهله جميعا . وعاد إلى مدينة كابل فخربها وأباد سكانها .

وقد أشار إلى هذه المنظومة صاحب مجمل التواريخ(١) ، كما أن صاحب تاريخ سيستان يشير إلى قصة فرامرز المنثورة التى كانت معروفة فى القرن الخامس(٢) مما يرجح أن القصة المنظومة قد اعتمدت على سابقتها المنثورة . ولم تصل إلينا المنظومة الاصيلة كاملة وقد أورد مول منتخبات منهـــا فى ألف وخمسمائة بيت .

كوش نامه :

ذكر هذه القصة صاحب مجمل التواريخ باسم قصهٔ كوش پيل دندان(٣)، مما يدل على أنها ألفت قبل سنة ٥٢٠ ﻫ وهى السنة التى ألف فيها مجمل التواريخ.

---

(١) مجمل التواريخ : ص ٢.

(٢) تاريخ سيستان : ص ٧.

(٣) مجمل التواريخ : ص ٢.

ومؤلف كوش نامه إيرانشاه بن أبي الخير . وقد كتب هذا الكتاب فى بداية عهد السلطان محمد بن ملكشاه يعنى فى سنة ٥٠٠ ﻫ أو سنة ٥٠١ .

وكوش پيل دندان هو ابن كنعان بن كوش أو ابن كوش ابن اخى الضحاك الذى يذكر فى بضع مواضع قبل افريدون . ولما فرغ أفريدون من أمر الضحاك أرسل إلى الصين قارن بن گاوه فأسر كوش وأتى به إلى افريدون الذى سجنه ثم أطلق سراحه بعد فترة وولاه على الجنوب والمغرب ولكنه عاد إلى العصيان .

وقد نقل موضوعات هذه المنظومة الكونت دى جوبينو de Gobineau فى الجزء الأول من كتابه عن تاريخ الفرس . (١)

بانو كشسب نامه :

لرستم غير فرامرز ابنتان إحداهما بانو گشسپ هذه والأخرى اسمها زربانو وكانتا فى غاية الشجاعة (٢) واشتركتا فى الحرب ضد بهمن حين أغار على سيستان وحارب أبطالها بعد موت رستم ولكنهما وقعتا فى الأسر ثم أطلق بهمن سراحهما بعد ذلك . (٣)

وتروى الأقاصيص أن كثيرا من الملوك والأمراء قد تقدموا لخطبة بانو گشسپ ولكن رستم اختار لها من بين المتقدمين گيو بن گودرز وأتم هذا الزواج بيژن .

---

(١) Histoire des Perses. Paris. 1869 P. 139-144

(٢) مجمل التواريخ : ص ٢٥

(٣) نفس المصدر : ص ٥٤

ويستفاد من مقدمة مول فى الجزء الأول من الشاهنامه ان شجاعة بانو گشسپ بلغت إلى حد أنها كانت تقاتل الأسود وتبارز الرجال فتشطرهم بضربة واحدة من سيفها شطرين . ومنظومة بانو گشسپ منظومة صغيرة بلا مقدمة وتتكون من تسعمائة بيت فى البحر المتقارب. وناظم هذه القصة مسلم لأنه يصلى على النبي فى بداية الحكاية الرابعة وفى نهاية الكتاب . وهذه المنظومة من آثار القرن الخامس الهجرى وتتحدث عن أربع وقائع منفصلة ليس بين بعضها كبير ارتباط . وفى برزونامه وبهمن نامه روايات عديدة عن بانو گشسپ ليس منها أثر فى هذه المنظومة مما يمكن معه القول بأن هذه المنظومة منتخبة من أخرى أكبر .

برزو نامه :

وبرزو هو ابن سهراب وتشبه قصة برزو إلى حد كبير قصة أبيه سهراب فقد أحب برزو فى بلاد شنگان ابنته شهرو واتصل بها فحملت منه ولما حان وقت رحيل سهراب أعطاها خاتمه ليكون علامة منه . وعندما ولدت الطفل سمته برزو وظلت تخفى عنه أمر أبيه مخافة أن يندفع فى طلب الثأر فيكون مصيره مصير أبيه ، إلى أن كان يوم وصل فيه افراسياب إلى بلاد شنگان هاربا من رستم . وهناك التقى ببرزو ونشأت بينهما صلة فقربه اليه ووجهه لحرب الايرانيين فوقع أسيرا فى أيديهم . وفى ذلك الوقت الذى قضاه فى أسر الايرانيين عرف نسبه فانضم اليهم وأصبح واحداً من أبطالهم .

وبرزونامه مجموعة الروايات المتصلة بأسرة رستم التى لم يعن بها الفردوسى وهى فى نفس الوقت تحوى قصة برزو التى وضعت فى شرح بطولته ورجولته

ومن مطالعة هذه القصة يشعر القارىء أن مراد الناظم أن يجعلها ذيلا للشاهنامه.

وتاريخ نظم برزو نامه مشكل. ولم يذكرها مجمل التواريخ وليس لدينا علم بناظمها وينسب Anquetil du Perron هذه المنظومة إلى شاعر اسمه عطاى ولكنه لايذكر المصدر الذى بنى عليه هذا الرأى. ولو صح أن عطاى هذا هو ناظم المنظومة لما ارتفع الإشكال لأننا لانعرف شيئا عنه.

ويظهر أن برزو نامه من آثار القرن الخامس أو بداية السادس. وهى على كل حال تقليد لقصة رستم وسهراب وخاصة فى بدايتها.

شهريار نامه :

وشهريار هو ابن برزو بن سهراب بن رستم. وناظم هذه القصة سراج الدين عثمان بن محمد الغزنى المعروف بالمختارى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م أو سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م. وله ديوان مدح فيه أربعة من ملوك عصره. [١] ويذكر المختارى فى نهاية منظومته أن نظمها كان باشارة من مسعود بن ابراهيم الغزنى. [٢] وقد قضى الشاعر ثلاث سنوات فى هذه القصة حتى فرغ من نظمها. وهى مأخوذة من قصة نثرية مشهورة.

وشهريار نامه ثلاثة أقسام :-

القسم الأول : وهو أكثر هذه الأقسام تفصيلا فيه حديث عن حربين مشهورتين لفرامرز بن رستم. أولاهما مع جنى اسود، وثانيتهما مع قائد جيش الهند واسمه شهريار. وكان شهريار هذا ابن اخى

---

(١) حواشى چهار مقاله للقزوينى الملحقة بالترجمة العربية ص ١٢٤

(٢) ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م - ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م

فرامرز. ولم يكن احدهما يعرف صلته بالآخر فى بداية القصة .

القسم الثانى : يتصل بزال فى ذهابه إلى بلاط سليمان وحربه مع الجنى المسمى اهريمن .

القسم الثالث : يتعلق بنهاية قصة داستان .

آذر برزين نامه :

هو آذر برزين بن فرامرز من ابنة صور ملك كشمير . وكان يساعد أباه فى حربه مع بهمن . ودارت بينه وبين بهمن حروب شديدة انتهت بالصلح بينهما . وكان آذر برزين بطل العالم على عهد بهمن .

جها نكير نامه :

وجها نكير ابن آخر من أبناء رستم . وكان يجهل صلته برستم كما كان سهراب يجهل بنوته لرستم . فالقصة من هذه الناحية تشبه قصة سهراب ورستم ففى كلا القصتين تبدأ الحرب بين البطلين جها نكير ورستم ، وسهراب ورستم دون أن يعرف أحدهما الآخر وتنتهى قصة رستم وسهراب بمأساة على نحو ماذكرناه إلا أن قصة جها نكير ورستم تختلف فى نهايتها إذ يعرف كل بطل صلته بالآخر .

ومن هذه القصة نسخة فى المكتبة الأهلية بباريس عدد أبياتها حسب احصاء مول ٦٣٠٠ وقد طبعت من هذه النسخة طبعة أخرى سنة ١٨٩٢ م فى بمباى .

وناظم هـذه القصة شاعر اسمه قاسم وتخلصه مادح . وليست هناك أى معلومات أخرى عن الشاعر للافادة عن عصره أو معاصريه من الملوك .

ولكن الشاعر يشير فى البيت الأخير من المنظومة إلى أنه نظمها فى هراة .

ويرى مول أن نظم هذه القصة كان فى القرن الخامس الهجرى لأن عناصر القصة وعرض موضوعاتها يشبه ما هو موجود فى الحماسات الأصيلة الإيرانية فضلا عن أن أسلوب الكلام ليس مما عرف عن القرون التى تأخرت عن القرن الخامس . ويرى مول أيضا أن هذه المنظومة تخلو من الأثر والنفوذ الاسلامى .

وبعد أن ينقل صفا خلاصة رأى مول يخالفه فيه مستندا إلى أن الناظم يستعمل كلمة راوى كثيرا بينما كانت الحماسات السابقة فى القرن الرابع والخامس تذكر كلمة الدهاقين والموابذة باعتبارهم مصادر الروايات وهذا من التأثير الإسلامى وقد وجد فى اللغة الفارسية المتأخرة . كما أن الأثر الإسلامى واضح فى هذه القصة إذ نجد فيها العناية بمبدأ التوحيد . وهذا بلا شك من الأثر الاسلامى . وكذلك تحارب جهانگير نامه فكرة السحر والسحرة ، وفيها اصطلاح جديد هو الاسم الأعظم وكان هذا الاسم الأعظم مبطلا للسحر ، ولهذا كان جهانگير يلجأ إليه فى ابطال خاصية السحر . وبالاضافة إلى ذلك يلاحظ أن جهانگير نامه تصف **التورانيين** بأنهم الجنس الأصفر الضيق العينين السفاك للدماء الطويل الأنف الكريه المنظر المتوحش . وقد جاءت هذه الأوصاف لأول مرة فى جهانگير نامه مما يدل على كراهية الناظم لهذا الجنس . وربما رجعت هذه الكراهية إلى ما كان يقوم به الأتراك من الهجمات والإغارات الشديدة فى القرن السادس وما بعده . ومن الجائز أن تكون تلك الإغارات هى الإغارات التى قام بها الغز فى القرن السادس ٥٤٨ ﻫ أو المغول فى القرن السابع ٦١٦ ﻫ وأبدوا فيه من آيات التوحش والقسوة ما جعل الناس ينفرون

منهم . وينتهى صفا بعد كل ما تقدم إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب من مؤلفات القرن السادس أو السابع .

سام نامه :

وهذه منظومة ترجع إلى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن . وتدور حوادثها الاساسية حول سفر سام إلى بلاد الصين وعشقه لابنة ملك الصين فغفور المسماة پريدخت ، وما كان من علم الاب بما يجرى حوله خفية وأسره لسام ، ثم خلاصه على يد ابنة أحد حراس القلعة التى أسر فيها ، ثم ما كان بعد ذلك من خطف سام معشوقته وحربه مع فغفـــور إلى أن انتهى الامر بينهما صلحا .

ويغلب أن يكون ناظم هذه القصةهوخواجو الكرمانى الشاعر المعروف فى القرن السابع والثامن . ولا يعرف متى بدأ الشاعر النظم ولا متى انتهى منه.

* * *

وهناك إلى جانب هذه المنظومات الأدبية القومية التى تدور حوادثها فى الغالب حول البطولة والابطال وما يتصل بذلك من أساطير وقصص منظومات أخرى تتخذ من الحوادث التاريخية مادة لها . ولذلك كانت منظومات تاريخية .

ومن هذه المنظومات التاريخية التى قلدت شاهنامة الفردوسى ما يأتى :ــ

اسكندر نامه :

وهناك أكثر من كتاب ومنظومة فى هذا الموضوع فنبدأ بأشهرها وهى منظومة اسكندر نامه لنظامى الشاعر المعروف .وقد ولد نظامى على الأشهر بين

سنوات ٥٣٥ ، ٥٤٠ ﻫ فى مدينة گنجه . وتوفى فى احــدى السنوات بين ٥٩٩ و ٦١٩ ﻫ .

وكان من معاصرى الشاعر وممدوحيه فخر الدين بهرامشاه بن داود المتوفى فى سنة ٦٢٢ ﻫ / ١٢٢٥ م وطغرل بن أرسلان السلجوقى من سلاجقة العراق وكردستان (١) . وأبو جعفر محمد بن ايلدگز المعروف بجهان بهلوان (٢) . وقزل ارسلان بن ايلدگز أخو محمد (٣) وشروانشاه أبو المظفر اخستان بن منوچهر و نصرة الدين أبو بكر بن محمد بن جهان بهلوان (٤) . وعز الدين مسعود بن نور الدين ارسلان صاحب الموصل (٥) وعلاء الدين كرب ارسلان من أولاد آقسنقر .

وقد بقى من آثار هذا الشاعر العظيم ديوان شعر ، مثنويات خمسة هى مخزن الأسرار التى نظمها فى حدود سنة ٥٧٠ ﻫ باسم فخر الدين بهرامشاه بن داود المتوفى سنة ٦٢٢ ﻫ ، خسرو وشيرين التى أتمها فى سنة ٥٧٦ ﻫ وجعلها باسم محمد جهان بهلوان ، وليلى والمجنون التى قدمها إلى شروانشاه اخستان بن منوچهر فى سنة ٥٨٤ ﻫ ، وهفت پيكر التى أهداها إلى كرپ أرسلان فى سنة ٥٩٣ ﻫ ، اسكندر نامه .

واسكندر نامه قسمان يسمى الاول منهما شرفنامه ويسمى الثانى اقبال نامه أو خرد نامه .

---

(١) ٥٧٣ - ٥٩٠ ﻫ / ١١٧٧ - ١١٩٤ م

(٢) ٥٦٨ - ٥٨١ ﻫ / ١١٧٢ - ١١٨٥ م

(٣) ٥٨١ - ٥٨٧ ﻫ / ١١٨٥ - ١١٩١ م

(٤) ٥٨٧ - ٦٠٧ ﻫ / ١١٩١ - ١٢١٠ م

(٥) ٦٠٧ - ٦١٥ ﻫ / ١٢١٠ - ١٢١٨ م

وقد قدم الشاعر شرفنامه إلى الأتابك نصرة الدين أبو بكر بن محمد جهان بهلوان من أتابكة آذربيجان ، وقدم إقبال نامه إلى عز الدين أبى الفتح مسعود ابن نور الدين أرسلان صاحب الموصل كما يدل على ذلك الأشعار الأخيرة فيه (١) .

ويتحدث الشاعر فى القسم الأول المعروف بشرفنامه أى كتاب الشرف عن الاسكندر ملكا ، وعن حروبه وفتوحاته وأمجاده . ويتحدث فى القسم الثانى المعروف باقبال نامه أى كتاب السعد أو خردنامه أى كتاب الحكمة حديثا يدور فى الغالب حول الحكمة والحكماء وصلة الإسكندر بهؤلاء .

ويبدو أن الشاعر قد استفاد فى نظمه هذه القصة من قصة منثورة فى هذا الموضوع كانت معروفة فى القرن الخامس . هذا إلى جانب المصادر الأخرى التى يحتمل أن يكون الشاعر قد رجع إليها سواء أكانت فارسية أو عربية .

وقد قلد نظامى الفردوسى فى عمله وحاول أن يبلغ مبلغه إلا أنه لم يستطع أن يصل إلى عذوبة أسلوب الفردوسى . وفى قصة نظامى كثير من المعانى المهجورة . ووصفه الجند والمعارك والحروب لا يرتفع إلى مستوى الوصف عند الفردوسى فى هذا الباب . وقد جرى نظامى فى منظومته على عادة شعراء عهده من إيراد الاصطلاحات العلمية واللغات والتراكيب العربية والكثير من أفكار الفلاسفة ومن ثم فإن قارىء منظومته لا يجد نفس المتعة الفنية واللذة الأدبية الخالصة التى يجدها قارىء الشاهنامه .

---

(١) اقبال نامه : ص ٢٨٠ ط ارمغان . تهران .

آئينه سكندرى :

قلد كثير من الشعراء نظامى فى منظومته . واتخذوا من قصة الاسكندر مادة نظمهم كما فعل نظامى . ومن هؤلاء المقلدين الأمير خسرو بن الأمير سيف الدين محمود الدهلوى الذى ولد فى مدينة پيتالى من بلاد الهند سنة ٦٥١ هـ وتوفى فى دهلى فى حدود سنة ٧٢٥ هـ . وكان الأمير خسرو من مشاهير شعراء الفارسية فى الهند وواحدا من أبرز من قلدوا نظامى فى نظم الخمسة . وله ديوان ومثنويات خمسة هى مطلع الأنوار ، وشيرين وخسرو ، ومجنون وليلى ، وهشت بهشت ، وآئينه سكندرى . وقدم آئينه سكندرى إلى علاء الدين محمد شاه من سلاطين الهند فى سنة ٦٩٩ أى قريبا من مائة سنة بعد منظومة نظامى اسكندر نامه .

خردنامهء اسكندرى :

ومن كبار الشعراء الذين طرقوا هذا الموضوع نور الدين عبد الرحمن بن احمد بن محمد الدشتى المتخلص بجامى المولود فى سنة ٨١٧ هـ والمتوفى فى هراة سنة ٨٩٨ هـ .

وقد بقيت لجامى آثار كثيرة منها خردنامهء اسكندرى . وهو يبدأ هذه المنظومة بمقدمات فى التوحيد والمناجاة وإظهار ضعف الشيخوخة ونعت الرسول وبيان المعراج والدعاء لعبيد الله أحرار ومدح السلطان حسين بايقرا وبعض النصائح وقول فى فضيلة الكلام ثم يشرع بعد ذلك فى نظم القصة . وقد نظم خردنامه قبل سنة ٨٩٥ هـ وهى السنة التى مات فيها عبيد الله الذى ورد مدحه فى المنظومة وبعد سنة ٨٨٩ هـ وهى السنة التى نظم فيها قصة ليلى والمجنون .

قصة ذى القرنين :

وهناك ، غير ما سبق ، مثنويات أخرى فى البحر المتقارب قلدت اسكندر نامه منها منظومة بدر الدين عبد السلام بن ابراهيم الحسينى الكشميرى من شعراء القرن العاشر فى الهند . واسم منظومته « قصهٔ ذو القرنين » . وقد قدمها إلى عبد الله بهادرخان ثانى ملوك الأزبك وكان بدر الدين شاعراً مكثراً وقد بقيت له بضعة مثنويات .

* * *

ظفر نامه :

ألف هذه المنظومة حمد الله المستوفى صاحب تاريخ گزيده فى سنة ٧٣٥ هـ/١٣٣٥ م وهى منظومة طويلة يبلغ عدد أبياتها ٧٥٠٠٠ بيت . وتتحدث هذه المنظومة عن تاريخ العرب والعجم والمغول من بداية الاسلام حتى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ — ١٣٣٢ م .

وكانت سن المؤلف حين بدأ النظم أربعين سنة ، وقضى خمسة عشر عاماً حتى فرغ من منظومته .

وقد بدأ المستوفى فى نظم هذه المنظومة قبل أن يبدأ فى كتابة تاريخه المنثور فى التاريخ المعروف بتاريخ گزيده . ويذكر أنه لما أتم منها ٥٠٠٠ بيت رأى أن يؤجل إتمامها وأن يشرع فى كتابة تاريخه المنثور حتى إذا فرغ منه عاد إليها .

وقد خص العرب من حديث هذه المنظومة ٢٥٠٠٠ بيت ، وخص الفرس ٢٠٠٠٠ بيت ، وخص المغول ٣٠٠٠٠ بيت .

ولهذه المنظومة نسخة وحيدة تتألف من ٧٧٩ ورقة . وقد نسخت فى شيراز سـنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م . وهى الآن محفوظة بالمتحف البريطانى تحت رقم Or. 2833.

ويتحدث ريو Rieu عن هذه المنظومة فيقول إنه لا يمكن إغفال قيمتها التاريخية وخاصة فيما يتصل بالمغول . ومن أمثلة الصور الحية التى يقدمها الناظم فى منظومته المذبحة التى اقترفها المغول فى موطنه قزوين . وقد استمد الناظم جانباً من مادته من جده أمين نصر المستوفى الذى كان فى الثالثة والتسعين من عمره فى ذلك الوقت . ويورد براون فى كتابه مثالا لما فى هذه المنظومة (١).

شهنشاه نامه :

وهذه المنظومة كسابقتها مهداة إلى السلطان أبى سعيد . وقد نظمها المؤلف فى ثمانى سنوات انتهت سنة ٧٣٨ هـ/١٣٣٧—١٣٣٨م ولـكن أجل السلطان أبى سعيدلم يمهله حتى يقدم اليه الشاعر هذه المنظومة إذ توفى قبل انتهائها بسنتين.(٢)

وتتحدث هذه المنظومة عن تاريخ المغول من عهد جنكيزخان حتى سـنة ٧٣٨ هـ/١٣٣٧—١٣٣٨ م فى ١٨٠٠٠ بيت . ولهذا يقال لها أحياناً جنگيزنامه .

---

(١) Browne : Lit. His. of Persia p. 95-96 vol. III Cambridge 1951.

وراجع أيضاً : مصادر فارسية فى التاريخ الإسلامى للدكتور ابراهيم أمين ص١٧ بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد المجلد السابع سنة ١٩٤٤ . ط الاعتماد.

(٢) مصادر فارسية فى التاريخ الإسلامى . ابراهيم أمين . ص ١٩.

غازان نامه :

ألف هذه المنظومة فى سنة ٧٦٣ هـ / ١٣٦١—١٣٦٢ م نور الدين بن شمس الدين محمد . ويذكر براون أن هذه المنظومة وسابقتها نادرتان [١] . ومنظومة غازان نامه تبلغ فى عدد أبياتها نصف سابقتها . وليس لهاتين المنظومتين كما يقول براون أهمية كبيرة فيما يتعلق بالناحيتين التاريخية أو الشعرية وإن كان يمكن بعد الدرس الدقيق استخراج بعض المعلومات النافعة عن العصر الذى تتحدث عنه هاتان المنظومتان [٢] .

شاهنامه هاتفى :

يذكر سام ميرزا أن الشاه اسماعيل فى سنة ٩١٧ هـ بعد فتحه بلاد خراسان توجه الى العراق . وعرج فى طريقه على خرجرد جام ومر بحديقة هاتفى هناك . فأسرع هاتفى إلى استقباله والمثول بين يديه . وبعد أن تعطف الشاه بالسؤال عن أحواله طلب أن يسمع بعض أشعاره فأنشده هاتفى وكان شاعراً مجيداً واستحسن الشاه ما سمعه منه وكلفه أن ينظم فتوحاته فامتثل هاتفى ونظم من هذه الفتوحات ما يقرب من ألف بيت ولكنه لم يوفق إلى إتمام العمل . ويقول سام ميرزا إن هذه المنظومة لو تمت لنسخت كل ما سبقها من مثنويات الشاعر [٣] .

---

(١) Browne : Lit. His. of Persia p. 103 vol. III.

(٢) نفس المصدر : ص ١٠٤

(٣) تحفه سامى : ص ٩٦ ط ارمغان تهران

وقد توفى مولانا عبد الله هاتفى فى خرجرد ودفن فى حديقته وكان ذلك فى سنة ٩٢٧ هـ .

* * *

وهناك غير ما سبق منظومات تاريخية كثيرة منها شهنامهٔ قاسمى فى شرح سلطنة الشاه اسماعيل الصفوى وابنه طهماسپ وقد نظمها قاسمى گنابادى من شعراء القرن العاشر المعاصرين للشاه اسماعيل ولابنه طهماسپ ، شهنشاه نامه صبا وهى من المنظومات التاريخية الجميلة نظمها فتحعلى خان صبا الكاشانى من شعراء العهد القاجارى وهى فى شرح حروب عباس ميرزا .

وغير هذه المنظومات كثير ...

* * *

وهناك غير المنظومات الأدبية القومية والتاريخية التى قلدت الشاهنامة منظومات دينية اتخذت مادتها من تاريخ الإسلام ، والشيعة بوجه خاص ، وأبطال المسلمين .

وفيما يلى مجمل بعضها :ـ

خاوران نامه :

وهى منظومة دينية شيعية فى شرح أحوال وأخبار على بن أبى طالب عليه السلام . وناظم هذه المنظومة مولانا محمد بن حسام الدين المشهور بابن حسام من شعراء القرن التاسع . وقد انتهى من منظومته فى سنة ٨٣٠ هـ وتوفى فى سنة ٨٧٥ هـ .

صاحبقران نامه :

وتتحدث، هذه المنظومة عن سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم النبى عليه الصلاة والسلام . وقد نظمت فى سنة ١٠٧٣ ﻫ . ولا يعلم ناظمها .

حملهء حيدرى :

تتعلق هذه المنظومة بحياة محمد بن عبد الله وعلى بن أبى طالب وناظم هذه المنظومة ميرزا محمد رفيع خان باذل بن ميرزا محمد . اتصل ببلاط معز الدين فى دهلى وتولى من قبله حكومة كواليار وبقى فى منصبه هذا حتى آخر عهد أورنك زيب وبعد موته عاد إلى دهلى حيث توفى فى سنة ١١٢٣ أو سنة ١١٢٤ ﻫ .

وعندما مات ميرزا محمد رفيع خان لم تكن المنظومة قد تمت فأتمها من بعده أبو طالب الأصفهانى .

ارديبهشت نامه :

نظمها ميرزا محمد على شمس الشعرا سروش أصفهانى من الشعراء الكبار فى العهد القاجارى .

دراسات موضوعية

١١ — الحرب فى الشاهنامه
وما يتصل بها

إن أهم ما يلفت نظر القارىء فى الشاهنامه كثرة حروبها وامتدادها أزماناً طويلة . ويمكن تقسيم حروب الشاهنامه قسمين ؛ حروب العهد الأسطورى ويمكن أن ترد كلها أو أغلبها إلى أصل واحد هو النزاع الذى قام بين أبناء أفريدون ايرج ، تور ، سلم وكان من جرائه قتل ايرج واشتعال نيران الحرب . وقد امتدت ألسنة هذه النيران إلى أخوى ايرج فأهلكتهما على نحو ما ذكرناه فيما سبق . وانتقلت العداوة بعد موت الأخوة إلى سلالاتهم من الأفراد والشعوب ، وحروب العهد التاريخى وترجع إلى ما يكون بين الدول عادة من تنافس ورغبة فى السيطرة أو زيادة دخل الدولة الغازية بما تضمه إليها من أراض وماتفرضه على المغلوبة من الضرائب كما كانت الحال بين الفرس والروم أو نشر مبدأ من المبادىء وعقيدة من العقائد كما كانت الحال بين الفرس والعرب بعد الاسلام .

وقد وقعت أغلب حروب العهد الأسطورى فى شرق إيران وشمالها الشرقى . وكان نهر جيحون حداً فاصلا بين التورانيين والإيرانيين ولكن الطرفين المتنازعين كانا يجتازانه من حين إلى آخر . بينما وقعت أغلب حروب العهد التاريخى فى الغرب والشمال الغربى بين الإيرانيين من ناحية والروم أو العرب من ناحية أخرى .

اعداد الشباب للحرب:

ويمكن أن نعتبر الشعب الفارسى ، كما تصوره الشاهنامه ، شعباً حربياً .

وقد نالت الناحية الحربية عناية كبيرة من ملوك الفرس فى العهود المختلفة فكان أردشير بابكان يرسل الرسل إلى جميــع البلاد ليأمروا الناس بتعليم أولادهم الفروسية وأصول الحرب واستعمال آلات القتال المختلفة حتى إذا نما الأولاد وصاروا أقوياء وأجادوا فنون القتال سارعوا من بلادهم إلى بلاط الملك وقدموا أنفسهم ليكونوا فى خدمته إذا دعا داعى الحرب . وعند ذاك يثبت العارض أسماءهم فى الصحف المخصصة لذلك فإذا جد الجد ونشب القتال وجه الملك هؤلاء الشبان إلى الميدان تحت إمرة من يختاره لهم من القواد الشجعان . ولم يكن أردشير يكتفى بالتوجيه والإعداد بل كان يرقب هؤلاء بعين بصيرة إذا مارسوا القتال بالفعل فكان يكل مراقبة كل ألف منهم إلى موبذ مجرب خبير يوافيه بأخبارهم فمن أبدى شجاعة ومهارة فى القتال أثبت فى ديوان الجيش وضوعف له فى المكافأة والجزاء ومن أظهر الضعف والعجز أخرج من بين صفوف الجيش (١) .

وبلغ من عناية أردشير برجال الجيش أنه فضلهم على جميع الطبقات الأخرى التى يتكون منها المجتمع الإيرانى فى عهده لأنهم يقدمون أرواحهم فداء للوطن ودفاعا عن مصالح أهله .

دعوة الجيوش :

وكان هؤلاء الشبان إذا قيدوا أسماءهم فى سجل العارض عادوا إلى بلادهم ليكونوا رهن إشارة الملك فإذا قامت الحرب أو توقع الملك قيامها كتب إلى

---

(١) الشاهنامه : ص ١٩٨٠-٨١ ج ٧

عماله فى الأقاليم يكلفهم بجمع مالديهم من الجند، وتجهيزهم، وتوجيههم بعد ذلك إلى حضرته. وحين تتجمع الجيوش الآتية من الأقاليم المختلفة يتولى الملك بنفسه قيادتها أو ينتخب لها من يراه جديراً بقيادتها.

وبعد انتهاء الحرب يتفرق المحاربون إلى ديارهم على أن يعودوا كلما دعاهم الملك إلى ذلك.

عرض الجند:

ولم يكن الجند فى وقت السلم يتركون وشأنهم لتفسدهم حياة الدعة، ويلهيهم الاشتغال بشئون الحياة اليومية عما يجب عليهم من التدريب والاحتفاظ بمهارتهم فى شئون القتال. ومن ثم كان عرض الجند أمراً ضرورياً للاطمئنان على استعداداتهم والتأكد من صلاحيتهم.

وكان عرض الجند يتم فى كل وقت، فى وقت السلم على فترات مختلفة يحددها العارض، وقبل المعركة، كما يحدث أيضاً بعد المعركة.

وكان لعرض الجند ديوان مهم يسمى ديوان العرض أو ديوان الجيش أو ديوان الجند. كما كان يتولى هذا الديوان موظف من كبار موظفى الدولة يقال له العارض. وقد بلغ هذا العارض شأواً كبيراً فى عهد كسرى انوشروان. ويروى الدينورى فى الأخبار الطوال أن كسرى اختار لهذه الوظيفة كاتباً معروفا بالكفاية والذكاء اسمه بابك بن النهروان. وقد طلب بابك من كسرى قبل أن يتولى هذا المنصب الخطير أن يطلق يده وأن يمنحه الحرية فى العمل وأن يتجاوز له عن كل ما قد يصدر عنه من غلظة أو شدة تحقيقاً لمهمته على الوجه الأكمل. فأقره كسرى على ما طلب. وكان بابك يعرض الجند فى

كل أربعة أشهر ، ويأخذهم بالشدة إذا بدا من أحدهم تقصير، ويحاسب المدربين الذين يدربون الرجال على الفروسية والرمى حساباً عسيراً . واتخذ له فى ميدان العرض منصة مرتفعة يشرف منها على الجند . وكان قد أراد عرض الجند فى إحدى المرات فكلف مناديه ان ينادى « لا يبقين أحد من المقاتلة إلا حضر للعرض » فاجتمع الجند وعرضهم بابك لكنه لم يجد بينهم كسرى ، فصرفهم وأعاد عرضهم فى اليوم التالى بعد أن كلف مناديه أن ينادى « أيها الناس لا يتخلفن من المقاتلة أحد ولا من أكرم بالتاج والسرير فإنه عرض لارخصة فيه ولا محاباة » وبلغ كسرى مايريده بابك فلبس سلاحه واشترك مع الجند فى العرض عن طيب خاطر ولكن اسلحته لم تكن كاملة فعاد واستكمل ما نقص منها ومر أمام بابك فى العرض من جديد فأجازه كما أجاز غيره من الجند وإن كان ميزه بدرهم واحد ، فقد بلغ أكبر مبلغ أعطى أربعة آلاف درهم وأمر هو لكسرى بأربعة آلاف درهم ودرهم [1] .

وكان الجند يعرضون أيضاً قبل المعارك للوثوق من حسن تدريبهم واستكمال عددهم وعُددهم . وعندما تتجمع الجيوش يقوم العارض بالاشتراك مع الملك أو القائد بعرض الجيش واعداد الجند وتعيين مكان كل واحد منهم فى المعركة .

وكذلك كانوا يعرضون بعد الحرب لمعرفة عدد القتلى والأسرى وتقسيم الغنائم على الباقين . وكان الملك إذا جلس للعرض أعدوا له تختاً من الفيروزج

---

(١) الأخبار الطوال : ص ٧٢ ط السعادة

فوق فيل ليشرف على الجند [١].

الاستعداد للحرب :

وكانت إذا ظهرت بوادر الحرب أرسل الملك السفراء إلى العدوحتى يقيم عليه الحجة ويلزمه المسئولية . وكان العدو إذا اقتنع بما يحمله إليه السفير تم الصلح وحسمت مادة النزاع . وإذا لم يقتنع فهى الحرب. وكانوا يختارون السفراء والرسل اختيارا دقيقاً سيأتى ذكره فى موضعه من البحث .

وكان من علاماتهم فى الاستعداد للحرب أن يرتقى الملك الفيل ، وأن يحرك الصدفة فى الجام ، وأن يأمر بدق الطبول ، ونصب الخيام والسرادقات فى الميدان . وعند ذاك يجتمع إليه الجنود من كل مكان فيرتفع غبار الخيل حتى يعتكر الجو ، ويتحفز أبطال الجيش للوثوب والقتال كأنهم النمور [٢].

وكان من عادتهم المبارزة قبل القتال فيخرج بطل من أحد الجيشين منادياً هل من مبارز فيتقدم له غريم من جيش عدوه لمبارزته فاذا فرغوا من المبارزة تراموا بالنبال ثم تطاعنوا بالرماح ثم تقارعوا بالسيوف ، وتضاربوا بالأعمدة وينتهى الأمر بينهم إلى التشابك والتلاحم [٣].

تنظيم الجيوش :

كان الفرس يعنون بتنظيم الجيوش قبل بدء القتال فكان القائد يدعو إليه

---

(١) الشاهنامه : ص ١٢٧٧ ج ٥

(٢) نفس المصدر والجزء : ص ١١٤٦

(٣) الغرر : ص ٥٧

الأبطال ويعهد إلى كل منهم بمهمته فى الحرب . وكان الجيش يقسم عادة خمسة أقسام الميمنة ، الميسرة ، القلب ، الطلائع ، الساقة أو مؤخر الجيش .

وكانت مهمة الطلائع أن يستكشفوا الطريق وأن يهدوه أمام الجيش فيتحققوا من خلوه من الكمائن والعقبات . وإذا شاهدوا مقدم جيش الأعداء عن بعد أبلغوا ذلك على جناح السرعة إلى قائد الجيش حتى يستعد للقاء فلا يفاجأ .

وكانت مهمة الساقة أو المؤخرة أن تحمى ظهر الجيش فلا يباغته عدوه من الخلف بما يؤدى إلى اضطرابه وتبدد شمله .

وكان اختيار الموقع أمراً مهما كما فعل جودرز (گودرز) فى حربه مع الاتراك بقيادة قائدهم پيران فإنه أى گودرز قد اختار لنفسه مكانا حصينا يرتفع الجبل على يمينه ويمتد الماء على يساره .(١) وعندماحان وقت القتال قدم المشاه المزودين بالحراب والدروع والسهام النافذة التى تخرق الحديد والأقواس، وجعل خلفهم الفرسان ثم رتب وراءهم الفيلة الشامخة كالجبال التى تضطرب الأرض من وقع أقدامها.ونصب العلم الجاوى (گاويانى) المبارك بين الجند(٢) وجعل فريبرز على الميمنه ووجه رهام مع فرسانه إلى الميسره ووكل حماية ظهر الجيش إلى جيو (گيو) . وكلف ثلاثمائه فارس ومعهم علمهم بحفظ جانب الجيش من ناحية الماء ، وكلف مثل هذا العدد من الفرسان بحماية جانب الجيش من ناحية الجبل . ووضع على قلة الجبل ديدبانا . وبعد أن أعد جودرز

---

(١) الشاهنامه : ص ١١٥٥ ج ٥

(٢) الشاهنامه : ص ١١٥٦ ج ٥

(گودرز) جيشه هذا الإعداد اتخذ مكانه فى القلب عند العلم [١] . ودعا اليه رؤساء الجيش فجعل شيدوش خلفه وفرهاد أمامه .[٢]

ويذكر الثعالبي فى حديثه عن الحرب بين بهرام وملك الترك شابه أن بهرام قد عبأ عسكره أحسن تعبئة. وأنه نظم جيشه فجعل الرجالة فى المقدمة ووراءهم الفيلة ووزع الجند على الميمنة والميسره وكلف فريقا من الأبطال بمراقبة الجند لسد الطريق على من ينهزم أو يحاول الفرار .[٣]

أقسام الجند :

كان الجند ينقسمون قسمين أساسيين : الفرسان والمشاة .

وكان للفرسان فى عهد الساسانيين المقام الأول . وكان الفتح والظفر فى الحروب منوطا بقوة هؤلاء الفرسان وشجاعتهم . وكان هؤلاء الفرسان ينظمون صفوفهم ويخرجون جماعات لمقاتلة الروم مزودين بكامل أسلحتهم محتمين بدروعهم البراقة . ولم يكن الفارس يترك شيئا من جسمه دون حماية حتى كانت أجسام الفرسان تغطى كلها بصفائح الحديد فإذا تحرك الفارس فكأنما هو قطعة من الحديد تتحرك . وكانت هذه الدروع والصفائح تصنع وفق أعضاء الجسم بدقة تامة فلا تعوق حركة أى عضو من أعضائه . ولم يكن الوجه يترك عاريا إذ كانوا يستعملون له نقابا فى سبيل المحافظة عليه. ولهذه الوقاية السابغة

---

(١) الشاهنامه : ص ١١٥٧ ج ٥

(٢) الشاهنامه : ص ١١٥٨ ج ٥

(٣) الغرر : ص ٦٤٦

لم يكن من السهل نفاذ السهام إلى جسم الفارس لأنه مغطى كله بما يقيه فيما عدا فتحتين صغيرتين للعينين ومثلها لفتحتى الأنف . وقد عرف العرب عن الفرس هذا التسلح الكامل فكانوا يتوخون العيون ، وكانوا إذا التقوا بالفرس أشرعوا الرماح وسددوها إلى عيونهم [١] . وهذا بالطبع لأنهم كانوا يتسلحون بسلاح كامل فلا تبدو من اجسامهم سوى عيونهم .

وكما كان الأمر فى عهد الهخامنشيين كانت هناك أيضا فى عهد الساسانيين هيئة مشكلة من الفرسان يسمونها هيئة الخالدين . وتتألف هذه الهيئة من عشرة آلاف فارس يلقب رئيسهم بلقب « ورهر نيكان خوداى » . ويجوز أن يكون قد وجد إلى جانب هؤلاء هيئة أخرى اطلق عليها اسم « چان سپار » (الفدائيون) نظراً لشجاعتهم واقدامهم على الموت فى غير مبالاة .

وكان هناك الفيالة وهم الذين يركبون الفيلة فى الحروب .

وتتكون مؤخرة الجيش من المشاه (پا يگان) ويقال لرئيسهم پايگان سالار . ولم تكن الدولة توجه عناية كبيرة إلى هذا القسم من الجند . وكان هؤلاء المشاه من الفلاحين الذين يشتركون فى الحروب تطوعاً دون أن ينتظروا جزاء ولا أجراً . ولم تكن أسلحتهم على درجة من الجودة والصلاحية . ومن ثم فإن هذا القسم من الجند لم يكن على درجة طيبة من الكفاءة والمهارة وكان جوليان قيصر الروم يغرى جنوده فى ميدان القتال بهؤلاء الفلاحين الذين تسهل هزيمتهم فيسرعون إلى الفرار وينشرون الاضطراب فى صفوف الجيش [٢]

---

(١) الطبرى : ص ١٢٠ ج ٣ ط الاستقامه ١٩٣٩

(٢) كريستنسن : إيران در زمان ساسانيان الترجمة الفارسية لرشيد ياسمى ص ١٣٧

وهؤلاء الجنود المتطوعون الذين كانوا يلحقون بالجيوش الفارسية النظامية أيام الحرب كانوا معروفين أيضاً فى العصور الاسلامية . ففى حرب الأفشين مع بابك الخرمى أخذ الافشين يتلبث ويتمهل قبل أن يناجز بابك الحرب. ولم يكن استعداد هؤلاء المتطوعين كافيا سواء أكان ذلك فى أسلحتهم أو أقواتهم فتضايقوا من إطالة الوقت وشكوا إلى الأفشين الضيق فى العلوفة والأزواد والنفقات . ولكن الأفشين لم يكترث لشكواهم وقال لهم من أراد أن يبقى فليصبر ومن لم يصبر فالطريق واسع . وكان اعتماده على جند أمير المؤمنين النظاميين . [1]

ومن هذا يتبين أن هذا القسم من الجند ، قسم المتطوعين ، لم يكن له شأن كبير فى الحروب الايرانية قبل الاسلام ، وفى الحروب الاسلامية .

وكان الملك يعين قائد الجيش (الاصبهبد) وكثيرا ما كان الملوك يتولون بأنفسهم قيادة الجيوش. وفى الحروب التى يشترك فيها الملك بنفسه كانوا ينصبون له فى وسط الجيش عرشا عظيما يحيط به عدد من الجند والقادة للذود عنه . ومكان القائد فى قلب الجيش وهو الذى يحمل العلم الجاوى (گاويانى) ويطيعه سائر القواد والرؤساء .

وكان كسرى انو شروان قد جعل على الجيش أربعة قواد لكل واحد منهم الإشراف على ربع المملكة . فكان قائد الشرق يشرف على خراسان وسجستان وكرمان ، وكان قائد المغرب يحكم العراق حتى حدود الدولة البيزنطية

---

(١) الطبرى : ص ٢٤٨ ج ٧

وكان اصبهبد الشمال يحكم ممالك ماد الكبرى وآذر بيجان ، وكان قائد الجنوب يتولى أمر فارس وخوزستان .

وهناك إلى جانب هؤلاء الجند الرقباء الذين ينتشرون فى اطراف الجيش حتى لايفر أحد .

والديدبان الذى يقف فوق الجبال أو المرتفعات للمراقبة .

والجاسوس ومهمته معروفة .

العلم :

وكان لكل واحدمن أبطال ايران علم.ولكن أهم أعلام الجيش الايرانى هو العلم الجاوى (گاويانى) الذى هو علم الجيش كله . ويكون هذا العلم مع قائد الجيش فى القلب . وترجع قصة هذا العلم الجاوى إلى عهد الضحاك . ذلك أن الضحاك حين تمادى فى الضلال وأمعن فى البطش والعدوان ثار عليه الناس بقيادة حداد اسمه جاوه (گاوه) كان الضحاك قد قتل أحد ولديه وهم بقتل ولده الآخر . وتبع جاوه فى ثورته خلق كثير . وكان فى تزعمه لهذه الثورة قد رفع عصاربط فوقها جلدة الحدادة التى يستعملها الحدادون لتقيهم الشرر ، فكانت بذلك تشبه العلم . وسمى هذا العلم العلم الجاوى نسبة إلى جاوه هذا .

ونادى الثائرون بسقوط الضحاك ، وتمليك أفريدون . وقبل أفريدون الملك وحارب الضحاك حتى هزمه وتولى الملك بعده . وصادف يوم توليه العرش اليوم الأول من شهر مهر فاحتفل به احتفالا عظيما وصار ذلك اليوم عيدا من أعياد الفرس هو المعروف بعيد المهرجان .

وكان ملوك الفرس يتيمنون بهذا العلم ويعتبرونه فأل خير وظفر ويتوارثونه فيما بينهم . وقد ورد ذكر العلم الجاوى هذا فى بعض الأشعار العربية . من ذلك قول المتوكلى ، وكان من كتاب المتوكل وندمائه ثم كره بعد المتوكل صحبة أبنائه فتركهم ولحق بيعقوب بن الليث ، فى قصيدة يفخر فيها بالعجم على العرب مطلعها :

أنا ابن الأكارم من نسل جم   وحائز إرث ملوك العجم

إلى أن يقول :

معى علم الكائنات الذى   به ارتجى أن أسود الأمم(١)

والكائنات هنا تصحيف وصحتها الكاويان . وتذكر فى بعض المصادر العربية الكابيان محرفة عن الأصل الفارسى گاويان .

ويذكر الثعالبى فى حديثه عن هذا العلم أن أفريدون لما ظفر بالضحاك واستولى على الملك دعا بجلدة جاوة فأمر بنسجها بالذهب وترصيعها بالجواهر وكان يتيمن بها فى الحروب . وكان هذا العلم فألا طيبا له ولمن بعده من الملوك ولهذا كانوا يتبركون به ويتسابقون إلى الزيادة فيه وتجميله بمختلف الجواهر وكان لا يحمله فى الحروب إلا المقدم والرئيس المعظم من قوادهم ، فاذا انتهت الحرب ردوه إلى الخازن المكلف بحفظه (٢) وظل الفرس يحتفظون بهذا العلم حتى كانت حرب القادسية بينهم وبين العرب . وفيها قتل رستم قائد الفرس

---

(١) معجم الادباء : ص ١٨ ج ٢ ط مصر

(٢) الغرر : ص ٣٨

ووقع العلم فى يد ضرار بن الخطاب الفهرى فعوض عنه ثلاثين ألفا وكانت قيمته ألف ألف ومائتى ألف [١] ويقال إن عمر رضى الله عنه أمر بحله وفتقه وتقسيمه بين المسلمين .

وكان لهذا العلم معنى رمزى عظيم عند الجنود الإيرانيين فالجيش بخير ما ظل هذا العلم خفاقا فإذا سقط فمعنى هذا الهزيمة والانكسار . ولذلك كانوا يحرصون على أن يبقى مرفوعاً دائماً ولا يتأخرون عن تفديته بكل غال عندهم لكى يحفظوه من كل سوء . وتروى الشاهنامه أن فريبرز لما انهزم فى الحرب أمام الأتراك بقيادة قائدهم پيران هرب من مكانه إلى الجبل ومعه العلم . فلما التفت الجند والقواد ولم يروا العلم فى مكانه علموا أنها الهزيمة وهموا بالفرار . وخشى جودرز (گودرز) على جيشه الهزيمة فأمر بيژن أن يذهب إلى فريبرز ويسترد منه العلم ليثبت الجند فى الميدان ويعود إليهم الأمل فى الانتصار . ولكن فريبرز لم يرجع مع بيژن ولم يسلم إليه العلم فغلى الدم فى عروق بيژن وضرب بسيفه العلم الجاوى ضربة شقته نصفين فأخذ نصفاً وعاد به مسرعاً إلى الميدان فلما رأى ذلك پيران أراد أن يحول بين بيژن وبين العودة بالعلم إلى الإيرانيين وكلف بعض أتباعه بانتزاعه منه . لكن الإيرانيين حين رأوا ذلك تكاثروا حول بيژن وحموا علمهم من الوقوع فى يد الأتراك وبذلك عاد العلم يخفق بين صفوف الإيرانيين فقويت روحهم المعنوية وعاودوا القتال [٢] .

---

(١) الطبرى : ص ٦٩ ج ٣

(٢) الشاهنامه : ص ٨٥٥ ج ٣

وكما قلنا من قبل كان لكل واحد من أبطال الإيرانيين والقادة ، إلى جانب العلم الجاوى العام ، علمه الخاص الذى يتميز بلون خاص وعليه صورة أحد الحيوانات كالفيل أو الأسد أو العقاب .

أساليب الحرب :

للحرب فى الشاهنامه مظهران ، الحرب فى مظهرها الفردى وهى حرب الفرد للفرد ، أو المبارزة ، والحرب فى شكلها الجماعى المعروف الذى تتلاحم فيه الجيوش المتحاربة .

المبارزة :

والحرب الفردية أو المبارزة تكثر فى الشاهنامه بشكل واضح . وتقع هذه المبارزة غالباً قبل تلاحم الجيوش .

ومن أمثلة هذه المبارزات تلك المبارزة التى جرت بين شيده بن افراسياب والملك كيخسرو ، فإن افراسياب قد تقدم لحرب كيخسرو فى جيش عظيم وأراد أن يتفاهم معه عسى ان ينتهى الأمر بينهما صلحاً ولكن الإيرانيين صمموا على القتال. وجاء دور المبارزة الذى يسبق القتال فخرج شيده بن افراسياب مبارزاً وتقدم لمبارزته من الجانب الإيرانى كيخسرو نفسه . وركب كل من المتبارزين فرسه ، واستكمل سلاحه وعدته ، وتبعه أحد أعوانه يحمل له العلم. وقد اتفق المتبارزان على أن يختارا للمبارزة مكانا بعيداً عن الجيوش وألا يتعرض المنتصر منهما لتابع غريمه بالسوء . وذهبا إلى مكان قفر وأخذا فى القتال واشتد الأمر بينهما حتى بلغ من حدته أن تقصفت رماحهما فلجآ إلى العمد والسيوف . ولما لم يستطع شيده أن يقهر غريمه كيخسرو علم أنه يستمد

هذه القوة من السعادة السماوية وفكر فى أن يلجأ إلى أسلوب آخر عسى أن يكون فيه المخرج من هذا المأزق، فدعا الملك كيخسرو إلى الترجل والمصارعة فامتنع كيخسرو فى أول الأمر لأنه رأى المبارزة مترجلا عملا لا يليق بالملوك فضلا عن أن السوابق لم تجربه ، ولكنه فى آخر الأمر أجاب شيده إلى مادعاه إليه وترجل عن فرسه بعد أن أسلم زمامه إلى تابعه رهام . وهجم على شيده هجوم الأسد الضارى على حمار الوحش وأخذ يتقاذفه بيديه ثم ضرب به الأرض ضربة كسرت فقار ظهره واستل سيفاً حاداً من وسطه مزق به قلبه . وبذلك قضى عليه وأوصى رهام أن يقيم له ناووساً يدفن فيه كما هى العادة عند دفن الملوك إكراماً لشيده فإنه كان خال كيخسرو . وعاد تابع شيده حاسر الرأس متنفخ العين من كثرة البكاء ونعاه إلى قومه فأظلمت الدنيا فى عين افراسياب لفجيعته فى ابنه شيده وصار ينتف شعره ويحثو التراب على رأسه (١) .

ومن أشهر قصص المبارزات فى الشاهنامه قصة الاثنى عشر رخا (٢) وهى من قصص الشاهنامه الممتعة . ففى إحدى الحروب التى دارت بين التورانيين والإيرانيين وجه افراسياب جيشاً عظيم بقيادة پيران لقتال الإيرانيين وأمره أن يسرف فى القتل والنهب ، وألا يقبل من أحد حديثاً فى صلح أو سلم . فلما

---

(١) الشاهنامة : ص ١٣٠٢ ج ٥ .

(٢) رخ لها اكثر من معنى فقد تكون بمعنى الوجه ، والطائر الخرافى الكبير المعروف بهذا الاسم ، وتطلق هذه الكلمة مجازيا على المحارب والبطل تشبيهها له بطائر الرخ فى القوة وعظم الجثة .

بلغ ذلك كيخسرو جمع إليه أعيان مملكته وشاورهم فى الأمر فاستقر الرأى بينهم على الاستعداد وإعلان التعبئة العامة للجهاد . واختار لقيادة جيشه جودرز بن كشواذ . وقد أحسن جودرز (گودرز) اختيار موقعه فى المعركة فجعل الجبل على يمينه والماء على يساره وبذلك صار من الصعب على پيران أن يفجأه من يمين أو يسار . وقد ضايق پيران ما رأى عليه الإيرانيون من حسن التنظيم ودقة الترتيب فاضطر إلى إعادة تنظيم جيشه ليواجه الموقف . وبقى كل فريق متربصاً بصاحبه . وأطال پيران المكث والتلبث وكان قصده أن يضجر الأيرانيون أو تنفد أقواتهم فيتحركوا من مكانهم الحصين فيسهل عليه بعد ذلك أن يحيط بهم ويقضى عليهم .

وبينما كانت الجيوش تتربص وتنتظر تقدم هومان من قواد پيران فى صلف وغرور إلى معسكر گودرز بطلب فارساً ينازله أو بطلا يبارزه فتقدم له من المعسكر الإيرانى بيژن . واتفقا على أن يبعدا عن جيشيهما حتى لا يأتى لنصرتهما أحد من التورانيين أو الايرانيين . واختارا مكاناً قفرا فى الصحراء لا يرى فيه أثر لإنسان ولا يطير فى سمائه طير . وتعاهدا ألا يتعرض الظافر منهما بالأذى لحامل راية غريمه . ثم بدآ المبارزة فتراميا بالسهام حتى نفذ ما كان معهما فعمدا إلى الرماح والحراب حتى إذا تكسرت الرماح استعملا السيوف . ولما لم تجد السيوف رفعا العمد وظلا يتضاربان ويتقاتلان حتى جفت حلوقهما من العطش وغرقا فى العرق من شدة الحر والتعب ، فاستراحا برهة وجيزة قصدا فى خلالها إلى عين ماء للشرب وانتهز بيژن الفرصة فضرع إلى ربه الذى يعلم ما خفى من أمره وما ظهر ودعاه أن ينصره على خصمه . ثم عاودا بعد ذلك القتال ، وما زالا يتقاتلان حتى تمكن بيژن من عدوه

من التورانيين رويين . وبينما هما يتبارزان فاجأه بيژن بضربة من عموده دقت عظامه وألقته على الأرض فنزل اليه وفصل بالسيف رأسه عن الجسد ، وربطه إلى فرسه وأسرع عائدا يخفق عليه علم النصر . (١)

وكان سابع المتبارزين من الايرانيين هجير بن گودرز الذى بارز من التورانيين سپهرم . وكان سپهرم هذا من أقارب افراسياب ومن ذوى المكانة بين التورانيين. وعندما بلغا مكان المبارزة تضاربا بالسيوف واشتد تضاربهما حتى كان الشرر يتطاير من حديد السيوف . وتقدم هجير من خصمه كالأسد ودعا الله وتيمن بسعد الملك وضرب خصمه بالسيف على رأسه ضربة كانت القاضية فسقط عن فرسه غارقا فى دمه . ونزل هجير البطل السعيد فرفعه عن الأرض وقيده إلى سرج فرسه ثم اعتلاه وأرخى له العنان . (٢)

وكانت الجولة الثامنة بين جرجين (گرگين) الايرانى واندريمان التورانى وكان كل منهما رجلا مجربا وبطلا محنكا فلما بلغا مكان الموقعة تراميا بالحراب والسهام حتى كانت كالمطر إلى أن رمى جرجين سهما أصاب من أندريمان الرأس فاضطرب من شدة الألم وعاجله جرجين بسهم آخر أزهق روحه فخر من فوق فرسه فنزل اليه جرجين وفصل رأسه وعاد إلى معسكره (٣).

ثم جاءت الجولة التاسعة بين برته أحد فرسان الايرانيين وكهرم أحد فرسان التورانيين . وأخذ الفارسان يتضاربان حتى حانت الفرصة لبرته

---

(١) الشاهنامه : ص ١٢٣٨ ج ٥
(٢) الشاهنامه : ص ١٢٣٩ ج ٥
(٣) الشاهنامه : ص ١٢٤٠ ج ٥

فضرب خصمه بالسيف ضربة شقت صدره ثم حمله معه بعد أن أسلم الروح وعاد إلى معسكره شاهرا سيفه صائحا صيحة النصر .(١)

وفى الجولة العاشرة تبارز زنگه بن شاوران مع اخواست . وقد طالت بينهما المبارزة حتى أعياهما التعب وأضناهما العطش فاستراحا فترة من الزمان وشربا ثم عاودا بعد ذلك القتال فراش زنگه سهما أصاب أخواست فانقلب عن حصانه إلى الأرض وتبعه زنگه بسهم آخر حتى أجهز عليه وعلقه فى سرج فرسه وعاد مختالا إلى قومه .(٢)

عند ذاك لم يبق للمبارزة سوى البطلين الكبيرين جودرز (گودرز) قائد الايرانيين وپيران قائد التورانيين. وقد استعد كل منهما لهذه الجولة بكل مالديه من أسلحة وآلات كالسيف والخنجر والعمود والوهق والسهم . وبعد فترة من القتال صوب گودرز سهما أصاب فرس پيران فاضطرب وسقط وسقط تحته پيران، وانكسرت يده اليمنى من ثقل الحصان ثم نهض بعد ذلك ولم يكن أمامه بعد أن انكسرت يده سوى الهروب . وكان هروبه إلى جبل قائم هناك ظن أنه يعصمه. فلما رأى گودرز ذلك بكى وذكر حال الدنيا التى لا تدوم على حال واحدة وأنها إن أعزت أذلت ، وإن وصلت جفت. وصاح فى پيران أن يقف وأن يطلب الأمان حفظا على حياته . ولكن پيران رفض هذا العرض وعز عليه أن ينتهى أمره إلى هذه النهاية الذليلة وفضل أن يختم حياته ختاماً مشرفاً

---

(١) الشاهنامه : ص ١٢٤١ ج ٥

(٢) الشاهنامه : ص ١٢٤١ ج ٥

كالأبطال فى ساحات القتال فنزل گودرز عن فرسه وتبع پيران الذى أعد نفسه لمواصلة القتال وبينما كان گودرز يرتقى الجبل استدار اليه پيران ورماه بحربة كانت معه فأصابه فى عضده فاستشاط گودرز غضبا وفوق اليه سهما حطم مجنه ونفذ من ظهره إلى كبده فوقع يتخبط فى دمه ويتقلب فى التراب . ولما وصل اليه گودرز غرف من دمه غرفة شربها تشفيا منه وأراد أن يحتز رأسه لكنه عدل رحمة به وإشفاقا . وأراد أن يكرمه فى ميتته فرفع علمه عند رأسه ليقى وجهه حرارة الشمس القائظة فى تلك الصحراء . وعاد بعد ذلك إلى معسكره والدم يسيل من عضده الدامى كما تسيل المياه فى مجاريها . وكان الايرانيون حين أبطأ عليهم گودرز قد توهموا أنه أصيب وأخذوا يبكونه وينتحبون فلما رأوا علمه مرفوعا من بعيد فرحوا ودقوا الطبول حتى ارتفع صوتها إلى عنان السماء . ولما وصل اليهم گودرز التفوا حوله متهللين ضاحكين .(١)

الحرب الجماعية :

أما الحرب الجماعية التى يشترك فيها الجيش كله فأمرها معروف . وكانت الجيوش تنظم إلى ميامن ومياسر ، وقلب ، وطليعة ، وساقة . ويأخذ كل جندى مكانه استعداداً لأداء واجبه. وعند ذاك تدق الطبول ، وينفخ فى النفير ، فيكون ذلك إيذاناً ببدء القتال .

* * *

وكانت لهم فى حروبهم أساليب كثيرة منها استخدام عنصر المفاجأة والسير الصامت ونعنى به أن يسير الجيش فى صمت وسكون فلا تسمع له

---

(١) الشاهنامه : ص ١٢٤٢ ج ٥

جلبة ، ولا تدق طبول ، ولا يصدر من الجنود صوت ينبه الأعداء إلى اقترابهم . من ذلك ما فعله پيران فى إحدى حروبه مع الإيرانيين إذ جاءته الرسل والجواسيس بأنهم منصرفون عن الاستعداد متفرغون للهو والشراب لا تفارق الكأس أيديهم فى ليل أو نهار فانتهز هذه الفرصة واختار من جيشه ثلاثين ألف فارس سار بهم سيرا صامتا فى منتصف الليل فبغتوا الايرانيين فى مكانهم وأوقعوا بهم .(١)

* * *

وكانوا يعمدون إلى التخذيل بين المتحالفين من أعدائهم حتى يسهل القضاء على كل عدو على حدة . من ذلك ما حدث فى الواقعه المعروفة بواقعة الاثنى عشر رخا (يازده رخ) التى أشرنا اليها فيما سبق فان التورانيين قد نظموا صفوفهم وأعدوا جيوشهم لقتال الايرانيين وتولى شيده بن أفراسياب قيادة جانب من هذه الجيوش وتولى پيران قيادة الجانب الآخر ففكر كيخسرو أن يخذل بينهم ويفرق وحدتهم فأوصى گودرز أن يحاول قبل القتال استمالة پيران اليه وصرفه عن القتال فانه إن نجح فى هذا كان خليقا أن يهزم الجيوش الأخرى التى يقودها شيده فى سهولة .

* * *

ومن حيلهم فى القتال أن يستدرجوا عدوهم بعيدا عن جيشه كما حدث فى الحرب بين پيران وگيو إذ كان النهر يفصل بينهما وأراد گيو أن يظفر بپيران

---

(١) الشاهنامه : ص ٨٤٠ ج ٣

وبذلك يتبدد شمل جيشه فأخذ يعيره بأنه لا يستطيع القتال إلا بين جنده فغضب پيران وعبر النهر إلى گيو ليثبت له شجاعته ويريه عاقبة الإساءة اليه وبعد أن تقاتلا فترة تظاهر گيو بالانهزام وهرب أمامه . وكان قصده من هذا أن يستدرج پيران وراءه بعيداً عن جنده . وقد كان له ما أراد إذ انخدع پيران بهذه الحيلة وأخذ يتبعه حتى بعد عن جيشه فاستدار له گيو وقاتله حتى هزمه وأسره .

* * *

وكانوا يعمدون إلى التبييت أو المبايتة وهى الهجوم على الأعداء وقت المبيت أى بالليل . ومع أن العرف جرى فى ذلك العهد على أن يكون القتال نهاراً فاذا جاء الليل استراح الجيشان المتقاتلان إلا أن هذا لم يمنع الجيوش المتحاربة فى ذلك الزمان من أن تلجأ إلى هذا الاسلوب من أساليب الحرب . وهو بهذا أسلوب من القتال يخرج عما جرى به العرف وقتذاك . وكان يعتبر نوعا من الاحتيال أو السرقة . وقد روى عن الاسكندر أنه لما أشير عليه بتبييت الفرس فى إحدى حروبه معهم قال لا أجعل غلبتى سرقة . (١)

وفيما نقله ابن قتيبه أنه ينبغى للبيتين أن ينتهزوا فرصة هبوب الريح ، أو خرير نهر قريب من الأعداء لتبييتهم فإن صوت الريح وخرير الماء يساعدان الجيش المهاجم فلا يسمع له صوت أو جلبة ، وأن يكون هجومهم فى منتصف الليل أو إذا اشتد الظلام. ومن الأساليب البديعة التى يلزم أن تتخذ أن يكلف

---

(١) نهاية الأرب : ص ٨ ج ٦ ط . دار الكتب سنة ١٩٢٦

المبيتون جماعة من جندهم ليتسللوا إلى معسكر العدو بحيث ينتهون إلى وسطه وأن يحيط بقية الجند بالمعسكر من الخارج . وعلى الذين توسطوا صفوف الأعداء أن يبدءوا المعركة لأن العدو إذا سمع ضجة القتال فى قلب المعسكر توهم أن عدوه استطاع أن يخترق صفوفه حتى يبلغ قلبه فتهن بذلك عزيمته على القتال وتضعف روحه المعنوية .

ومما يجب على المبيتين كذلك أن يثيروا الاضطراب فى صفوف الأعداء قبل الموقعة . ومن أساليب إثارة الاضطراب إهاجة الدواب والحيوان بأن تقطع أرسانها وتهمز بالرماح فى أعجازها فتنطلق بذلك هائجة متحيرة مما ينشر الفوضى والاضطراب ويثير الرعب .

ومن أساليب المبيتين فى هذا المجال التى تفت فى عضد العدو أن يهتف هاتف ويقول يامعشر أهل العسكر النجاة . النجاة ، فقد قتل قائدكم فلان، وأسر فلان وهرب فلان . أو أن يرتمى أحد الجنود من المبيتين بين صفوف العدو ويتأوه ويتوجع كأنه جندى من العسكر قد أصيب مما يحدث أثراً نفسيا سيئاً بين جند الأعداء.(١)

* * *

ومن سياسة بعض القواد فى الحروب ألا يسرع إلى الهجوم والقتال إذا تقابل الجيشان حتى يعتاد جيشه رؤية الأعداء فتقل هيبتهم عنده ويصبح لقاؤهم مألوفا فيقبل الجيش بعد ذلك على القتال مطمئناً .

* * *

---

(١) عيون الأخبار : ص ١١٤ ج ١ ط . دار الكتب سنة ١٩٢٥ .

ومن الأمور التى يجب على صاحب الجيش أن يرعاها فى الحرب أن يستدبر جنده عين الشمس والريح ، وأن يحافظ على أرواح جنده ما أمكن فلا يدفعهم إلى القتال لغير ضرورة قصوى لامفر معها من القتال .

ومما نقله ابن قتيبه عن الآيين أن الجند إذا كانوا قد نزلوا على ماء وأراد العدو أن ينالوا من الماء فليس من الرأى أن يحال بينهم وبينه لئلا يحوجوا إلى الجد فى محاربتهم . وإن كان العدو قد نزلوا بماء وأراد الجند غلبتهم عليه فإن وقت ذلك عند رى العدو من الماء وسقيهم دوابهم منه وعند حاجة الجند اليه فإن أسلس مايكون الانسان عن الشىء عند استغنائه عنه وأشد ما يكون طلبا للشىء عند حاجته اليه .

ويتابع ابن قتيبه كلامه نقلا عن الآيين فيقول : « ولتسر الطلائع فى قرار من الأرض ويقفوا على التلاع ولايجوزوا أرضا لم يستقصوا خبرها . وليكمن الكمين فى الخمر والأماكن الخفية وليطرح الحسك فى المواضع التى يتخوف فيها البيات .

وليحترس صاحب الجيش من انتشار الخبر عنـــه فإن فى انتشاره فساد العسكر وانتقاضه .

وإذا كان اكثر من فى الجند من المقاتلة مجربين ذوى حنكة وبأس فبدار العدو الجند إلى الوقعة خير للجند وإذا كان أكثرهم أغمارا ولم يكن من القتال بد فبدار الجند إلى مقاتلة العدو أفضل للجند .

وليس ينبغى للجند أن يقاتلوا عدواً إلا أن تكون عدتهم أربعة أضعاف

عدة العدو أو ثلاثة أضعافهم فإن غزاهم عدوهم لزمهم أن يقاتلوهم بعد أن يزيدوا على عدد العدو مثل نصف عدتهم. وإن توسط العدو بلادهم لزمهم أن يقاتلوهم وإن كانوا أقل منهم.

وينبغى أن ينتخب للكمين من الجند أهل جرأة وشجاعة وتيقظ وصرامة وليس بهم أنين ولا سعال ولا عطاس ويختار لهم من الدواب ما لا يصهل ولا ينهت. ويختار لكمونهم مواضع لا تغشى ولا تؤتى قريبة من الماء حتى ينالوا منه إن طال مكثهم وأن يكون إقدامهم بعد الروية والتشاور والثقة بإصابة الفرصة ولا يخيفوا سباعاً ولا طيراً ولا وحشاً ... الخ. (١) »

* * *

وكان أردشير يوصى صاحب جيشه أن يتفقد العسكر بنفسه وأن يفرق الطلائع إلى مسافة أربعة أميال، وأن يهتم بتقوية الروح المعنوية بين جنده وذلك بأن يعدهم ويمنيهم ويصغر فى عيونهم أعداءهم. وكان يوصيه أيضاً بأن يوجه ميمنة جيشه لحرب ميسرة الأعداء، وميسرة جيشه لحرب ميمنة الأعداء وأن يكون الجند كلهم فى الحرب قلباً واحداً، وأن يثبت قلب الجيش فى مكانه فلا يتحرك إلا إذا تحرك قلب الأعداء. وإذا انتصر فى القتال فعليه أن يكف عن إراقة الدماء وإذا ولى عدوه فراراً فلا يغتر بذلك وينشغل عنه ويهمل اليقظة الواجبة (٢).

* * *

---

(١) عيون الأخبار : ص ١١٣ ج ١

(٢) الشاهنامه : ص ١٩٨٤ ج ٧

وكان من أساليب الفرس فى حروبهم حفر الخنادق ويقال إن منوچهر أول من خندق الخنادق . وقد عرف المسلمون حفر الخنادق فى غزوتهم المعروفة بغزوة الخندق فى السنة الخامسة للهجرة . وكان الذى أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق سلمان الفارسى ، وقد قال له « يارسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا » فأخــذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشورته وعمل مع العاملين فى حفر الخندق ترغيباً للمسلمين فى الأجر (١) .

* * *

ومما برع فيه الفرس فى الحروب محاصرة القلاع والحصون والاستيلاء عليها. وكان للساسانيين مهارة تذكر فى هذا الشأن والساسانيون وخاصة فى العهد الأخير كانوا اذا وجهوا همتهم لفتح قلعة مهمة لم يستعص عليهم فتحها . وكانت طريقتهم أن يحفروا أرضا منخفضة ثم يتقدموا منها الى خندق المدينة فيملأوه بالتراب والعلف ثم يعملوا أدواتهم فى الجدار حتى يفتحوا فيه منفذا ينفذون منه الى المدينة أو يبنوا أبراجا متحركة قرب الجدار ويحطموا استحكامات العدو بالمجانيق . وكانت لهم أسلحة خاصة بحرب القلاع وفتح الحصون كالمنجنيق والحجارة والقوارير ومزج الأخشاب بالنفط واشـعالها والقائها ليلا على القلاع المحاصرة .

ومما ينبغى الأخذ به فى محاصرة الحصون ما يذكره ابن قتيبة من استمالة من يستطاع استمالتهم من أهل الحصن والمدينة فى استمالة هؤلاء فوائد منهـا أن يعرف المهاجمون أسرار أهل الحصن وأن يتخذوهم وسيلة لإخافة المتحصنين

---

(١) الطبرى : ص ٢٣٤ ج ٢

وإضعاف روحهم المعنوية .

واصطناع الحيلة أمر مهم فى فتح القلاع والحصون . من ذلك أن يحتال المهاجمون حتى يصل بعض رجالهم الى داخل الحصن ويختلط بأهله ثم يأخذ فى تصغير شأنهم وتعظيم قوة أعدائهم ، ويؤيسهم من المدد . . الى غير ذلك من الحيل التى تنشر فى أهل القلعة روح التخاذل والخور . ومما يحتال به أيضاً فى خداع أهل القلعـــة لإضعاف عزائمهم أن يطوف المهاجمون حول الحصن ويشيروا بالأيدى الى مواضع فيه ويأتوا من الحركات والاشارات ما يتوهم معه أهل الحصن أن العدو المهاجم يختار المواضع الضعيفة من الحصن للنفاذ منها الى الداخل ، وأنه يعين المواضع التى تصلح لنصب المجانيق عليها أو تهيأ لها العرادات أو توضع عليها السلالم أو يتسور منها الى داخل الحصن أو تضرم فيها النيران ليملأهم ذلك رعباً [١] .

الأسلحة والآلات :

قلنا فيما سبق إن كسرى ولى ديوان الجند رجلا اسمه بابك . وكان بابك هذا يعرض الجند من حين الى حين ويؤدى عمله فى شىء كثير من الحزم والصرامة حتى إنه دعا ذات مرة المقاتلة جميعا الى الاشتراك فى العرض وكان من بينهم كسرى إلا أنه لم يكن كامل العدة والسلاح فلم يجزه بابك وطلب اليه أن يعود لاستكمال سلاحه ففعل كسرى ما طلبه بابك . ونذكر الآن أن السلاح الكامل الذى كان يطالب به الفارس فى ذلك الوقت على نحو ما يذكره الدينورى

---

(١) عيون الأخبار : ص ١١٤ ج ١

هو التجفاف والدرع والجوشن والبيضة والمغفر والساعدان والساقان والرمح والترس والجرز يعلقه فى منطقته والطبرزين والعمود وجعبة فيها قوسان بوترهما وثلاثون نشابة ووتران ملفوفان يعلقهما الفارس فى مغفره ظهريا . وكان كسرى حين اشترك فى العرض الأول قد نسى الوترين اللذين يستظهر بهما . (١)

وكان كسرى شديد الاهتمام بأمر الفرسان بوجه خاص فكان يعرضهم ويقدم اليهم المساعدات المختلفة والهدايا من الخيل والأسلحة كما كان يقرر لهم المرتبات الثابتة . وكانت أسلحتهم الرئيسية فى القتال القوس والسهم أى نفس الأسلحة القديمة التى عرف الايرانيون بالمهارة فى استخدامها .

وكانت السهام تؤخذ من عيدان خاصة تقطع وتشذب عنها الأغصان ثم تصلى بعد ذلك بالنارحتى تلين . ويتكون السهم من جزأين : القدح وهو العود، والنصل . ويراش السهم بأن يجعل عليه الريش . ولا بد للمحارب من وعاء السهام وهو الجعبة أو الكنانة . وقد تتخذ هذه الجعبة من الجلد الخالص أومن الخشب الخالص . ويراعى فى الجعبة أن يكون فيها فتحات حتى ينفذ الهواء إلى ريش السهام فلا يفسد . (٢)

ومن أسلحة القتال الرماح ويستخدمها الفرسان فوق الخيول . ويتكون الرمح من جزأين . متن الرمح ، وحده أو سنانه أونصله . ويجعل للرمح حديدة

---

(١) الأخبار الطوال : ص ٧٢ والتجفاف آلة للحرب يتقى بها كالدرع ؛ والجرز هو العمود ، والطبرزين محرف تبرزين آلة تشبه البلطة من آلات القتال .

(٢) المخصص لابن سيده : ص ٦٩ ج ٦ ط الاميرية ببولاق ١٣١٨ هـ

فى أسفله تثبته يقال لها الزج . ومما يشبه الرمح من أسلحة القتال الحربة وإن كانت أصغر منه .

ومن آلاتهم فى الحرب الدرع . وتتكون الدرع من أجزاء يعرف كل جزء منها باسم خاص . فما وقى الصدر فهو الجوشن ، وما وقى الرأس فهو البيضة أو الخوذة أو المغفر . ويستفاد من نص الدينورى السابق أن من أجزاء الدرع ما يقى الساعدين والساقين . وكانوا يلبسون تحت الدرع غلالة تخفف من أثر صلابته على الجسم . وربما أمعن بعض المقاتلين فى الحيطة والتوقى فلبس تحته درعا أخرى صغيرة . وهناك ضرب من الدروع يقال له القردمانى كانت الأكاسرة تحتفظ به فى خزائنها وأصل هذه الكلمة بالفارسية كردماند أى عمل وبقى (١) وأنشد ابن الأعرابى للبيد .

فخمة ذفراء ترتى بالعرى   قردمانيا وتركا كالبصل (٢)

ومما استعملوه فى القتال الترس ويقال له أيضاً المجن والدرقة . وكان يتخذ من الجلود ليتقى به المحارب وقع السيوف فلا تنفذ إلى جسمه .

ومما استعملوه فى القتال المنجنيق . وقد عرف العرب هذا السلا
الفرس . وقد استخدمه أول الأمر الفينيقيون ثم أخذه عنهم
بعد ذلك الى الفرس . وكانوا يتخذون المنجنيق
الضخمة أو السهام أو المواد المشتعلة لهد

(١) المخصص
(٢) الم

ومن آلاتهم فى القتال الجرز أو العمود أو الدبوس . وينسب الثعالبي إلى افريدون أنه أول من صنع هذا السلاح فى حربه مع الضحاك . وكان العمود الذى أمر بصنعه هو المعروف «گرزگاوسار» ومعناه بالفارسية العمود الذى فى رأسه صورة ثور [1] . ويعلق العمود فى حلقة السرج .

وكان الوهق من أهم أسلحة الفرس . وهو حبل تجعل منه أنشوطه فإذا ألقاه المحارب على عدوه شد اليه الحبل فضاقت الأنشوطه على جسم العدو فلا يستطيع منها فكاكا ، ويقع أسيرا . ومثل هذا ما يستعمله رعاة البقر المعروفون اليوم فى أمريكا . وقد مهر الفرس فى استخدام هذا السلاح . ولم يكن أعداؤهم من التورانيين يعرفونه أو يستخدمونه حتى إن كاموس الكشانى ا التقى برستم عجب أن يكون هذا الحبل من بين آلاته فى القتال وازدراه فطرح رستم عليه الوهق وأحكمه على وسطه ثم جره اليه وأخذه أسيرا .

وكانوا يستعملون الحسك وربما اتخذوه من حديد أو خشب يلقونه فى طريق أعدائهم فينشب فى أرجل خيلهم فيعوقها عن السير والحركة . وقد لجأ الفرس إلى هذا السلاح فى حروبهم مع العرب . ويروى الطبرى أن النعمان
فى حربه مع العجم لما انتهى بجنده إلى نهاوند طرحوا له حسك الحديد
لا يعلمون بالحسك فزجر بعضهم فرسه وقد دخلت فى يده
فى يده فإذا فى حافره حسكة فأقبل بها وأخبر
أشاروا عليه أن ينتقل من مكانه ويظهر
أشاروا به فخرج الأعاجم فى

طلبه وكنسوا الحسك من الطريق. ولما علم النعمان أنهم كنسوا الحسك وأصبحت الطريق آمنة عطف عليهم. [(١)] وفى هذه الحرب نفسها يتحدث الطبرى فيقول إن الفرس لما قدموا على العرب «كانوا كأنهم جبال حديد قد تواثقوا أن لا يفروا من العرب وقد قرن بعضهم بعضا سبعة فى قران والقوا حسك الحديد خلفهم وقالوا من فر منا عقره حسك الحديد». ولما رأى الفرس صبر العرب فى القتال وأنهم لا يبرحون رغم ما أصابهم من المصائب العظيمة «انهزموا فجعل يقع الواحد فيقع عليه سبعة بعضهم على بعض فى قياد فيقتلون جميعا وجعل يعقرهم حسك الحديد الذى وضعوه خلفهم». [(٢)]

وكانت الفيلة تقوم بدورهم فى الحروب يقدمونها أمام الجند فتكون كالسور المنيع أمامهم. ولكن الفيله كانت مصدر خطر فى بعض الاحيان على الجند لأنها إذا خافت واضطربت داست الجند وقتلت منهم عددا كبيرا ولذلك كانوا يتخذون الحيطة لمثل هذا فيزودون الفيالة بالسكاكين الطويلة حتى إذا خافت الفيلة وخيف على الجند أن تدوسهم طعنها الفيالة بسكاكينهم فى الفقرات الخلفية من عنقها. [(٣)]

وكانوا يصحبون الأسود والضوارى فى حروبهم. وتقتصر مهمتها على حراسة خيمة الملك حتى لا يتسلل اليها عدو.

فإذا وضعت الحرب أوزارها سلم الجند أسلحتهم لتوضع فى المخازن

---

(١) الطبرى : ص ٢٠٣ ج ٣

(٢) نفس المصدر والجزء : ص ٢٠٦ — ٢٠٧

(٣) كريستنسن : ايران در زمان ساسانيان : ص ١٣٨ ترجمة رشيد ياسمى

الخاصة بها . وكان يوكل بهذه المخازن موظف مختص يقوم بمراقبة هذه الأسلحة وتنظيمها بحيث يمكن توزيعها عند الحاجة اليها فى قليل من الزمن . (١)

أرزاق الجند :

كان من عادة الملك قبل القتال أن يفتح خزائنه ويوزع منها على الجند فى شيء كثير من السخاء تشجيعاً لهم على القتال . وكان اطلاق أرزاق الجند وتقديم الأعطيات اليهم قبـــل القتال أمراً معروفا . ولم يكن هذا يمنع من تخصيص رواتب خاصة للجند يعطونها فى فترات معلومة . فدارا مثلا كان يعطى جنوده ما بين أربعة إلى ثمانية دراهم كل يوم (٢). وكان الجند فى بعض الأحيان ينالون رواتبهم كل عشرين يوما ولذا سميت العشرينيات (٣) . يضاف إلى هذا نصيبهم فيما يصيبون من غنائم . ولـكن كان عليهم أن يقدموا الغنائم أولا كاملة الى الشاه وهو الذى يأمر بتوزيعها فيما بينهم . ولم يكن قائد الجيش يجرؤ أن يمس شيئاً من هذه الغنائم بغير إذن الملك . وحينما احتجز بهرام چوبين لنفسه بعض الغنائم التى حصل عليها دون أن يستأذن الملك كان هذا سبباً من أسباب غضب الملك عليه .

وكان بعض الملوك يحرمون على جنودهم أن يمدوا أيديهم إلى شيء من مال الرعية يأخذونه غصبا وظلما .

وكانت الدولة تتولى إعداد ما يلزم للجند من طعام وتهيئة ما يلزم للدواب

---

(١) كريستنسن : ص ١٤٣

(٢) الشاهنامه : ص ١٧٨٤ ج ٦

(٣) الشاهنامه : ص ٢٨٠٢ ج ٩

من الأعلاف فإذا استعد الجيش للخروج إلى القتال كتبوا بذلك إلى حكام النواحى المختلفة التى يمر بها هذا الجيش ليقدموا له ما يلزم من الزاد .

وكان انوشيروان يهتم بجنده وخاصة الفرسان اهتماما شديدا . فكان يقدم لفقرائهم المساعدات المالية ، والهبات ، والهدايا المختلفة التى تناسب رجل الحرب كالخيل أو الأسلحة .كما كان يدفع معاشاً لورثة المتوفين من الجند .

الموبذ فى الحرب :

ذكرنا فيما سبق أن الموبذ كان من رجال الدولة الذين يكلفون بملازمة الجيوش فى الحروب . وقلنا إن أردشير كان يجعل على كل الف من المقاتلة موبذا عالما خبيرا لمراقبتهم وإخباره بما يكون منهم عند القتال من شجاعة أو جبن وبما يكون عليه سلوكهم بصفة عامة .

الكاتب فى الحرب :

من بين الشخصيات التى يعتمد عليها فى الحروب الكاتب . وكان يقوم بجملة أعمال منها أن يسفر بين الملك وأعدائه قبل القتال محاولا أن يحسم مادة الخلاف ، وأن يصد العدو عن التمادى فى الشر ، وأن يوفق بين الطرفين بما فيه مصلحة مولاه . وكان الملوك يختارون هذا السفير من بين الكتاب اختياراً دقيقا. وكان أردشير يختار فى مثل هذه المهمة أحد كتابه العلماء العقلاء [١]. ومن مهمات الكاتب أن يقوم بتحرير ما يطلب اليه من رسائل توجه الى الملوك والقواد فى الإنذار والتهديد ، أوالإغراء والتحريض أوالمسالمة والمهادنة وعقد

---

(١) الشاهنامه : ص ١٩٨٣ ج ٧

شروط الصلح ، أو رواية ما جرى من وقائع وأحداث فى الحرب . وكان من مهمته أيضاً أن يشير على الملك وينصح له . ويروى أن بهرام چوبين لما أراد أن يقاتل جنود الترك نصحه رجاله أن لا يفعل لقلة من كانوا معه وكثرة جند الأتراك فأبى أن يقبل النصح فجاءه الكاتب ونصحه بدوره ألا يصمم على القتال محافظة على حياة من معه من الرجال . ويبدو أن الكاتب أطال فى النصح فضجر بهرام وطلب اليه أن يكف عن النصح وأن ينصرف إلى دواته وقرطاسه ويدع أمر الحرب لرجال الحرب (١) .

وكان من مهمة كاتب الجند أن يثبت فى سجلاته أسماء المقاتلين ، وأن يحصى الغنائم التى يظفرون بها . وحين استولى بهرام چوبين على قلعة برموده ابن ساوه دخلها الكتاب ليؤدوا واجبهم فى إحصاء ما بها من غنائم وظلوا يؤدون واجبهم إلى وقت متأخر من الليل (٢) .

ويحدثنا النويرى عن واجبات كاتب الجيش فيذكر أن عليه أن يرتب أسماء الأمراء والأجناد ويضع لذلك جريدة على حروف المعجم يثبت فيها أسماءهم ويذكر الاسم وابتداء امرته أو جنديته فى أى سنة كانت من السنين ... الخ (٣)

الساحر :

وكانوا يستعينون بالسحرة فى القتال لبث الرعب والفزع فى قلوب الأعداء

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٦١٢ ج ٨

(٢) الشاهنامه : ص ٢٦٣٨ ج ٨

(٣) نهاية الارب : ص ٢٠٠ ج ٨

وكان الساحر قادرا على أن يُرى العدو الأحلام المزعجة التى تؤثر فى أعصابه وتضعف ثقته بنفسه وقدرته على مواجهة عدوه . من ذلك أن بهرام چوبين لما حارب الأتراك استعانوا بالسحرة فلما جاء الليل ونام بهرام رأى فى نومه أن الأتراك قد غلبوه على أمره وهزموه شر هزيمة ونهبوا مافى جيشه وبقى هو وحيدا يرجو الأمان ، فقام من نومه مذعورا مضطربا . (١) وكان مما فعله سحرة ساوه فى حربه مع الايرانيين أن سحروا أعينهم وخيلوا لهم أنهم يرون نيرانا تملأ الجو ورياحا عاصفة وسحبا سوداء مظلمة تمطرهم بوابل من النبال (٢).

من عاداتهم فى الحروب:

وكان مما جرت به عاداتهم فى الحروب ألا يعرضوا لها الملوك حرصا منهم على حياتهم أن يصيبها مكروه فيتبدد شمل جيشهم . وحين حارب كيخسرو افراسياب طلب هذا منه أن يخرج لمبارزته بنفسه وكان مناه أن يتغلب عليه فى مبارزته فينهزم بذلك جيشه . ولكن رستم وهو المجرب الخبير فطن إلى الامر ومنعه أن يخرج لمبارزة افراسياب وإلا فما حاجة الملوك إلى الجنود والآلات إذا كانوا يقاتلون بأنفسهم . (٣)

وكان من عاداتهم أن يكتبوا على النشاب اسماء مختلفة فمنها ما يكتب عليه اسم الملك ومنها مايكتب عليه اسم المقاتل نفسه أو اسم امرأته أو ابنه إلى غير ذلك. ويروى أن كسرى بعث وهرز إلى اليمن لقتال الحبشة فلما اصطفوا قال وهرز

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٦١١ ج ٨

(٢) الشاهنامه : ص ٢٦١٤ ج ٨

(٣) الشاهنامه : ص ١٣٥٣ ج ٥

لغلامه : أخرج الىّ من الجعبة نشابة فأدخل الغلام يده فأخرج له نشابة عليها اسم امرأته فتطير من ذلك .[١]

وكان من عاداتهم إذا خرجوا للحرب أن يتطيروا إذا عاد المحارب من سفره قبل أن يصل إلى ميدان القتال .

وكانوا يتغنون فى مجالس لهوهم بانتصاراتهم .

ملاحظة تتصل بالحروب :

يلاحظ أن الشاهنامة مع اهتمامها بالحديث المفصل عن الحروب والوقائع والانتصارات التى يحرزها الإيرانيون لا تتحدث بنفس هـذا التفصيل عن الوقائع التى ينهزمون فيها ، وكثيراً ما يكون الحديث عن مثل هـذه الوقائع عابراً مجملا وقد تهملها الشاهنامة . ومما أهملته الشاهنامة مثلا واقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على العجم . ولعل العصبية الإيرانية هى التى حدت بالشاهنامه إلى أن تتجاهل هذه الواقعة . وربما كان هذا التجاهل راجعا إلى عجز الشاهنامه عن أن تجد مخرجا مناسبا تخفف به وقع هذه الهزيمة كما فعلت مع الاسكندر الذى غزا الإيرانيين وحطم ملكهم واستولى على بلادهم ومـع ذلك ذكرته الشاهنامه بالخير ولم تأنف أن تتحدث عن انتصاراته على الإيرانيين وإن كان حديثا مجملا فى أغلبه . وسبب هذا أن الشاهنامة اعتبرت الاسكندر إيرانيا ومن ثم لم يكن غريبا على الإيرانيين ولم تكن انتصاراته عليهم انتصارات غريب دخيل . أما كيف اعتبرته الشاهنامه إيرانيا فتفصيله أن داراب بن بهمن بن

---

(١) عيون الاخبار : ص ١٤٩ ج ١

اسفنديار تزوج ابنة قيصر الروم ولكنه نفر منها بعد الزواج لأنها كانت بخراء. وقد عالجها من هذا الداء وشفيت منه إلا أن قلبه لم يتفتح لها بعد ذلك، فردها إلى أبيها. وهناك ولدت له الاسكندر وكانت حاملا منه. وأخفى قيصر الروم فيلقوس صلة الاسكندر بأبيه داراب وادعى أنه ولده [١]. وفى الشاهنامه أن ابنة قيصر الروم فيلقوس وأم الاسكندر كانت تسمى ناهيد وأن العشب الذى عولجت به كان اسمه الاسكندر، ولذا سمت مولودها الاسكندر على اسم هذا العشب الذى شفاها من بخرها [٢]. ولكن الطبرى يسمى ابنة قيصر الروم هلاى، ويذكر أن الدواء الذى عولجت به يقال له بالفارسية سندر. وقد أذهب هذا الدواء كثيراً من رائحتها الكريهة وإن كان لم يذهبها كلها فانصرفت نفس دارا الأكبر (داراب) عنها لبقية ما بها وعافها وردها إلى أهلها وقد علقت منه فولدت غلاما سمته باسمها واسم الشجر الذى عولجت به فكان اسمه هلاى سندروس ثم صار اسكندروس [٣].

ومن هذا نرى أن الشاهنامة جعلت الاسكندر ايرانياً لتبرر بهذا ما لحق الايرانيين من الهزائم على يديه، وأنها جعلته ابناً لداراب بن بهمن بن اسفنديار وأخا لدارا بن داراب آخر الملوك الكيانيين الذى هزمه الاسكندر وبانهزامه انقضى ملك الكيانيين فكأن الأمر بهذا لا يعدو أن يكون نزاعاً بين أخوين ايرانيين انتصر أحدهما على الآخر.

---

(١) الشاهنامه : ص ١٧٧٧ ج ٦

(٢) الشاهنامه : ص ١٧٨٠ ج ٦

(٣) الطبرى : ص ٦٩٦ ج ١ ط بريل

وكما قلنا منذ قليل لو كانت الشاهنامة قد استطاعت أن تجد مثل هذا المخرج والتبرير فيما يتصل بهزيمة الايرانيين على يد العرب فى واقعة ذى قار لتحدثت عن هذه الواقعة كما تحدثت عن وقائع الإسكندر .

الشطرنج والنرد :

قد يبدو غريباً ان نذكر الشطرنج والنرد فى بحث كهذا ولكن الواقع أن لعبة الشطرنج كانت أثراً من آثار حياة الحرب، فاختراع الشطرنج والنرد وثيق الصلة بالحرب . ولعل كثرة الحروب التى سادت الحياة هى التى أوحت باختراع هاتين اللعبتين . فهما فى الحقيقة مظهر من مظاهر الحياة الحربية التى كان يحياها الناس فى ذلك الزمان . وقد اخترع الهنود الشطرنج وأهداه ملكهم إلى كسرى انو شيروان وأوجب ملكهم على نفسه أن يلتزم الضريبة عن بلاده كل سنة إذا استطاع كسرى ومن عنده أن يفكوا رموز هذه اللعبة ، وأن يحل نفسه من هذا الالتزام إذا عجزوا . ورأى كسرى أنه أمام هدية خطيرة ليست كسائر الهدايا فعهد بها إلى حكيمه المشهور بزرجمهر الذى أخذ يتأملها ويدرسها ويدقق النظر فيها حتى فهمها وعرف سرها الذى بنيت عليه . وفطن إلى أن تلك القطع والحجـارة تصور نظام الجيوش فى الحرب وقال إن هذه اللعبة « إنما وضعت للحرب وجعل الأكبر منها الملك والذى يليه الوزير والقطاع الكبار القواد المسمين للأمور والبيادق الرجاله وحركاتها مناوشة القتال »(١) ولما علم ملك الهند أن الايرانيين فطنوا إلى سر اللعبة التزم بالضريبة يؤديها كل عام .

---

(١) الغرر : ص ٦٢٢

أما سبب اختراع الهنود لتلك اللعبة فيرجع إلى ان إحدى ملكات الهند كان لها ولدان يتنازعان على الملك هما جو (گو) وطلحند. وقد تطور النزاع بينهما، فأعد كل منهما جنده ونظم جيشه إلى ميمنة وميسرة وطليعة ومؤخرة، وجهزت الخيل لركوب الفرسان، والفيلة لركوب الملكين. ولما تقاتل الجيشان انهزم جيش طلحند فعز عليه ذلك وحزن لما أصابه من الهزيمة حزنا شديدا ووقع ميتا. وانتهت بهذا الحرب بين الأخوين فعاد گو إلى أمه وأخبرها الخبر فظنت أنه قتل أخاه ولكنه أكد لها أن أخاه مات ميتة طبيعية وأنه لم يمسسه بسوء. ولكن الأم لم تصدق ما قال فأراد أن يشرح لها واقعة الحال شرحا عمليا لتفهم كيف دار القتال، فدعا اليه العلماء وكلفهم أن يهتدوا إلى طريقة لتصوير المعركة تصويرا ماديا واضحا، فاستحضروا الأبنوس وعملوا تختا وصوروا فيه مائة بيت ثم عملوا من الساج والعاج صورة شاهين معتصبين بالتاج مع جنودهما وخيولهما وفيولهما ثم صفوها صفوفا فجعلوا كل واحد من الشاهين فى قلب عسكره وعلى يمينه وزيره وإلى جانب كل واحد منهما من الميمنة والميسرة فيلان يتنقلان فى ثلاثة بيوت. وجعلوا دون الفيلين جملين عليهما راكبان ودونهما فرسين عليهما فارسان ودون الفرسين رخين كأنهما مبارزان يركضان يمنة ويسرة ولا يقف قدامهما أحد ورتبوا الرجالة مصطفين أمام الكل. ومهما انتهى واحد منهم إلى آخر المعترك صار فى مرتبة الوزير يقعد بجنب الشاه ويختلف بين يديه. ثم كل واحد من هؤلاء المقاتلين إذا رأى الشاه فى بيت صاح وأشار اليه بالاحجام والتنحى من ذلك البيت. ثم إن أحد العسكرين غلبوا فسدوا الطريق على الشاه فنظر فرأى عساكر العدو قد أحاطوا به من كل جانب وسدوا

عليه كل مسلك فمات من الهم والأسف مابين المعترك ». [١] وكانت أم طلحند تراقب الشطرنج وهم يلعبون به أمامها فتفهم كيف جرت الواقعة وكيف مات ولدها .

هذا فيما يتعلق بالشطرنج . وقد رأينا أن الفرس قد اهتدوا إلى سره وفك رموزه . ثم إن الفرس قدموا إلى ملك الهند هدية أخرى فى مقابل هديته وضعها بزرجمهر . وكانت هذه الهدية هى النرد . وقد جعل بزرجمهر خطوطها الاثنى عشر على عدد الشهور وبروج الفلك وقطاعها السود والبيض هى الليالى والأيام ، والكعبتان دول الناس وجدودهم . [٢]

---

(١) ترجمة البندارى: ص ١٥٤ ج ٢

(٢) الغرر : ص ٦٢٤ .

١٢ ــ الملوك فى الشاهنامه

وما يتصل بهم

الحق الآلهى الملوك :

أهم طبقة تعنى بها الشاهنامه فى المجتمع الإيرانى طبقة الملوك . ولذا كان تقديمها فى الحديث ضرورياً . لم يكن لدى ملوك الفرس نظام ثابت لتولى الملك ، وإن كان هناك عرف جرى العمل به فى أكثر العهود . ولكن هذا العرف لم يكن قانوناً ملزماً ونظاماً واجب الاتباع على الدوام . وكان هذا العرف يقضى بأن يتولى أكبر الأبناء الملك بعد أبيه ولكن الظروف كانت تتدخل فى كثير من الأحيان للتحلل من هذا العرف . وعند ما مات يزدجرد ابن بهرام جور كان أكبر أبنائه فيروز غائباً فى سجستان فتولى الملك أصغر الأبناء هرمزد (١) . ولم يطق فيروز صبراً على اغتصاب حقه الطبيعى فى الملك فلجأ إلى ملك الهياطله يستعين به ضد أخيه هرمزد فأمده ملك الهياطله بجيش كثيف يتكون من ثلاثين ألف مقاتل استطاع بهم أن يتغلب على أخيه وأن يأسره وأن يسترد منه الملك (٢) . ثم رق قلبه لأخيه هرمزد فأطلق سراحه ورده إلى إيوانه مكرماً وأخذ عليه العهد أن يكون فى خدمته . (٣)

---

(١) ٤٥٧ - ٤٥٩ م

(٢) ٤٥٩ - ٤٨٤ م

(٣) الشاهنامه : ص ٢٢٦٥ ج ٨

وقد حدث أن تولى الملك طفل رضيع لأن هرمز بن نرسى لما مات لم يكن له ولد فأخذ الأشراف ورجال الدين يتشاورون فى الأمر حتى علموا أن إحدى جواريه كانت حاملا منه ، فانتظروا حتى وضعت مولودها بعد أربعين يوماً من موت هرمز ، وكان المولود قمراً منيراً كأنه قبس من النور الآلهى ، فسماه الموبذ شابور (سابور) ولما صار لشابور هذا أربعون يوما نصبوه ملكا . ومن اللطيف أنهم عند ما نصبوه رفعوه إلى العرش فى لفافته الحريرية وزينوا صدره بتاج ذهبي . وكان يصرف الأمور باسم هذا الوليد موبذ حكيم اسمه مهروى . وقد عرف شابور هذا فيما بعد بسابور ذى الأكتاف . ودام ملكه اثنتين وسبعين سنة . وكان من ملوك الدولة الساسانية البارزين (١) .

وإذا كان الطفل الرضيع يتولى الملك فليس هناك ما يمنع من تولى الصبية وصغار الشبان . وكان قباد بن فيروز بن يزدجرد فى سن السادسة عشرة حين تولى الملك (٢) . ولم تكن له بشئون الملك خبرة أو دراية فاستبد بالأمر دونه سوفزاى . وكان طبيعياً وقد أصبحت لسوفزاى الكلمة العليا فى البلاد أن يكثر أعاديه وحساده الذين استطاعوا أن يثيروا عليه الملك حتى قتله . وكان لمقتله أثر سيء فقامت الفتن والثورات فى جميع البلاد. وعانى منها قباد أشد معاناة .

وكان الأخ يتولى الملك أحياناً بعد أخيه كما هى الحال بالنسبة لأردشير أخى شابور بن هرمزد المعروف بشابور ذى الأكتاف . وكان لشابور ذى الأكتاف

---

(١) ٣٠٩ — ٣٧٩ م

(٢) ٤٨٨ — ٥٣١ م

عند ما أحس بدنو الأجل ولد صغير اسمه شابور أيضاً . وقد رأى أن ابنه فى سنه الصغيرة لا يصلح أن يتولى الملك فدعا اليه أخاه أردشير والكاتب وكبير الموابذة (موبذ موبذان) . وعهد إلى أردشير بالملك من بعده على أن يسلمه إلى ابنه متى بلغ مبلغ الرجال ويصبح له عند ذاك مشيراً وناصحاً أميناً . وسلم اليه تاج الملك ومفاتيح الخزائن وولاه قيادة الجيوش. وأخذ عليه العهد والميثاق فى حضرة الكاتب وكبير الموابذة . ولما توفى شابور ارتقى أردشير العرش ودعا اليه الناس وأعلن أمامهم أنه يتولى الملك إلى أن يكبر شابور بن شابور فيرد اليه الأمانة التى استودعه إياها أبوه . وسار فى الناس بالعدل والإحسان ، ورفع عنهم الخراج حتى لقبوه أردشير المحسن (نيكوكار) . وبعد أن قضى عشر سنوات يصرف الأمور أحسن تصريف رد الملك إلى ابن أخيه سابور[١].

ومن الأخوة الذين تولوا الملك بعد اخوتهم يزدجرد بن سابور بن سابور ذى الأكتاف . وهو المعروف بيزدجرد الأثيم . وسبب توليه الملك أن أخاه بهرام بن سابور بن سابور[٢] مات ولم يترك عقباً ذكراً فاضطر أن يعهد إلى أخيه الأصغر يزدجرد بالملك[٣] .

وكان الأمر يخرج أحياناً من أبنـــاء الملك أو اخوته إلى من عداهم ممن ينتسبون إلى الأسرة المـلـكية كما حدث فى تولية زو بن طهماسب ، فإن سلفه نوذر كان له ولدان طوس وكستهم ولـكنهما لم يكونا صالحين للملك فاستقر

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٠٦٤ ج ٧

(٢) ٣٨٨ — ٣٩٩ م

(٣) ٣٩٩ — ٤٢٠ م

رأى الإيرانيين على تنصيب زو بن طهماسب [١]. وكان زو حين تولى الملك شيخاً جاوز الثمانين من العمر .

وفى مرة أخرى اختير كيقباد رأس الأسرة الكيانية للملك . وكان ذلك بعد أن مات گرشاسب آخر ملوك البيشدادية ، وبقى الملك شاغراً فترة فجمع زال الأعيان والأشراف ورجال الدين وكبار رجال الدولة وشاورهم فى أمر من يتولى الملك فأشار عليه الموبذ بكيقباد . وكان كيقباد ينتهى فى نسبه إلى افريدون . فأرسل اليه زال ابنه رستم يبشره بالملك ويدعوه إلى القدوم اليهم .

ولم يكن الملك وقفاً على الرجال دون النساء ففى العهود التى تختفى فيها الكفاءات الممتازة والشخصيات القوية بين الرجال كان النساء يرتقين العرش . وحين اعترى الدولة الساسانية الضعف فى أواخر عهدها رأينا من الملكات اللاتى ارتقين العرش بوران بنت كسرى ابرويز (پرويز) وقد ملكت ستة أشهر [٢]. ثم آزرم بنت كسرى ابرويز كذلك ولم يزد ملكها على أربعة أشهر [٣].

ولنا بعد هذا أن نتساءل لماذا لم يفكر الملوك فى وضع نظام دقيق ثابت لولاية العرش وخاصة فى عهد الدولة الساسانية التى جعلت لكل ناحية من نواحى الحياة نظما مرعية وأصولا لا يحيد الناس عنها ؟ ويجيبنا تنسر فى رسالته إلى جشنسف ملك طبرستان على هذا التساؤل فيقول إن الناس يلتفون عادة

---

(١) فى بعض الروايات الأخرى غير رواية الشاهنامه أن زو هو ابن نوذر لا ابن طهماسب .

(٢) الشاهنامه : ص ٢٩٥٦ ج ٩

(٣) الشاهنامه : ص ٢٩٥٨ ج ٩

حول ولى العهد يرمقونه بعين الإكبار والإجلال ويكثر حوله المنافقون المخادعون وقد يكون ولى العهد صغيراً أو قليـــل التجربة فيركبه الغرور ويتملكه العجب بنفسه فيندفع إذا ما صار ملكا فى طريق الضلال ويأتى من الحماقات ما لا يأتيه ملك خلت نفسه من الغرور والكبر . ثم إن عمر الملك قد يطول ، ويطول معه انتظار ولى العهد ، وإذا طال انتظار ولى العهد للمُلك تغير قلبه على الملك وقد يغريه أهل السوء بالخروج عن طاعته فتقع بذلك الفتن والحروب التى يختل بها أمر البلاد . ودفعا لما قد ينشأ عن تعيين ولى للعهد من مفاسد رأى أردشير أن يكتب الملك وصيته إذا ما دنا أجله من ثلاث نسخ . ويختار فى هذه الوصية من يخلفه . ويبقى اسم خلفه بطبيعة الحال سراً لا يطلع عليه أحد . وتسلم إحدى النسخ إلى كبير الموابذة ، والثانيـة إلى كبير الكتاب والثالثة إلى كبير القواد ، فإذا توفى الملك اجتمع هؤلاء الثلاثة وفضوا الأختام فإذا اتفقوا على من عين فى الوصية أعلنوا ذلك للناس وإذا اختلفوا كتموا الأمر ورجع كبير الموابذة إلى رجال الدين والحكماء وسائر أهل الرأى حتى تتفق كلمتهم (١) .

وإذا لم يكن تولى الملك أمراً دقيقا كما رأينا ، وإذا لم تكن وراثة الملك مقررة فى شخص بعينه فليس معنى هذا أن المُلك نفسه غاية سهلة المنال لكل طموح وطامع فقد دأب الفرس على اعتبار الملك حقا محصورا فى دائرة محدودة جدا هى دائرة الأسرة الملكية نفسها وليس يحق لأى واحد من أفراد الشعب

---

(١) كتاب تنسر : ص ٥١ وما بعدها الترجمة العربيـة للدكتور يحيى الخشاب .

أن يرتقى العرش مهما يكن شأنه . وقد رأينا فيما سبق أنهم ولوا الطفل الرضيع ولم يخطر ببالهم أن يولوا واحداً لا ينتمى إلى أصل ملكى . وكانت فكرتهم فى هذا أن الملك منحة الهية خصت بها الآلهة فئة معينة من الناس هم الملوك ومن ينتمـون اليهم . فمن كان من أصل ملكى حق له أن يملك ومن لم يكن كذلك فلا حق له فى الملك مهما تكن مزاياه ومقدرته ، وإذا ملك بحكم القوة فهو مغتصب . وهذا ما يعرف بالحق الالهى المقدس للملوك . وقد نتج عن هذه الفكرة أنهم نظروا إلى الملوك نظرة تقديس ما دامت الآلهة قد خصتهم دون سواهم بالملك ، واعتبروا ما يأمر به الملك وما يصدر عنه قوانين واجبة التنفيذ ، كما اعتبروا أن مخالفة هذه القوانين إثم فى حق الآلهة .[١] وكانت الديانة الزردشتية لهذا السبب توجب على معتنقيها أن يدينوا للملوك بالطاعة والولاء . وقد نقلت الشاهنامة عن زردشت أنه يقول فى الأفستا والزند من عصى الله وخرج على طاعة الملوك وجب نصحه ووعظه سنة فإن لم يعد بعدها إلى الطريق السوى وجب قتله بأمر الملك[٢] . ولهذا السبب كانت طاعة الملوك والتسليم لهم دون سواهم بحق الملك عقيدة راسخة فى قلوب الفرس وتستمد هذه العقيدة قوتها من تعاليم الديانة الزردشتية نفسها . وتروى الشاهنامة أن گشتاسپ حين أراد أن يتخلص من ولده اسفنديار لمزاحمته إياه على الملك وجهه إلى حرب رستم فى زابلستان وطلب منه أن يأتى به أسـيراً . فأطاع اسفنديار وتوجه إلى زابلستان فنصحه أخوه بشوتن أن يعدل عن مقاتلة رستم

---

(١) قصة الحضارة الفارسية : ص ٢٩ ول دورانت وترجمة الدكتور ابراهيم أمين .

(٢) الشاهنـامه : ص ٢٧٢٣ ج ٩

فإنه هالك إن فعل . ولكن اسفنديار وقد رسخت فى قلبه عقيدة الطاعة للملك أعرض عن نصح أخيه وذكره بما يأمر به دين زردشت من طاعة الملك ، وبما ينذر به العصاة من العذاب فى الجحيم [١] . وكان من جراء تمسك اسفنديار بطاعة الملك وإعراضه عن نصح أخيه أن لقى حتفه على يد رستم .

وكان بهرام چوبين على عظم قدره فى الدولة الساسانية وسابق خدمته لملكها غير جدير بالملك فى نظر الناس لأنه لم يكن من سلالة الملوك . وحين ساء الأمر بينه وبين ملكه هرمزد (هرمز) استشار أصحابه فى أن ينصب نفسه ملكا على البلاد فشجعوه على هذا تملقا اليه لما رأوه فى نفسه من الميل إلى هذا الأمر إلا أخته فإنها حين استشارها سفهت رأيه وحذرته عاقبة الغرور ونهته عن مجاراة أصحابه الذين يتملقونه ويغررون به ويدفعونه إلى الهلكة ، وذكرته بأنه ليس من سلالة الملوك وأنه لهذا لا يصلح للملك ولا يليق به أن يغتر لسابق انتصاراته فى الحروب ، وأن من قبله كانوا أشد بأسا وأصعب مراسا ومع ذلك هلكوا دون الملك ، وأن الحكمة تقضى عليه أن يرتد عن الغى ويعود إلى طريق الحق فيسمع ويطيع ، ويطلب من الملك الصفح والمغفرة . وهذا يدل على نظرة الناس إلى الملك وإلى من يحق له أن يكون ملكا ، وأنه لا الحسب الرفيع ولا البلاء المجيد فى الحروب ولا الثراء والجاه بشافع للانسان إذا طمح إلى الملك لأن كل هذه الاعتبارات البشرية لا يمكن أن ترقى إلى الإرادة الآلهية التى شاءت فقضت بالمُلك لفئة خاصة من الناس دون سواها .

ومما يجب أن نذكره فى هذا الصدد أن بهرام چوبين كان يفهم جيداً هذه

---

(١) الشاهنامه : ص ١٦٨٤ ج ٦

العقيدة فى نفوس الناس فاستغلها فى حربه مع پرويز حين تقابل الجيشان بالنهروان « إذ دنا بهرام من صفوف كسرى پرويز وصاح بأعلى صوته تباً لكم يا معشر العجم فى خلعكم ملككم . أيها الناس توبوا إلى ربكم مما فعلتم وانحازوا الىَّ بجماعتكم حتى نرد السلطان على ملككم قبل أن ينزل الله نقمته عليكم . فلما سمع أصحاب كسرى ذلك قال بعضهم لبعض والله قد صدق بهرام وإن الأمر لعلى ما قال فهلموا بنا نتلاف أمرنا ونصلح ما كان منا باجابة بهرام إلى ما رأى فانحازوا جميعا فانضموا إلى بهرام » . (١) وكان ينسب إلى پرويز أنه تواطأ مع بعض رجاله على خلع أبيه هرمزد واستيلائه على الملك مكانه . ولذا مال جند پرويز إلى معسكر بهرام مما حقق له النصر . ورجع پرويز خائبا ولم يجد بدأ من الفرار إلى قيصر الروم للاستعانة به على بهرام . فانضمام الجند إلى بهرام كان راجعا الى شعورهم بأحقية الملك المخلوع فى الملك ووجوب إعادته إلى العرش. وحين وصل پرويز إلى بلاد الروم لقى الترحيب والإكرام وأمده قيصر بجيش ضخم يسترد به ملكه من غاصبه . وعند ما تقابل الجيشان أعلن كسرى پرويز أنه قد أمن من ينضم اليه من جند بهرام . فلما سمع الجند ذلك واطمأنوا إلى الأمان على أنفسهم وأهلهم وأموالهم عاودهم الحنين إلى ملكهم فانسل أغلبهم بالليل من معسكر بهرام إلى معسكر كسرى . ولما أصبح الصباح ورأى بهرام ما فعله جنده به لم يجد أمامه بدأ من الفرار . ويلاحظ هنا أن الجند انضموا إلى بهرام فى أول الأمر رغبة فى إعادة الملك الشرعى وإيماناً بما ادعاه لهم بهرام ، وأنهم تخلوا عن بهرام آخر الأمر تفضيلا للملك عليه . ومهما يكن

---

(١) الأخبار الطوال : ص ٨٦

مافعله پرويز ازاء أبيه فإنه على كل حال ملك من بيت المُلك وليس بهرام كذلك وتأييد الملك أوجب من تأييد العاصى الثائر .

وانتهى الأمر ببهرام وبمن معه أثناء فرارهم إلى قرية من القرى فدخلوا دارا لعجوز قدمت اليهم مالديها من الطعام والشراب ، فلما طعموا وشربوا جلسوا إلى العجوز يحدثونها وهى لاتعرف شخصياتهم ويسألونها عما لديها من الأخبار عن قتال بهرام وپرويز . فروت لهم مابلغها من انهزام بهرام وانتصار پرويز وسفهت فعلة بهرام وتنبأت له بالخيبة والفشل لأنه تجرأ على عصيان ملك البلاد . وأبدت رأيها فى بهرام فقالت « جاهل أحمق يدعى الملك وليس من أهل بيت المملكة .» (١)

وأخذ بهرام يتنقل فى البلاد هاربا حتى وصل إلى الخاقان فاحتمى به وأقام عنده وحاول پرويز أن يغرى الخاقان بقتل بهرام فلم يفلح ؛ فلجأ إلى امرأته الخاتون وأنفذ اليها من حذرها من بهرام وجسم لها خطره على زوجها الخاقان وعلى ملكه ، فاستجابت الخاتون لهذا التحذير وأنفذت اليه من طعنه وقتله. ولما سمع من ببابه صراخه دخلوا عليه وكانت أخته كرديه بين من دخل فرأته على تلك الحال فلطمت خدها وقالت يا أخى هذا جزاء من كفر أولياء النعمة وعصى الأرباب وحارب الملوك . (٢)

وحتى حكام الأقاليم جرت العادة فى العهد الساسانى أن يكونوا من الأسرة الملكية . وكان على أبناء الملك أن يتولوا الحكم فى تلك الأقاليم حتى

---

(١) الاخبار الطوال : ص ٩٤
(٢) الغرر : ص ٦١٢

يكون لهم فى هذا تمرين ينفعهم فى المستقبل إذا ماصارت اليهم مقاليد الأمور فى البلاد . وكانوا يعتبرون الأمراء الذين لم يسبق لهم حكم إيالة من الإيالات ناقصى التجربة مما يطعن فى مقدرتهم على تولى شئون الملك (١) .

صفات الملك :

يجب أن يتحلى الملك بالأخلاق الفاضلة ، ويعمل على إعلاء شأن الدين ، ويفى بالعهد ، ويتجه إلى الخير ، ويعدل بين الناس ، ويجب عليه أن يكون سخيا بعيداً عن الحرص والطمع ، لا يخشى الحق ، ولا يخيف الرعية ، رحيما ، معينا للفقراء من الفلاحين فيهبهم ما يحتاجونه فى زراعاتهم من آلات الزرع والأغنام ، مشجعا على إنشاء المؤسسات الخيرية العامة (٢) .

ومن كان هذا شأنه من الملوك وجبت إطاعته لأن إطاعة الملك العادل المستقيم أمر من الأمور المذهبية . ويقصد زردشت بالملوك الذين تلزم إطاعتهم أولئك الملوك الذين يسلكون فى ملكهم سبيل الخير والمصلحة العامة . ومن واجب الناس جميعا أن يتوجهوا بالدعاء والشكر للملك العادل لأن مثل هذا الملك يستطيع أن ينقذ الأمة والمملكة من مخالب الشياطين ، ومن القحط والخراب . ومن بين الأدعية الزردشتية التى كررتها الأفستا الدعاء للملك الصالح . ويقوم الزردشتيون من قديم الزمان حتى اليوم بالدعاء للملك بين أدعيتهم اليومية . وكانوا يعدون يوم مولد الملك عيداً من الأعياد القومية العظيمة (٣) .

---

(١) كريستنسن : ص ٦٢

(٢) اخلاق ايران باستان : ص ٣٧

(٣) نفس المصدر : ص ٣٦

وإلى جانب الصفات الخلقية والروحية التى يتصف بها الملك أضيفت الصفات الجسمية . فكان يشترط فيمن يتولى الملك أن يكون سليم الجسم كامل الخلقة لا تشوبه من هذه الناحية شائبة . ومن ذلك مثلا أن كسرى أنوشيروان لم يكن أكبر أبناء قباد ولكنه اختير للملك بعد أبيه رغم أن جم بن قباد كان محبوبا من الناس خليقا أن يقوم بأمر الملك لولا ما كان به من عور .

ومما اصطنعه الملوك للعنايه بأجسام أبنائهم وعقولهم وأرواحهم اتخاذ المدربين الذين يدربونهم على الفروسية وأساليب القتال، والطرد والصيد واتخاذ المربين الحكماء الذين يصقلون عقولهم ويهذبون نفوسهم كما كانوا يعنون باختيار ندمائهم وجلسائهم من بين العلماء والأذكياء وأهل الصلاح .

مراسم توليهم الملك :

كان الملك إذا تولى الملك جلس على التخت واعتصب بالتاج وأذن للناس إذنا عاما فيدخلون عليه ، فيخطبهم خطبة عامة يشرح فيها سياسته ويعدهم بشتى الوعود ويدعوهم إلى التزام الطاعة والولاء ، وينذر العاصين والمفسدين . ولما تولى بهرام جور (گور) الملك [١] استقبل الناس على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم سبعة أيام . وكان طيلة هذه الأيام السبعة ينصح ويعظ، ويعد وينذر، ويمنى ويهدد . فلما جاء اليوم الثامن دعا اليه الكاتب وأمره أن يوجه كتابا إلى كل كبير وأمير فى كل مقاطعة وإقليم يخبرهم باعتلاء بهرام العرش ويبعث اليهم بنصائحه وتوجيهاته [٢] . وحين ارتقى كسرى أنو شيروان العرش خطب الناس

---

(١) ٤٢٠ — ٤٣٨م

(٢) الشاهنامه : ص ٢١١٦ ج ٧

خطبة طويلة ملأها بالعظات والنصائح حتى اذا فرغ من القائها كان الخلق كلهم فى دهش من روعة مقالته وهبوا من أماكنهم يهتفون له ويثنون عليه (١). وكذلك كان دأبهم اذا تولوا الملك جمعوا الناس وخطبوا فيهم . فكانت خطبهم تلك أشبه بما نسميه فى وقتنا الحاضر بخطب العرش . ويحدثنا ابن عبد ربه عن أردشير بن يزدجرد لما استوثق له الأمر فيقول انه جمع الناس وخطبهم خطبة حضهم فيها على الالفة والطاعة وحذرهم المعصية ومفارقة الجماعة وصنف لهم الناس أربعة أصناف (٢) . ولما فرغ أردشير من حديثه خروا له سجداً وتكلم متكلمهم فأخذ يدعو له بالنصر والتأييد ويثنى عليه بما يجب فى مثل هذا المقام (٣).

وكانوا فى مثل هذه الاحتفالات يعدون العرش للملك ، ويعلقون فوقه التاج ، ويصفون كراسى الذهب حوله وفق نظام معين .

الآداب والعادات المتصلة بالملوك :

كان من عاداتهم إذا جلس الملك على العرش أول توليه أن يدخلوا عليه لتحيته والدعاء له . وكانوا فى هذه المناسبة ينثرون عليه الجواهر والنثارات المختلفة من ذهب وفضة تحية له . وعندما رفعوا سابور ذا الأكتاف إلى العرش وعلقوا فوقه تاج الملك أخذوا ينثرون عليه الذهب والدراهم (٤) .

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٣١١ ج ٨

(٢) لعل المقصود من هذه العبارة أنه بين لهم الطبقات الأربع التى يتألف منها المجتمع .

(٣) العقد الفريد : ص ١٣٢ ج ٢ ط لجنة التأليف ١٩٤٠ م

(٤) الشاهنامه : ص ٢٠٢٨ ج ٧

وكذلك كانوا ينثرون هذا النثار إذا قدموا على الملك . وفى إحدى حروب كسرى أنو شيروان مع قيصر ملك الروم طلب هذا الأخير الصلح ، فأوفد إلى أنو شيروان وفداً يعقد الصلح مؤلفا من أربعين فيلسوفا من فلاسفة الروم يحمل كل واحد منهم ثلاثين الف دينار لينثروها فى حضرة كسرى (١) .

وكذلك كان يفعل خاقان الترك فإنه أوفد إلى كسرى وفداً يطلب أن يزوجه إحدى بناته ليتقى بذلك غزوه لبلاده وهجماته ، وجهز الوفد بثلاثين الف دينار برسم النثار .

وكان رسل كسرى إلى غيره من الملوك يفعلون ذلك أيضا . وعند ما أرسل پرويز رسله إلى قيصر الروم ليستعين به فى حربه ضد بهرام چوبين زودهم بالجواهر الثمينة فلما أدخلوا عنده دعوا له ونثروا تلك الجواهر عند عرشه (٢).

وكان للدخول على الملك والانصراف من حضرته آداب تتبع . فإذا كان الداخل من الأشراف والطبقة العالية سلم الملك عليه قائما فإذا استدناه فعليه أن يقرب منه ويكب على أطرافه يقبلها ثم يعتدل واقفا ويأخذ مكانه المخصص له فى حضرة الملك ، ويظل واقفا إلى أن يشير اليه بالقعود . أما إذا كان الداخل من الطبقة الوسطى فعليه إذا استدناه الملك أن يدنو خطى ثلاثا أو نحوها ثم يقف فاذا استدناه الملك بعد ذلك دنا بالقدر الذى دنا به أولا . وإذا كان الداخل على الملك مساويا له فى المكانة فعليه أن يقوم له وأن يتقدم اليه لاستقباله ويعانقه ويأخذ بيده حتى يجلسه فى مجلسه . (٣)

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٥٤٩ ج ٨
(٢) الشاهنامه : ص ٢٧٤٣ ج ٩
(٣) التاج : ص ٨ ط الأميرية ١٩١٤ م

وقد يزيد الملوك على هذا فيخرجون لاستقبال القادم إذا كان رفيع المنزلة كما فعل سياوش عندما وفد عليه كرسيوز من قبل أخيه افراسياب . وكان سياوش قد أقام فى بلاد التوران وتزوج ابنة افراسياب . ورأى افراسياب أن يوفد أخاه كرسيوز ليطمئن عليهما ويحمل اليهما الهدايا . ولما بلغ سياوش خبر قدوم كرسيوز ركب فى جنده ورجاله وخرج لاستقباله وصحبه حتى دخل معه القصر. (١) وقد يوفد الملك من ينوب عنه فى استقبال القادم . ومن ذلك أن كيخسرو لما تولى الملك وجلس على العرش توجه إلى تهنئته رستم وأبوه دستان وابنه فرامرز . ولما نمى إلى علم كيخسرو نبأ قدومهم سر بذلك وأوفد اليهم طوس وگودرز وگيو فاستقبلوهم على مسيرة يومين وعادوا معهم إلى حضرة الملك . (٢)

وكان من آداب الدخول على الملك أن يقبل الداخل الارض ويضع الجبهة على التراب كما فعل زال عندما مثل بين يدى منوچهر . (٣) وحين دخل سياوش على أبيه كيكاوس وهو جالس على عرشه خر إلى الأرض وبقى ساجدا حتى أشار اليه أبوه فاعتدل . (٤) أما إذا كان الداخل من العوام فعليه بعد أن يعتدل أن يقعد على ركبتيه فوق الأرض. ولم يكن الملوك يفعلون هذا مع غير العوام . ولما أراد كرسيوز أن يوغر صدر أخيه افراسياب على سياوش حقدا منه وحسدا ادعى أنه أخر لقاءه ثلاثة أيام بعد وصوله اليه

---

(١) الشاهنامه : ص ٦٣٠ ج ٣

(٢) الشاهنامه : ص ٧٦٧ ج ٣

(٣) الشاهنامه : ص ٢٠٦ ج ١

(٤) الشاهنامه : ص ٥٢٩ ج ٣

وأنه عندما دخل عليه أقعده على ركبته فثـارت ثائرة افراسياب لهذه الإهانة التى لحقت أخاه ورسوله كرسيوز . (١)

* * *

وكان للملوك علامات إذا أرادوا أن ينصرف من فى حضرتهم فإذا تثاءب الملك أو الق المروحة أو مد رجليه أو تمطى أو اتـكأ وجب على الحاضرين أن ينصرفوا . وكان أردشير بن بابك يتمطى فيفهم زواره وينصرفون . وكان گشتـاسپ إذا دلك عينيه خرج من عنده . وكان يزدجرد الأثيم يعلن إلى ضيوفه أن الليل قد مضى « شب بشد »فينصرفون . وكان بهرام جور إذا قال «خرم خفتار» قام سماره . وكان قباد يرفع رأسه إلى السماء.وكان سابور يقول « حسبك يا إنسان » . وكان أنو شيروان يقول لزواره قرت أعينكم . (٢)

* * *

وكان من الآداب التى يجب أن يرعاها مجالسو الملك أن يخفضوا من أصواتهم فإن خفض الصوت فى حضرة الملك أدل على مهابته وأبلغ فى الإبانة عن هيبته . وقد أدب الله أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا الأدب فنهـاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي «يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وانتم لاتشعرون » . ثم أثنى على من غض صوته بحضرة الرسول فقال « إن الذين

---

(١) الشاهنـامه : ص ٦٣٧ ج ٣

(٢) التـاج : ص ١١٨

يغضون أصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى »

وكان التزام الآداب المرعية فى مجلس الملوك أمرا مفروضا على الحاضرين سواء حضر الملوك المجلس أم لم يحضروه . وكانوا إذا غابوا عن المجلس اتخذوا لهم عيونا يراقبون حركات الجالسين وألفاظهم واشاراتهم فإن كان سلوك الجالس هو نفس السلوك الذى يسلكه فى حضرة الملك سمى ذا وجه وكان عند الملك من المقربين . وإن كان سلوكه مخالفا لما يكون منه فى حضرة الملك سمى ذا وجهين وكان عنده من المبغضين . (١)

* * *

وكان ملوك الفرس لشعورهم بامتيازهم على سائر الناس ، ولشعورهم بأنهم خصوا دون سواهم من البشر بحق الملك المستمد من الآلهة يحبون أن ينفردوا بجملة أشياء لايشركهم فيها ندماؤهم أو جلساؤهم ليكون هذا دليلا على ارتفاع منزلتهم ، فإذا تطيب الملك مثلا وجب على خاصته ألا يقربوا الطيب لينفرد الملك بالتطيب . ويذكر صاحب التاج أن أولى الأمور بأخلاق الملك - إذا امكنه التفرد بالماء والهواء - أن لايشرك فيهما أحدا فإن البهاء والعز والأبهة فى التفرد . ألا ترى أن الأمم الماضية من الملوك لم يكن شىء أحب اليهم من أن يفعلوا شيئا تعجز عنه الرعيه او يتزيوا بزى ينهون الرعية عن مثله . فمن ذلك أردشير بن بابك ، وكان انبل ملوك ساسان ، كان إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد فى المملكه على رأسه قضيب ريحان متشبها به ،

---

(١) التاج : ص ٦٩

وكان إذا ركب فى لبسة لم ير على أحد مثلها ، وإذا تختم بخاتم لحرام على أهل المملكة أن يتختموا بمثل ذلك الفص وإن بعد فى التشابه . وهذه من فضائل الملوك ، وطاعة أهل المملكة أن تتحامى أكثر زى الملك وأكثر أحواله وشيمه (١) .

وكان ملوك الأعاجم إذا احتجموا منعوا الناس من الحجامة فى نفس اليوم ويقولون فى ذلك « إذا أراق الملك دمه فليس لأحد أن يريق دمه فى ذلك اليوم حتى يساوى الملك فى فعله بل على الخاصة والعامة الفحص عن أمر الملك والتشاغل بطلب سلامته وظهور عافيته وكيف وجد عاقبة ما يعالج به »(٢). وكانوا يرون أن من فعل ذلك فى نفس اليوم فقد اجترأ على الملك واستهان به لأنه أراد أن يشركه فى فعله ، ومن أراد أن يشرك الملك فقد عصى وفارق الشريعة . ويروى صاحب التاج عن كسرى أنو شيروان أنه كان يحتجم فى يوم السبت . وكان المنادى ينادى كل سبت « يا أهل الطاعة ليكن منكم ترك الحجامة فى هذا اليوم على ذكر وياحجامون اجعلوا هذا اليوم لنسائكم وغسل ثيابكم ». وكذلك كان يفعل فى يوم فصد العرق وأخذ الدواء (٣) .

وكان من الآداب التى تفرض على مجالسى الملك أنه إذا عطس لا يشمتونه استعلاء منه وترفعا . وإذا دعا لم يؤمن على دعائه لأن دعاءه فى غير حاجة إلى تأمينهم . وكانت ملوك الأعاجم تقول « حقيق على الملك الصالح أن يدعو

---

(١) التاج : ص ٤٦

(٢) نفس المصدر : ص ٩٠

(٣) نفس المصدر والصفحة :

للرعية الصالحة وليس بحقيق للرعية الصالحة أن تدعو للملك الصالح لأن أقرب الدعاء إلى الله دعاء الملك الصالح ». (١) وفى هذا ما يرينا كيف كان ملوك الفرس القدماء يرفعون أنفسهم فوق مراتب الناس وكيف كانت الصلة بينهم وبين الله متينة قوية فلا يحتاجون إلى دعاء الرعية لهم وإن احتاجت الرعية إلى دعائهم لها ، وكيف كانوا يعتبرون أن أقرب الدعاء إلى الله دعاء الملك الصالح.

* * *

وكان من الآداب المتبعة فى حضرة الملك ألا يبدأه أحد من الحاضرين بالكلام . والملك هو الذى يبتدىء الكلام ، فإذا أخطأ أحد الحاضرين وابتدأ نُبه الى ذلك فإن عاد الى هذا الخطأ أسـقط الموكل بأمر الدار مرتبته فلم يطأ بساط الملك .

* * *

ومما كان يستحب فى بطانة الملك القناعة والتعفف . وكان شيرويه بن ابرويز يقول « إنما تعذر البطانة برفع حوائجها الى الملوك عند ضيقة تكون أو عند جفوة تنالهم من ملوكهم أو عند موت يحدث لهم أو عند تتابع أزمة فإذا كان ذلك فعلى الملك تعهد ذلك من خاصته حتى يصلح لهم أمورهم ويسد خلتهم . فإذا كانوا من الكفاية فى أقصى حدودها ومن خفض العيش فى أرفع خصائصه ومن ذات اليد وإدرار العطايا فى أتم صفاتها ثم فتح أحد فاه بطلب ما فوق هذه الدرجة فالذى حداه على ذلك الشره والمنافسة . ومن ظهرت هاتان منه

---

(١) التاج : ص ٩٠

كان جديراً أن تنزع كفايته من يده وتصـير فى يد غيره وينقل الى الطبقة الخسيسة فيلزم أذناب البقر وحراثة الأرض » . (١)

* * *

ومما يلزم جليس الملك وملازمه أن يتأدب به فى حضرته حسن الإصغاء ومن علامات حسن الإصغاء أنه إذا سمع حديثا من الملك وكان يعرفه من قبل تظاهر بالجهل به وأنه يسمعه للمرة الأولى وأبدى السرور لما ناله من الفائدة بهذا الحديث وإقبال الملك عليه . (٢)

ويصور لنا صاحب التاج (٣) ما تكون عليه حاشية الملك من الترتيب والنظام والأدب اذا خرجوا معه فيقول : وفيما يحكى عن أنو شيروان (٤) أنه بينا هو فى مسير له ، وكان لا يسايره أحد من الخلق مبتدئا ، وأهل المراتب العالية خلف ظهره على مراتبهم فإن التفت يمينا دنا منه صاحب الحرس وإن التفت شمالا دنا منه الموبذ فأمره بإحضار من أراد مسايرته . فالتفت فى مسيره هذا يمينا فدنا منه صاحب الحرس فقال فلان . (٥) فأحضره فقال حدثنى عن أردشير بن بابك حين واقع ملك الخزر . وكان الرجل قد سمع من أنو شيروان

---

(١) التاج : ص ٥٠

(٢) نفس المصدر : ص ٥٣

(٣) والمسعودى أيضا فى المروج : ص ٢١٩ ج ٢

(٤) المسعودى ينسب القصة إلى شيرويه بن ابرويز .

(٥) اسمه فى الطبعة المصرية للمروج شداد بن جرثمه وفى الطبعة الأوربية ج ٦ ص ١٢٤ – ١٢٦ بندار بن خرشيد . ولا شك أن الاسم الوارد فى الطبعة المصرية محرف وتشابه الحروف بين الاسمين قريب يسهل هذا التحريف .

هذا الحديث مرة فاستعجم عليه وأوهمه أنه لا يعرفه فحدثه أنو شـيروان بالحديث فأصغى الرجل اليه بجوارحه كلها وكان مسيرهما على شاطىء نهر وترك الرجل - لإقباله على حديثه - النظر إلى مواطىء حافر دابته فزلت احدى قوائم الدابة فمالت بالرجل الى النهر فوقع فى الماء ونفرت دابته فابتدرها حاشية الملك وغلمانه فأزالوها عن الرجل وجذبوه فحملوه على أيديهم حتى أخرجوه فاغتم لذلك أنو شيروان ونزل عن دابته وبسط له هناك فأقام حتى تغدى فى موضعه ذلك . ودعا بثياب من خاص كسوته فألقيت على الرجل وأكل معه وقال له : كيف أغفلت النظر الى مواطىء حافر دابتك . قال أيها الملك إن الله اذا أنعم على عبد بنعمة قابلها بمحنة وعارضها ببلية وعلى قدر النعم تـكون المحن وإن الله أنعم علىَّ بنعمتين عظيمتين هما : اقبال الملك على بوجهه من بين هذا السواد الأعظم ، وهذه الفائدة وتدبير هذه الحرب التى حدث فيها عن أردشير حتى لو رحلت الى حيث تطلع الشمس أو تغرب كنت فيه رابحا . فلما اجتمعت نعمتان جليلتان فى وقت واحد قابلتهما هذه المحنة . ولولا أساورة الملك وخدمه وحسن جده كنت بمعرض هلـكة وعلى ذلك فلو غرقت حتى أذهب عن جديد الأرض كان قد أبقى لى الملك ذكراً متلداً مخلداً ما بقى الضياء والظلام فسر الملك وقال : ما ظننتك بهذا المقدار الذى أنت فيه فحشا فمه جوهراً ودراً رائعاً ثميناً واستبطنه حتى غلب على أكثر أمره (١) .

* * *

وكان من عادات الفرس أن يتيمنوا باسم الملك فيقولون كلما أقدموا على

---

(١) التاج : ص ٥٤

أمر هام تفعل هذا بسعادة الملك وباسمه . وكان الفارسى إذا أهمل التيمن باسم الملك وبسعادته عد ذلك منه اهمالا فى حق الملك وضعفا فى الإيمان به ورغبة فى الخروج على سلطانه . واذا بلغ الملك ذلك عن كبير من كبرائه أو قائد من قواده أنزل عليه غضبه كما فعل مع بهرام چوبين فإنه لما خرج لمحاربة ملك الترك من قبل الملك هرمزد عاهد نفسه أن يحتز بسيفه رأس ملك الترك ويرميه بين عسكره ولكنه نسى أن يفتتح هذا العهد باسم الملك ويصدر هذا القسم بسعادته . وعرف صاحب الخبر ذلك فأدرك أن بهرام متى ظفر على عدوه انقلب على ملكه . وأنهى ذلك إلى هرمزد فأهمه الأمر وبعث إلى بهرام رسولا يطلب اليه العودة لمباحثة الملك فى أمر عرض له . ولكن بهرام اعتذر إلى الرسول عن العودة معه لأنهم كانوا يتطيرون إذا خرج المحارب للقاء عدوه ثم رجع قبل أن يلقاه (١) .

* * *

وكان ملوك الفرس يتخذون من وقت الأكل فرصة لدراسة شخصية مؤاكلهم ، فإذا بدا على المؤاكل الشره والنهم أسقطوا قدره عندهم وحقروا شأنه . ويروى أن شابور ذا الأكتاف لما مات كبير موابذته رشحوا له شخصا آخر وصفوه بالعلم والأمانة والصلاح فأراد شابور أن يستوثق من صحة ما بلغه عنه قبل أن يعهد اليه بذلك المنصب الخطير فدعاه إلى مؤاكلته ولم يفطن الرجل إلى ما ينبغى أن يتحلى به مؤاكل الملك فأظهر الشره والنهم . ولما انتهى الأكل ورفعت المائدة قال له شابور « ودع وانصرف إلى بلدك فإن آباءنا وسلفنا من الملوك كانوا يقولون من شره بين يدى الملك إلى الطعام كان إلى

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٥٩٨ ج ٨

أموال الرعية والسوقة والوضعاء أشد شرها » . [١]

وقد استن ملوك الفرس عادة عند تقديم موائد الطعام هى الزمزمة والامتناع عن الكلام فإذا اضطروا الى التعبير كان تعبيرهم اشارة تغنى عن الكلام وايماء يدل على المقصود ويقال أن كيومرث أول من أمر بالسكوت عند الطعام . [٢] ثم انتشرت هذه العادة بينهم بعد ذلك . وكانوا يقولون « إن هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم فينبغى للإنسان أن يجعل ذهنه فى مطعمه ويشغل روحه وجوارحه فيه لأن تأخذكل جارحة بقسطها من الطعام فيغتذى بها البدن والروح الحيوانية التى فى القلب والطبيعة التى فى الكبد اغتذاء تاما وتقبله الطبيعة قبولا جامعاً » . ويذكر صاحب التاج أنهم قد ذكروا فى آيينهم فضائل كثيرة فى ترك الكلام على الطعام [٣] .

* * *

ومن عادة ملوك الفرس القدماء إذا أرادوا أن يستشيروا وزراءهم فى أمر من الأمور أن يكون ذلك على انفراد مع كل وزير على حدة . وكانوا يكرهون استشارتهم مجتمعين حتى لا يكون للمنافسة بينهم دخل فيما يقترحون ويشيرون. وقد يبدى أحدهم رأيا صائبا يروق الملك فيكون ذلك مدعاة لأن يحسده زملاؤه ويغاروا منه فيدبروا الدسائس ضده .كما أن هناك من الأمور ما لا يحسن طرحه للمناقشة علناً حتى لا يذيع وينتشر . ولهذه الأسباب كانوا

---

(١) التاج : ص ١٦
(٢) المروج : ص ١٣٧
(٣) التاج : ص ١٩

يفضلون دعوة كل وزير على حدة ، دون أن يعلم الآخرون ، ليستشيروه فيما يريدون [١] .

* * *

وكان الرسل يلقون عناية كبيرة من الملوك واهتماما بالغاً بشأنهم إذ أنهم ألسنتهم الناطقة وعيونهم الفاحصة فى كل مكان يوجهون اليه . وعندما يتجه رسول من الرسل إلى ملك الفرس يقوم حاكم الحدود بإبلاغ الخبر إلى الملك بمجرد أن يعبر هذا الرسول الحدود . وكان على حكام الولايات التى يمر بها هذا الرسول أن يكرموا وفادته ويهيئوا له المنازل اللائقة بسكناه . وحين يصل الرسول إلى قصر الملك يستقبله أحسن استقبال ويشرع معه فى شتى الأحاديث فيستفهم منه عن رحلته وكيف كانت وعن قومه وبلاده ثم يدعوه إلى النزول فى ضيافته فى أحد القصور المعدة لذلك . ويبالغ فى اكرامه أثناء اقامته ويشركه فى مجالس أنسه ويصحبه معه إلى متصيده [٢] .

وكان ملوك الفرس إذا أرادوا اختيار سفير لهم أو رسول امتحنوه امتحاناً دقيقا قبل أن يثقوا به ويعهدوا اليه بمهمة السفارة . ومن ألوان هذا الامتحان الذى كانوا يتخذونه لمعرفة صلاحيتهم لهذه المهمة الخطيرة أنهم كانوا يوجهون الرسول أولا الى بعض خاصة الملك ورجال حاشيته وينفذون من يراقبه سراً فى تأدية الرسالة التى عهد بها الملك اليه ، فإذا أدى الرسول الرسالة كما ينبغى من الدقة والصدق والإبانة اطمأن الملك اليه واتخذه رسولا له عند

---

(١) نهاية الأرب : ص ٧٣ ج ٦

(٢) الشاهنامه : ص ١٩٨٦ ج ٧

أعدائه وجعل عليه عيناً يراقبه ويحفظ ما يقوله ويرفع عنه تقريراً الى الملك فإذا جاء التقرير عنه مرضياً ، وأنه أدى الرسالة كما ينبغى أن تؤدى وأنه قام بالسفارة على خير ما يقوم بها السفير وثق به الملك وجعله بعد هذا رسولا له الى كافة الملوك . وينقل صاحب التاج عن أردشير بن بابك أنه كان يقول : على الملك اذا وجه رسولا الى ملك آخر أن يردفه بآخر وإن وجه رسولين أتبعهما باثنين وإن أمكنه ألا يجمع بين رسولين فى طريق ولا ملاقاة ولا يتعارفان فيتواطآ فعل ثم عليه إن أتاه رسوله بكتاب أو رسالة من ملك فى خير أو شر أن لا يحدث فى ذلك خيراً أو شراً حتى يكتب اليه مع رسول آخر يحكى له ما فى كتابه الأول حرفا حرفا ومعنى معنى فإن الرسول ربما حرم بعض ما أمل فافتعل الكتب وحرض المرسل على المرسل اليه فأغراه به وكذب عليه [1] .

وكان من علامات إكرام الرسول عندهم أن ينزلوه فى منزل قريب من موضع الملك وإلا كان ذلك اهانة واحتقاراً . وعند ما مات ملك الروم أرسل كسرى أنو شيروان الى ابنه الذى تولى الملك بعده يعزيه . وكان رسول كسرى أحد كبار دولته وقد حمله رسالة ملأها بالموعظة الحسنة والنصح . ولكن قيصر الجديد لم يعن باستقبال رسول كسرى ، وأنزله فى مكان بعيد عنه . ولما عاد الرسول الى كسرى وأخبره بكل ما كان ثارت ثائرته وعزم على مهاجمة الروم وأقسم أن يعاقبهم أشد عقاب [2] .

---

(١) التاج : ص ١٢٢

(٢) الشاهنامه : ص ٢٥٤٢ ج ٨

وكان على الرسول الى جانب ما يعهد به اليه من المهام الظاهرة أن يقوم بمهمة أخرى خفية قد تكون أخطر شأناً من مهمته الظاهرة . وعند ما أوفد هرمزد رسوله خراد بن برزين الى خاقان الترك أوصاه أن يراقب جنده وأن يحاول معرفة عددهم ومقدار استعدادهم (١) .

اللهو والترف وما يتصل بهما :

فى مثل هـــذا الملك المطلق الذى عرفه الإيرانيون يكون الملك مطلق التصرف فى مملكته وفى شعبها وفى كل ما يتصل بشئونها . ومن البديهى أن يعيش الملوك فى كافة الأزمنة والبلاد عيشة ترف ولكن الملك المطلق التصرف الذى لا يسأل عما يأتى ويدع يكون أشد من غيره انغماساً فى الترف وطلبا للهو . ومما يشجع هـــذا النوع من الملوك على الانغماس فى اللهو والترف أن الأموال تجرى فى أيديهم بغير حساب وليس للشعب إزاءهم أى رقابة على هذه الأموال . فكانت أموال المملكة كلها تتركز فى أيديهم إن شاءوا أنفقوها على ملاذهم ولهوهم وإن شاءوا أنفقوها على المشروعات العامة والأعمال الجدية .

وكان دخل الملك الخاص يتكون من مصادر مختلفة أهمها الخراج . وكانت حصيلة الخراج تدخل جيب الملك الخاص كما تدل على ذلك نصوص كثيرة . وقد كون خسرو پرويز معظم كنوزه مما كان يأتيه من الخراج . ومن مصادر الدخل الشخصى للملك الهدايا التى تقدم اليه فى المناسبات المختلفة من الملوك أو كبار رجال الدولة ، وما يخصه من الغنائم التى تظفر بها جيوشه فلا غرو اذاً أن

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٥٩٩ ج ٨

نرى الشاهنامة مليئة بألوان الحياة المغرقة فى الترف والبذخ التى كان يحياها ملوك الإيرانيين فى مختلف العصور .

ومن ألمع صور الترف صورة الحياة التى كان يحياها خسرو پرويز أو كسرى ابرويز كما يرد ذكره فى المصادر العربية . وكان لكسرى هذا تخت آية فى العجب هو المعروف بتخت طاقديس . وقد صنع هذا التخت لأول مرة فى عهد افريدون وظل الملوك يتوارثونه من بعده . ولا نجد فى وصف هذا التخت خيراً من ترجمة البندارى التى يقول فيها : « وكان كلما ملك ملك زاد فى هذا التخت شيئا فلما انتهت النوبة الى كيخسرو زاد فى طوله كثيراً . وبعده زاد فيه لهراسب . ولما ملك گشتاسپ قال لجاماسپ الحكيم : اعمل فى هذا التخت شيئا يبقى ذكره أبد الدهر ويخبر الخلق بعلمك وحذقك . فنقش جاماسپ عليه البروج الاثنى عشر والكواكب السبعة السيارة وغيرها من الساعات وما يتعلق بالنجوم . وزاد أيضا فيه من بعده إلى أن انتهت النوبة الى الاسكندر فخالف الكل ونقضه وفرق أجزاءه ومزقه كل ممزق ، فتفرقت ألواحه فى الأيدى السالبة وكانوا يحتفظون بها . فلما ملك أردشير تتبع فوجد من ذلك التخت ألواحا مكسرة فجمعها وأعاد منه رسماً . ولما انتهت النوبة الى پرويز حشر صناع جميع بلاده حتى اجتمع عنده ألف ومائة وعشرون استاذاً كانوا يعرفون وضع ذلك التخت على ما وضعه جاماسپ . وكان مع كل أستاذ ثلاثون تلميذاً فاشتغلوا بعمله سنتين . وجعلوا طوله مائة وسبعين ذراعا وعرضه مائة وعشرين ذراعا وسمكه مائة وخمسين ذراعا بالذراع الشاهى ومقداره ثلاثة أذرع بذراع اليد . وكان من اثنى عشر لوحا وفيه مائة الف وسبعون الف ضبة من ذهب مرصع ومسامير الضبات من الفضة وزن كل مسمار مائة وستة وستون

مثقالا . وكان اذا حلت الشمس فى برج الحمــل يكون وجه هذا التخت الى البساتين وظهره الى الصحراء واذا حلت الشمس الأسد كان ظهره اليها ووجهه الى البساتين وعند فصل الخريف وإيناع الثمار يكون وجهه الى البساتين حتى تصل روائح الفواكه الطيبة الى مشام القاعدين عليه . وفى فصل الشتاء تشد طاقاته بأزر الخز والحرير ويحضر بين يدى الحاضرين الف كرة محماة من الذهب والفضة وزن كل واحدة خمسمائة مثقــال . وعملوا على التخت صور البروج والسيارة وأفلاكها ومنازل القمر ومقياس ساعات الليل والنهار حتى كأنما وضعت فيه السماء بما فيها . وكانت تلك التخوت بعضها من الذهب وبعضها من الفضة مرصعة بجواهر أصغرها فى وزن سبعين مثقالا وأكبرها فى وزن سبعمائة مثقال وكان تحتها تخت يسمى « ميش سر » أى رأس الضأن وفوقه تخت آخر يسمى اللازوردى . والذى فوق هذا يسمى الفيروزجى . وكان يرتقى من كل واحد الى الذى فوقه بأربع درجات من ذهب . فــكان رأس الضأن مجلس الدهاقنة والرعية ، واللازوردى مجلس الأمراء والقواد ، والفيروزجى مجلس الدستور والوزير ومن عند الدستور يرتقى إلى مجلس برويز » . [1] ومن بين الذين وصفوا هذا التخت الثعالبى الذى يقول عنه إنه سرير من العاج والساج وصفائحه ودرابزيناته من الفضة والذهب وطوله مائة وثمانون ذراعاً وعرضه مائة وثلاثون ذراعا وارتفاعه خمس عشرة ذراعا . وفى مراقيه سرر من الشيز والآبنوس مضببة بالذهب وعليه طاق من الذهب واللازورد فيه صور الفلك والكواكب والبروج والأقاليم السبعة وصور الملوك وهيئاتهم فى

---

(١) ترجمة البندارى : ص ٢٤٠ ج ٢

المجالس والحروب والمتصيدات وفيه مايدل على معرفة ساعات النهار وله أربعة بسط على مقداره من الديباج النسيج المرصع باللآلىء واليواقيت يختص كل واحد منها بما يشاكله ويوافقه من فصول السنة.[١]

وكسرى أبرويز هذا هو الذى ينسب اليه أغلب المؤرخين أنه بنى ايوان المدائن المعروف. وكان يخلب الألباب من فرط ضخامته وعظمته.

ومن مظاهر ترف كسرى أبرويز تلك السجادة المعروفة باسم بهار كسرى ويسميها العرب القطيف. وكان طول هذا القطيف سبعين ذراعا وعرضه ستين ذراعا. وكان هذا القطيف منسوجا من نسيج الذهب. وقد نقشت عليه أنواع الورود والرياحين والأشجار والثمار وجعلت الخميلة فيه من زمرد، والنهر من لؤلؤ، والأشجار والثمار والورود والرياحين كلها من الماس والياقوت المتلألىء. فكانوا إذا ما أقبل الشتاء وذبلت الورود ويبست الرياحين وعريت الأشجار من الأوراق والثمار فرشوا هذا القطيف وجعلوا عليه مجلس شرابهم فكان يخيل اليهم كأنهم يشربون فى روضة معشبة وينعمون بالربيع وجماله فيما يحيط بهم من الورود والرياحين. وقد استولى العرب على هذا القطيف وأرسلوه إلى عمر الذى تحير فى قسمته، وأخيرا قطعه بين الفاتحين فأصاب عليا قطعة منه باعها بعشرين ألفا رغم أنها لم تكن أجود قطع القطيف.[٢]

وحين نحاول أن نعدد مظاهر الترف الأخرى فى حياة كسرى أبرويز

---

(١) الغرور : ص ٦٩٩

(٢) ابن الاثير : ص ٢١٩ ج ٢

لانحصيها ويكفى أن نشير إلى ماذكره الفردوسى بعنوان «قول فى عظمة خسرو پرويز» .[١]

* * *

وكان ملوك الفرس القدماء يلبسون الملابس الأرجوانية الطويلة ويضعون على رءوسهم تيجانا عالية . كما كان الملك يتحلى أيضاً بقرط ويضع فى عضده سوارا وسلسلة ويلبس منطقه . وكانت كلها تصنع من الذهب . وفى النقوش الصخرية يتضح أن الملك كان يطيل لحيته ويضفر شعره ، ويجلس على عرش مزين وفى يده عصا ، ويقف خلفه خادم ممسكا مروحة .[٢]

* * *

وكانت أهم وسائل اللهو عند الملوك الشراب والغناء والخروج للصيد ، وممارسة بعض الرياضات .

وكانوا يحتفلون بمجالس الشراب احتفالا عظيما فيفرشونها بالديباج والحرير ويطيبونها بالروائح الطيبة ويزينونها بأنواع الورود والرياحين فإذا دارت عليهم الكؤوس شربوها على اسم الملك. وعندما انتصر اسفنديار على ارجاسپ عاد إلى أبيه گشتاسپ فتلقاه بالفرح والسرور وأمر فأعدوا مجلس الأنس والطرب ابتهاجا بعودة ابنه ظافرا ، ودارت الأقداح فكان الابن يشرب على اسم أبيه وكان الاب يشرب على اسم ابنه .[٣]

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٨٩١ ج ٩

(٢) تاريخ ايران. پرسى سايكس : ص ٢٢٦ ج ١ الترجمة الفارسية لفخر گيلانى

(٣) الشاهنامه : ص ١٦٢٩ ج ٦

وكانت مجالس الشراب فى العهد الساسانى تختلف باختلاف طبقة الشاربين. فإن كانوا من الأغنياء وأهل الثروة لبسوا لهذه المجالس زيا خاصا وتوجوا رءوسهم بأكاليل الورد والريحان. وازدان مجلسهم بآلات الموسيقى والقيان المغنيات. أما الفقراء فكان مجلسهم يخلو من ذلك فلا غناء ولا موسيقى. وقد أحب بهرام جور أن ينعم الفقراء فى مجالسهم بما ينعم به الأغنياء، ولم يكن المغنون والمغنيات من الكثرة بحيث يستطاع استخدامهم فى مجالس الأغنياء والفقراء على السواء، ولذلك كتب إلى شنكل ملك الهند يطلب منه ايفاد ألفين من المغنين والمغنيات. فلما وصلوا فرقهم فى البلاد والقرى، وأقطعهم الأراضى ليفلحوا ويزرعوا ويغنوا الفقراء بغير أجر. (١)

* * *

وكان ملوك الساسانيين يهتمون باختيار ندمائهم. وقد رتبوهم ثلاث طبقات فكانت الأساورة وأبناء الملوك فى الطبقة الأولى وكان مجلسهم على يمين الملك على بعد عشرة أذرع من الستارة. وكانت بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم يكونون الطبقة الثانية. ومجلس هؤلاء على بعد عشرة أذرع من الطبقة الأولى. ثم تأتى الطبقة الثالثة وهى طبقة المضحكين وأهل الهزل، ويبعد مجلسها عن الطبقة الثانية عشرة أذرع كذلك. ومع أن هذه الطبقة هى آخر الطبقات شأنا إلا أنهم مع ذلك كانوا يختارون افرادها اختيارا دقيقا فليس بينهم خسيس الأصل ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول أو القصر ولا فاسد

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٢٥٨ ج ٧

الخلق ولا مجهول الأبوين .[١]

ويذكر المسعودى أن ملوك الأعاجم من عهد أردشير كانت تحتجب عن الندماء فكان الملك يتخذ مجلسه من وراء ستارة، وبينه وبينها عشرة أذرع .وبين هذه الستارة وبين أولى الطبقات عشرة أذرع أخرى فتكون المسافة بين مجلس الملك و بين مجلس الطبقة الأولى من الندماء عشرين ذراعا.وكان يوكل بالستارة رجل من ابناء الأساورة يقال له « خرم باش » أى كن سعيدا . وكان الندماء إذا أخذوا بمجالسهم حسب طبقاتهم جلسوا صامتين ساكنين حتى يطلع الموكل بالستارة فيقول غن أنت يافلان كذا وكذا واضرب أنت يافلان كذا وكذا من طريقة كذا وكذا من طرائق الموسيقى . وكان الموكل بالستارة يصدر هذه الأوامر إلى المغنين والموسيقيين بناء على رغبة الملك بطبيعة الحال .[٢]

وكانوا يقسمون أهل الفن كذلك إلى طبقات ثلاث فالطبقة الأولى هى طبقة أهل الحذاقة بالموسيقيات والأغانى والطبقة الثانية هى الطبقة التى تليها فى المنزلة الفنية والإجادة. والطبقة الثالثة هى طبقة أصحاب الونج (الصنج) والمعازف والطنابير. وكان أفراد كل طبقة من هذه الطبقات يلزمونها ولا يتعدونها إلى أن جاء بهرام جور بن يزدجرد فلم يلتزم هذه الطبقات التزاما دقيقا فكان يرفع من أطربه إلى الطبقة الأولى ولو كان فى أوضع الطبقات وكان يحط من قصر عن إطرابه إلى الطبقة الثانية وإن كان من أهل الطبقة الأولى . ولما ملك كسرى انوشيروان رد الأمر إلى ما كان عليه أيام أردشير .

---

(١) التاج : ص ٢٤
والمروج : ص ١٥١ ج ١

(٢) والمروج : ص ١٥١ ج ١

وكان الندماء جميعا فى مجلس الملك مهما ترتفع درجاتهم أو تسفل يجلسون على نمط واحد من حيث السكون والخشوع والصمت التام .(١)

وكانوا فى مجالس شرابهم وغنائهم يغنون بانتصاراتهم فى الوقائع : وقد طلب بهرام چوبين إلى المغنين ان يغنوه فى مجلس أنسه وطربه بقصة اسفنديار فى هفتخوان . ومن أشهر المغنين فى العهد الساسانى بربد.

* * *

وكان الصيد رياضة من أهم رياضات الملوك . وكانت أماكن الصيد المختارة الفراديس أو الحدائق الواسعة . وفى مثل هذه الحدائق يكون الصيد أيسر منه فى الغابات وصيد الغابات يكون غالبامن الوحوش الكبيرة . وكان حمارالوحش من بين حيوانات الصيد المطلوبة كما كان صيد الصقور من أهم مايصاد من الحيوانات حتى أنه لأهمية صيده جعل له بين ضباط البلاط ضابط خاص يسمى «قوشجى باشى » (٢) وكان الملك إذا خرج للصيد حمـــل معه الأموال والعطايا والمنح والهدايا، واصطحب معه من الوزراء والعلماء والحكماء من يؤانسونه فى سفره وينصحونه إذا استنصحهم ويشيرون عليه إذا استشارهم ، فضلا عن الفرسان والحراس والغلمان وغيرهم . وكانت قافلة الملك حين يخرج للصيد كأنها لكثرة عددها جيش صغير .

ومن أشهر رحلات الصيد فى الشاهنامه رحلة دستان قرب كابل التى تعرف فيها بمهراب ملك كابل وعشق ابنته روذابه وانتهى الأمر بينهما إلى الزواج .

---

(١) التاج : ص ٢٥ وما بعدها

(٢) سايكس : ص ٦٩

وكانت ثمرته رستم . ورحلة رستم التى خرج فيها للصيد وأوغل فى السير حتى وصل حدود توران . وكان صيده كثيراً فى هذه الرحلة فشوى منه وأكل ونام ليستريح . وتصادف أن مر بعض التورانيـــين فرأوا فرسه الرخش وحيداً فأخذوه إلى بلدتهم سمنجان . ولما صحا رستم تتبــع أثر فرسه حتى وصل تلك البلدة وهناك لقيه ملكها واستضافه عنده ليلة وصوله إلى أن يطلع الصباح . وفى تلك الليلة اتصلت به ابنة سمنجان وحملت منه ثم ولدت له ابنه سهراب . وقصه سهراب من قصص الشاهنامة العنيفة وقد أشرنا اليها فيما سبق (١) . ومن رحلات الصيد البارزة فى الشاهنامة رحلة بيژن التى التقى فيها بابنة افراسياب وما جرته عليه هذه الرحلة من بلاء عظيم وقد مرت كذلك فيما مضى (٢). ومن ملوك الساسانيين الذين اشتهروا فى ميدان الصيد بهرام جور وكان يخرج معه إلى المتصيد ثلاثمائة فارس مع كل واحد منهم ثلاثون غلاما. وكان غلمان بهرام الذين يخرجون معه لخدمته ثلاثمائة فضلا عن الدواب المحملة بالأموال والجواهر والعطايا. ومن الطوائف التى كان يتألف منها موكبه إذا خرج للصيد الفيالون ومعهم فيلتهم ، والبازدارية وهم حملة صقور الصيد ، والفهادون يسوقون فهودهم مقيدة بسلاسل الذهب . وكان هذا الموكب العظيم مصدر خير وبركة لأهالى القرى التى يمر بها لأنهم كانوا يقيمون الأسواق بالقرب من متصيد الملك ويبيعون بضائعهم لرجال الحاشية ، فتروج بذلك حالتهم الماليـــة والتجارية . كما كانوا ينتهزون فرصة مرور الملك بهم ليقدموا اليه هداياهم أو ليرفعوا شكاواهم . (٣)

---

(١) راجع : ص ٦٩

(٢) راجع : ص ٦٧

(٣) الشاهنامه : ص ٢١٩٢ ج ٧

ومن مواكب الصيد العظيمة موكب خسرو پرويز الذى كان إذا خرج تبعه عدد كبير من الأتباع والحراس وحملة الرماح والسيوف . وكان عدد من يخرج معه من البازدارية سبعمائة ، ومن الفهادين ثلاثمائة ، ومن الآساد والنمور سبعين كما كان يخرج فى موكبه المغنون والموسيقيون حتى يبلغ عددهم ألفاً . وكان يتقدم موكبه عدد من الغلمان والشبان يحملون الورود والرياحين ، والمجامر التى يشتعل فيها العود والعنبر حتى إذا هبت الريح حملت رائحتها إلى الملك. وكان يمهد طريق الموكب مائة سقاء يرشون الماء حتى لا يرتفع الغبار من الأرض (١) .

* * *

ومن رياضات الملوك الضرب بالصوالجة . وقد ظهرت هذه اللعبة لأول مرة فى عهد أردشير مؤسس الأسرة الساسانية (٢) .

* * *

وكان هناك الشطرنج والموسيقى . ولم يكن مجال الموسيقى قاصراً على البلاط وحده . وقد رأينا أن الملوك كانوا يصحبون فى أسفارهم الموسيقيين والمغنين .

* * *

وفى العيدين الكبيرين النوروز والمهرجان (مهرگان) كان الكبراء يتوافدون على حضرة الملك ويقدمون هداياهم اليه . وكان كل واحد منهم يقدم ما يتفق مع حاله فرجال الحرب والفرسان يقدمون فى العادة فرساً أو حربة

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٨٧٠ ج ٩
(٢) سايكس : ص ٦٤٢

أو سيفاً . ويحمل الأغنياء اليه هدايا الذهب والفضة . وكان الحكام ينتهزون فرصة هـذين العيدين فيجمعون له بعض الأموال من أقاليمهم بالإضافة إلى الخراج المقرر . وكان الشعراء والخطباء يعرضون عليه قصائدهم وخطبهم . وكانت نساء الملك يتباهين بما يقدمنه اليه من الهدايا فى هذه المناسبات . وكان الملك يرد هذه الهدايا فى مناسبات مختلفة . وكانت كل هدية يتقدم بها صاحبها تقيد فى دفتر الحسابات بالبلاط فإذا أصاب أحد أصحاب هـذه الهدايا أزمة مالية واحتاج إلى مساعدة نظروا إلى هذا الدفتر وأعطوه ضعف ثمن هديته . وكان بعض الملوك مثل أردشير بن بابك وبهرام جور وأنو شيروان يأمرون بإخراج ما فى خزائنهم من الثياب فتفرق فى هـذين العيدين على بطانة الملك وخاصته أولا ثم على سائر الناس ثانياً . وكانوا يرون أنه لا يليق بالملك أن يختزن ملابس الصيف إذا حل الشتاء أو يختزن ملابس الشتاء إذا حل الصيف لأن ذلك من فعل العامة الذين يحرصون على اختزان ثيابهم من فصل إلى فصل .

* * *

وكما كان الملوك يقدمون الخلع والعطايا كانوا يمنحون الألقاب أيضاً . وكانت هذه الألقاب موضع فخر كبير لمن منحت اليهم . وكانت الألقاب والعطايا ومناصب البلاط أو الدولة من أروج وسائل المكافأة .

* * *

بقى بعد ذلك من مظاهر الترف وأسباب المتعة فى قصور الملوك المرأة . وسيأتى الحديث عنها فى الفصل الخاص بها فيما بعد .

١٣ — الحياة الاجتماعية فى الشاهنامه

النظام الطبقى :

كان الفرس من قديم يؤمنون بالنظام الطبقى ، فقسموا أفراد الشعب إلى طبقات . وكان على كل فرد أن يلزم الطبقة التى ينتمى اليها ولا يتعداها . وأقدم من عرف هذا النظام الطبقى فى عهده الملك جمشيد . وكانت الطبقات فى عهده أربعاً . وابن البلخى يذكر أن جمشيد قسم الناس إلى أربع طبقات : فالطبقة الأولى هى طبقة الأفراد الذين أوتوا العلم والمعرفة ووهبوا الفطنة ورجاحة العقل. وقد وزع التخصص فيما بينهم فأمر فريقاً منهم أن يتخصصوا فى الدراسة الدينية ورعاية شئون الدين ، وكلف فريقاً أن يتعلم الحكمة ليرجع اليهم فى أمور الدنيا ويستأنس برأيهم ، وأمر البعض أن يتعلم الكتابة والحساب حتى يعهد اليهم فى ترتيب الملك وضبط الأموال وتنظيم المعاملات . وكانت الطبقة الثانية طبقة الشجعان وأصحاب القوة . ومهمة أفراد هذه الطبقة التفرغ لشئون الحرب واجادة فنونها . وعليهم المعول فى حماية البلاد من كل اعتداء . والطبقة الثالثة كانت طبقة أصحاب الحرف كالبقال والقصاب والبناء والزراع . وكانت الطبقة الرابعة تؤلف من أولئك الأفراد الذين يقومون بأنواع الخدمة كالمكارى والبواب . . . الخ [١] .

ولم يكن عدد هذه الطبقات ثابتاً على الدوام فقد تكون أربعاً وقد تنضم

---

(١) فارس نامه : ص ٣٠ ط ليسترانج ونيكلسون

إحدى الطبقات إلى غيرها فتصبح ثلاثا . وقد ورد فى الأفستا فى أناشيد «گاتها» تقسيم الناس إلى ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : اثيريامن [١] وهى طبقة رجال الدين والروحيين .

الطبقة الثانية : خوائتو وهى طبقة رجال الحرب.

الطبقة الثالثة : ورزنا وهى طبقة الزراع والفلاحين .

وتشير الشاهنامه إلى هذه الطبقات على عهد جمشيد [٢] . فيقول الفردوسى عن الطبقة الأولى إنها الطبقة التى يدعونها كاتوزيان. ويُرجح أن تكون هذه الكلمة محرفة عن آتوريان بمعنى آتوربانان وآذربانان [٣] . ويرى پور داود أن هذه الكلمة «آتوريان» قد حرفت إلى «آموزيان» بمعنى المعلمين ثم حرفت إلى كاتوزيان . ولكن معين لا يرى مانعاً من أن تكون كاتوزيان بمعنى رجال الدين جمع كاتوزى . والطبقة الثانية هى التى تدعى «نيساريان» وهى طبقة أهل الحرب ويغلب أن تكون هذه الكلمة محرفة عن «رشتاريان» أو «أرتشتاريان». وطبقة الارتشتاريان هى طبقة المحاربين . وارتشتاريان سالار بمعنى قائد

---

(١) كلمة «ايثريامن» كانت فى اللغة الأفستيه تدل على هذه الطبقة من طبقات المجتمع ثم تطور مدلولها فى الفارسية الحديثة إلى معنى الضيافة كما استعملها الفردوسى فى حديثه عن گشتاسب وذهابه إلى بلاد الروم إذ قال :

اگر كشته گردد بدست تو گرگ   تو باشى بروم أيرمانى بزرگ

وايرمانى هنا بمعنى مهمانى «الضيافة» ويقال ايرمانسراى وايرمان خانه بمعنى مهمانسراى .

(٢) الشاهنامه : ص ٢٤ ج ١

(٣) آذر النار والآذربان القائم بأمر بيت النار .

الجيش . والطبقة الثالثة يطلق عليها الفردوسى فى نصه اسم « نسودى » . وهى محرفة عن پسودى . وهى من أصل أفستى بمعنى تربية الدواب . وپسو بمعنى الحيوان المستأنس . وتعنى هذه الكلمة طبقة الزراع الذين يقومون بتربية المواشى والحيوانات . والطبقة الرابعة يطلق عليها « اهتوخشى » وهى محرفة عن « هوتخش » البهلوية . وتتكون من « هو » بمعنى حسن ومن « تخش » بمعنى السعى والجد والمران . والمراد بهذه الكلمة طبقة الصناع [1] .

وكما أن عدد الطبقات لم يكن ثابتاً كما ذكرنا من قبل فكذلك كانت هذه الطبقات تضيق أحياناً فتشمل فئات محدودة وتتسع أحياناً فيدخل تحتها عدد أكبر من فئات الناس .

وكانت مراتب الناس تقوم بمقاييس مختلفـــة فى العهود المختلفة . ويذكر الثعالبى نقلا عن الآيين أن مراتب الناس كانت فى أيام جم على الأسنان وكان أعلاهم سنا أعلاهم مجلسا ، ثم كانت فى أيام الضحاك على الغنى والثروة ، ثم كانت فى ملك أفريدون على الغناء والسابقة ، ثم كانت فى أيام منوچهر على الأصول والقدم ، ثم كانت فى أيام كيكاوس على العقل والحكمة ، ثم كانت فى أيام كيخسرو على البأس والنجدة ، ثم كانت فى أيام لهراسف على الدين والفقه ، ثم كانت فى ملك الملوك بعده على الأحساب ، ثم كانت فى أيام أنوشيروان على اجتماع هذه الخصال المذكورة إلا الغنى والثروة فإنه لا يعتد بهما . [2]

---

(١) مزديسنا وتأثيرآن ... : ص ٤٠٦

(٢) الغرر : ص ١٥ وراجع أيضاً قصة أنو شيروان مع الاسكاف التى سترد فيما بعد .

وفى العهد الساسانى كان المجتمع ينقسم إلى طبقات أربع : طبقة الدينيين ، وطبقة المحاربين ، وطبقة الكتاب ، وطبقة الفلاحين والصناع . وكانت كل طبقة من هذه الطبقات تشمل عدة أقسام : فطبقة الروحيين والدينيين كانت تشمل القضاة وعلماء الدين والمعلمين . وكانت طبقة المحاربين تشمل الفرسان والمشاة . أما طبقة الكتاب فكانت تشمل المنشئين والمحاسبين، وكتاب المحاكم، والمؤرخين، والأطباء ، والمنجمين . وكانت الطبقة الشعبية الأخيرة تتألف من الفلاحين والتجار والصناع وسائر أرباب الحرف . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات رئيس . فرئيس الروحيين « الموبذ موبذان » ورئيس رجال الحرب « سپاه بد» ورئيس الكتاب « دبيران مهيست » ، ورئيس الطبقة الرابعة « واستريوشان سالار »[1] .

ولم يكن يجوز الانتقال من طبقة إلى طبقة بصفة عامة ، إلا أنه كان يستثنى من هذه القاعدة نادراً حين يبدو من أحـد أفراد الشعب امتياز خاص فى ناحية من النواحى . وعند ذاك يعرض أمره على الملك فاذا كان امتياز هذا الشخص فى ناحية الزهد والصلاح أمر بالحاقه بطبقة الروحيين ، وإذا كان امتيازه فى الشجاعة والقوة أمر فألحقوه بطبقة المحاربين ، وإذا كان امتيازه فى العقل والفطنة وقوة الحافظة أمر فضموه إلى طبقة الكتاب .

وكانت طبقة الأشراف تمتاز على طبقة العوام بلباسها وما لديها من المراكب والقصور والبساتين وتعدد النساء والخدم وغير ذلك من وسائل الترف ومظاهر النعمة .

وتحقيقا لما كان يفرضه نظامهم الاجتماعى من الفصل بين الطبقات وخوفا

(١) كريستنسن : ص ٦٠

على الأسر الكبيرة أن يتسلل إلى صفوفها بعض أفراد العامة كانت أسماؤها تقيد فى الدفاتر والدواوين .

وحين ولى كسرى أنو شيروان الملك كان من أول أعماله إصلاح الخلل الذى أصاب نظامهم الاجتماعى نتيجة لفتنة مزدك ، فأعاد للمجتمع طبقاته ووضع الحدود الفاصلة بين كل طبقة وأخرى ، وأعاد إلى طبقة الأشراف والأسر الكبيرة اعتبارها ورد ما كان لها من أملاك . ولكى يعينهم على استرداد مكانتهم الاجتماعية القديمة كان يقدم اليهم المساعدات المختلفة .

أيام الشهر :

ولأيام الشهر عند الزردشتيين أثر فى تنظيم حياتهم الاجتماعية . والشهر عندهم ثلاثون يوما . ولكل يوم من أيام الشهر اسمه الخاص . وقد جعلوا لكل يوم من هذه الأيام ما يصلح له من الأعمال وما يناسبه من الأفعال . فكان الإيرانى القديم يحرص على أداء كل عمل فى يومه الخاص ، فبعض الأيام تكون فألا حسناً إذا انتقل فيها الإيرانى القديم إلى مسكن جديد ولذا كان يتوخى ألا يغير مسكنه إلا فى هذا اليوم . وبعض الأيام كانوا يعتقدون أنها أنسب الأيام للبدء فى الرحلات أو عقد الاجتماعات أو اقامة الاحتفالات ، ومن ثم لا يفعلون شيئاً من هذا فى غير هذه الأيام . ومن واجب الزردشتى أن يعرف جيداً كل يوم من أيام الشهر ليؤدى فيه ما يناسبه من العمل . وهذا بيان بأيام الشهر وما يجدر بالزردشتى أن يقوم به فى كل يوم منها (١) .

---

(١) Karaka : History of the Parsis p. 134 vol. I. London 1884.

فاليوم الأول من هـــذا الشهر هو يوم اهورامزدا . وما دام هذا اليوم منسوبا إلى خالق الـكون فإن أنسب ما يؤديه المرء فيه عبادة الخالق، والعكوف على أمور الدين ، والتجرد عن شئون الدنيا . ويصلح هذا اليوم كذلك لأداء الأمور التى لها صلة وثيقة بالدين كالزواج ، والتماس البركة من الآله ، وجميع أعمال الخير . وطالع هذا اليوم حسن لـكل من أراد أن يسكن مسكنا جديدا أو ينشىء بستانا أو يحتفل بمناسبة سعيدة أو ذكرى عزيزة .

واليوم الثانى هو يوم « بهمن » . وهذا اليوم من أســعد الأيام لعقد الاجتماعات التى يقصد بها بحث المسائل المهمة وطلب المشورة . ومن واجب الملوك أن يعقدوا مجالسهم فى هذا اليوم وأن يستشيروا حكماءهم وقوادهم فيه.

واليوم الثالث « اردى بهشت » أنسب الأيام لعقد الصلح وتوثيق صلات المودة مع الناس ، وتحضير العقاقير وتناولها ، مسالمة السادة والحكام أو الملوك.

واليوم الرابع « شهر يور » هو أنسب يوم عنــد الملوك إذا أرادوا أن يعينوا كبار الموظفين والرؤساء ، والوزراء وغيرهم من موظفى الدولة . ومثل هذه التعيينات فى وظائف الدولة الخطيرة إذا تمت فى هذا اليوم صاحبها التوفيق. ومما يجدر فعله أيضا فى هذا اليوم الاحسان وتقديم المساعدة إلى الصغار والعجزة .

واليوم الخامس « ســپند ارمذ » وفيه تحسن خطبة النساء ، كما يحسن فيه الدخول بهن ، والانتقال إلى المنازل الجديدة ، واصلاح القديم ، والقيام بالمشروعات الزراعية التى تعود على الأرض بالخصب والنماء . والعمل الذى يبدأ فى هذا اليوم يحتاج إلى وقت طويل حتى يبلغ تمامه . ومواليد هذا اليوم

متصفون بالصبر والمقدرة العقلية ، والرضاء والسخاء .

واليوم السادس « خورداد » يناسب القيام بكل عمل من شأنه اصلاح الجسد أو تزيينه . ومما يحسن فى هذا اليوم بناء النافورات أو حفر الآبار وتعبيد الطرق ، وتوزيع المياه أو تخزينها ، وجمع المحصولات . ولهذا اليوم بركة يظهر أثرها فى جميع الأعمال التى يراد بها مساعدة ذوى القربى .

واليوم السابع « امرداد » وهذا هو آخر أيام الأسبوع الأول . ولهذا يتخذ يوم راحة للبدن والروح . ولا ضير على المرء إن هو أحصى دخله طيلة الأسبوع فى هذا اليوم .

واليوم الثامن « دپادار » وهو يوم خالق الكون . ويجب فى هذا اليوم أن يتفقه الناس فى شئون دينهم ، وأن يوزع القادرون الهبات .

واليوم التاسع « آذر » . ويجمل بالزردشتى فى هـــذا اليوم أن يحسن إلى الضعفاء والعجزة ، وأن يقيم الصلاة فى الأماكن المقدسة للعبادة ، وأن يقدم الهدايا لمعابد النار .

واليوم العاشر « آبان » يصلح للقيام بالرحلات البحرية ، ورى الأراضى ، وحفر القنوات ، ونزح الآبار ، وغرس الأشجار ، وبذر القمح . وهو اليوم الرئيسى فى الشهر للقيام بالأعمال النافعة للزراعة .

واليوم الحادى عشر هو يوم « خور » واسمه مستمد من الشمس ، ويعتبر من أفضل الأيام وفيه ينبغى أن يؤدى كل أمر حميد .

واليوم الثانى عشر هو « ماه » وفيـــه تقام الصلوات وترتل الدعوات .

ويكره المتدينون فى إيران أن يشغلوا أنفسهم فى هذا اليوم بأى شأن من شئون الدنيا .

واليوم الثالث عشر يوم « تير » ويجمل بالمرء فيه أن ينضم إلى أحد المعاهد ليتعلم فروع العلم المختلفة كالآداب، التنجيم، الملاحة، والعلم الخاص ببناء الجسور، وحفر الآبار، القنوات ، والقوارب والسفن وما شابه . ولزيادة العناية بالجسم والعقل يجب أن يتعلم الانسان فيه السباحة .

واليوم الرابع عشر « گوش » هو آخر أيام الأسبوع الثانى من الشهر . ويحسن فى هذا اليوم اسراج الدواب وركوب الحيوان . وفيه يستعرض الإيرانى ما عمله خلال الأسبوع فيحاول أن يكثر من كل ما يعود على جسمه وروحه بالنفع . وفى هذا اليوم يجب أن يريح الانسان الماشية من العمل ، وأن لا يقرب لحمها وإن جاز له أن ينتفع بلبنها .

واليوم الخامس عشر هو « دبمهر » . وهو يوم يغلب فيه أداء الأعمال المتصلة بالدين .

واليوم السادس عشر هو « مهر » . ويجدر بالمرء فى هذا اليوم أن يقوى أواصر المحبة مع غيره من الناس ، وأن يقيم الولائم لتعارف الأصدقاء ، وأن يرعى المذنبين ليسر لهم حياة كريمة فى المستقبل ، وأن يعفو عن المجرمين ، ويشغل النفس بأعمال الخير والبر .

واليوم السابع عشر «سروش» . ويتحتم على معتنق الزردشتية أن يتطهروا فى هذا اليوم من الآثام وأن يبتعدوا عن الخطايا . وتستحب نظافة البدن فى هذا اليوم وتمشيط الشعر .

واليوم الثامن عشر « رشن » .وليحرص الإنسان فى هذا اليوم على الصدق فى كل ما يقول ، وليتكلم بما هو حق ، ولينطق بما هو عدل ، وليعدل عن الزيف فى القول والكذب فى الوعد والحنث فى القسم .

اليوم التاسع عشر « فروردين ». وهذا يوم يغلب فيه أداء الأعمال المتصلة بالدين كتنمية الصداقة مع الناس ، صلة الرحم . . . الخ .

اليوم العشرون يوم «بهرام» . وبهرام هذا أحد الملائكة . ومن اختصاصه الاشراف على شئون الجيش ، ورايته خفاقة . وفى المعارك التى تدور بين الملائكة والشياطين ، وفى المسابقات ، وفى ميادين الصيد ترى بهرام أفضل القواد وأشجعهم . وحيثما ذهب وهب الناس الشجاعة والظفر . ويحسن فى هذا اليوم الاستعداد للقتال أو الخروج للصيد .

اليوم الحادى والعشرون هو يوم « رام » . وهو يوم فرح وسرور ويجب انفاقه فى اعداد الجيوش ، وتزيين الملابس ، وارتداء الجديد منها .

اليوم الثانى والعشرون هو يوم « واتا » (١) . وهو آخر أيام الأسبوع الثالث . ويخصص للراحة . ويجدر بالمرء فيه أن يصحب أهل الخير والتقى وأن يتعلم منهم ويقتدى بهم . ومن واجب المرء أن يخلى نفسه من الشواغل ، وأن يخلى قلبه من الهموم لأنه إن لم يفعل ذلك أثرت الشواغل والهموم فى صحته . وعلى العموم فمن الواجب أن ينأى المرء فى هذا اليوم عن كل ما يدنيه من المتاعب ليقضى يومه فى سرور و سعادة .

---

(١) Vata أو واد

اليوم الثالث والعشرون هو يوم « دبدين » . ويحسن فى هذا اليوم تفسير الدين وتعاليمه لنشره بين الناس وتشجيعهم على فعل الخير وتنفيرهم من ارتكاب الشر .

واليوم الرابع والعشرون هو « دين » ويحسن فيـــه عقد الاجتماعات أو القاء المحاضرات لحث الناس على الاخلاص للدين . ومما يصلح فعله فى هذا اليوم إعداد معدات الزواج ، أو خطبة النساء ، ونشر الثقافة الدينيه .

واليوم الخامس والعشرون « أرد » . ويجمل بأرباب الأسر وربابتها أن يزينوا فى هذا اليوم أطفالهم بالثياب أو الحلى المذهبة كما ينبغى رعاية الفقراء ومد يد المعونة اليهم .

واليوم السادس والعشرون هو يوم «اشتاذ» . وفيه يحسن إثابة المجيد ومعاقبة المسىء . وعلى الناس فى هذا اليوم أن يمتنعوا عن القتال ، وعن الشجار ، وأن يذروا البيع والتجارة ويقضوا يومهم فى عمل هادىء لا حركة فيه ولا تنقل .

واليوم السابع والعشرون هو يوم « اسمان » ويحسن فيه القيام بكافة الأعمال النافعة كالعبادة والتجارة .

واليوم الثامن والعشرون هو يوم « زامياد » . ومما ينبغى فعله فى هذا اليوم بذر البذور وغرس الأشجار وحرث الأرض وخزن القمح . ولا بأس فى أن يقوم الانسان بغير هذا من الأعمال على شرط ألا يتناول دواء قط .

واليوم التاسع والعشرون هو يوم « مهر سپند » . ومما يصلح فى هذا اليوم التعلم والتفقه ، وعلاج الأبدان . وهو من أنسب الأيام للبدء أو الانتهاء من الأعمال التى ترفع شأن الدين كتحطيم بيوت الأصنام ، والتكفير عن الذنوب ،

والعمل على ما فيه صفاء الروح وسلامة الجسد .

يوم « انران » (انه گران) وهو آخر أيام الشهر. وهو يوم راحة يستعرض المرء فيه ما عمله طيلة الشهر . ويفتتح الإيرانى يومه هذا بإعطاء الفقراء و تقديم النذور للآلهة . وفى هذا اليوم يطهر الناس أجسامهم ، ويتجملون بخير ما لديهم من ثياب ، وينصرفون عن الاثم ، ويكبتون الغضب ، وينسون الثأر ، ويفعلون كل ما فيه متعة ومسرة للبدن والروح .

گاهبارها :

ومما يتصل بالتوقيت وله أثر فى حياة الفرس الاجتماعية اعتقادهم أن الله خلق العالم فى ثلاثمائة وخمسة وستين يوما على ست فترات غير متساوية . وهذه الفترات يسمونها « گاهبارها » وواحدتها « گاهبار » . ولكل فترة من هذه الفترات اسم ، فالفترة الأولى اسمها فى لغة الزند « ميديوزارم » وتمتد هذه الفترة أربعين يوما . ويقال إن الله خلق السموات فى هذه الفترة . وتسمى الفترة الثانية « ميديوسما » وتمتد ستين يوما وفيها فجر الخالق المياه . ويقال للفترة الثالثة « پيتيسهيم » ومدتها خمسة وسبعون يوما . وفيها بسط الله الأرض . وفى الفترة الرابعة « اياتهريم » ومدتها ثلاثون يوما أنبت الله الشجر والأعشاب . وتسمى الفترة الخامسة « مدياريم » ومدتها ثمانون يوما . وفيها خلقت أنواع الحيوان . وفى الفترة السادسة التى تسمى « همشپتمهديم » والتى تمتد خمسة وسبعين يوما خلق الانسان (١) .

---

(١) معجم Steingass مادة « گاه بار » .

وهناك خمسة أيام أخرى يضيفونها فتصبح السنة عندهم ثلاثمائة وخمسة وستين يوما .

ويحتفل الفرس القدماء ببداية كل فترة من هذه الفترات . وتعد هذه الاحتفالات من أعيادهم .

ويلاحظ أن أعياد الفرس وحياتهم الاجتماعية تسودها الاتجاهات الدينية إلى حد كبير . ولذا يحسن أن نرجىء بقية الكلام إلى موضعه فيما بعد عند ما نعرض لحياتهم الدينية .

العلم والتعليم :

لم يكن العلم شيئاً مباحا لجميع الفرس على السواء بل كان متعة أرستقراطية تنعم بها طبقة خاصة وتحرم منها بقية الطبقات . وقد فرض نظامهم الطبقى على الوضيع أن يظل وضيعا مهما يكن استعداده لتلقى العلم والإفادة منه ، وفرض على ابن الوضيع أن يدور فى دائرة أبيه مهما بدا من نبوغه وذكائه . وكان نظامهم صريحا فى ألا يتعدى الفرد طبقته وألا يتجاوزها إلى ما فوقها من طبقات اللهم إلا فى بعض الأحوال الاستثنائية النادرة . ولهذا كان العلم قاصراً على الملك وأفراد أسرته والطبقة العليا من طبقات الشعب . وكتب بذلك على أبناء الطبقات الدنيا ألا يذوقوا لذة العلم . ومن الأمثلة المبينة تلك القصة التى ترويها الشاهنامة عن كسرى أنوشيروان وموقفه من الإسكاف ، ففى إحدى حروبه ضد الروم طال أمد القتال ونفد ما معه من القوت والمال . وكان لا بد له أن يهيىء لجيشه المال الكافى إذا أراد مواصلة القتال ولم يكن فى وسعه أن ينتظر حتى تأتيه الأموال من العاصمة ، فأوفد بزرجمهر إلى البلاد المجاورة ليجمع من

أهليها ما يفى بحاجة الجيش السريعة من الأموال على أن يردها اليهم كسرى بعد الحرب . وكان فى إحدى النواحى اسكاف عرض خدمته على رسول الملك وقدم له أربعـــة آلاف درهم . ولم يكن الاسكاف يطمع فى شىء نظير هذه الخــدمة سوى أن يأذن له الملك بتعليم ابنه ، فلما علم كسرى بما يطمح اليه الاسكاف رفض أن يحقق له أمنيته وأمرهم أن يردوا اليه أمواله. وكانت حجته فى هذا أن ابن الاسكاف لا يرجى منه ، ولو تعلم ، أى خــير[1] وتعلمه قد يتيح له الفرصة للتقدم والرقى فيتجاوز بذلك طبقته . وهو أمر لا يسمح به النظام القائم وقتذاك .

وكان ملوك الساسانيين يقدرون العلم حق قدره . وقد عرف عن أردشير أنه لم يستخدم فى ديوانه جاهلا ولا قليل المعرفة . وكان يهتم ببلاغة الكاتب وحسن خطه . وكلما كان الكاتب على درجة أكبر من العلم والثقافة كان حظه من الرعاية والمكافأة أوفر . وقد اصطفى أنو شيروان سبعين عالما كان كلما فرغ من شئون الملك جالسهم وناقشهم فى شتى الموضوعات . وكان له فى بلاطه مجلس للعلماء ينعقد كل أسبوع[2] .

وفى عهد الساسانيين ، وفى عهد الهخامنشيين ، كان الأطفال والشبان من أبناء الطبقات العالية ينالون نصيبهم من التعليم فى البلاط مع شبان الأسر الكبيرة وكان يشرف على تعليمهم من يلقب « آموزگار آسوران » . وكان مما يتعلمونه هناك القراءة والكتابة والحساب والأدب . وفيما يتصل بالملك ، بصفة خاصة ،

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٥٤٨ ج ٨

(٢) الشاهنامه : ص ٢٣٧٣ ج ٨

كان يلزمه الى جانب هذه العلوم أن يتعلم الصيد والطرد والرماية واللعب بالكرة والصولجان والمبارزة ودراسة سير الملوك السابقين . وفى سن الخامسة عشرة تنتهى التربية البدنية والخلقية . وعلى كل شاب فى هذه السن أن يتعلم أصول الدين من الأفستا والزند . وفى سن العشرين يتولى العلماء ورجال الدين امتحانه . وكانت الفتيات تتعلم أصول التدبير المنزلى كما وصل كثير من النسوة فى الأسر الكبيرة إلى درجة كبيرة من العلم .

* * *

وكان التنجيم من الدراسات التى تزاولها طبقة خاصة هى طبقة المنجمين . وكان لطبقة المنجمين أهمية كبرى فى بلاط الملوك فى جميع العهود . وكان الملوك يستشيرونهم فى جميع شئون حياتهم ؛ فى شأن المولود إذا ولد ، وفى نتيجة الحرب إذا أقدموا عليها ، وفى الوقت المناسب لبدئها ، وفى بناء السدود والعمار والمشروعات العامة ، وفى القيام بالرحلات ، وفى غير ذلك من الشئون . ويروى أن بلاط يزدجرد الأول كان يضم من هؤلاء المنجمين ثلاثمائة وستين .

* * *

ومن الدراسات ذات المكانة فى البلاط أو فى المجتمع الدراسات الطبية . وتعتبر الأفستا المصدر الأصيل لمعظم العلوم . فمتن الأفستا وتفسيرها الموسوم بـ « هوسپارم نسك » يشمل التفاصيل المتعلقة بالطب والأطباء وكل ما يتصل بهم . وفى نيكاذوم نسك بحث يتصل بالطب والبيطرة . وفى دينكرد شرح مختصر يتصل بالطب . ويرى مؤلفه أن السلامة قسمان : سلامة البدن ، سلامة الروح . وكانت أصول الطب الإيرانى زردشتية مستمدة من الروايات الأفستية

لكن نفوذ الطب اليونانى كان واضحاً فيها . وكان من طرائقهم المستعملة فى علاج الأمراض كما ورد فى دينكرد الطرائق الخمس الآتية : —

١ — الكلام المقدس   ٢ — النار   ٣ — النباتات

٤ — الفصد   ٥ — الكى أو الوسم

وكانت طريقة المعالجة بالكلام المقدس يعنى الأوراد والأدعية المستخرجة من الكتب المقدسة أشد هذه الطرائق تأثيراً .

وكان مما يشترط فى الطبيب أن يكون عالما بالأمراض ، وأن يدقق فى فحص المريض ، وأن يكون على علم بأعضاء البدن والمفاصل ، وأن يكون ذا اطلاع فيما يتعلق بالأدوية وخواص العقاقير . وفى هذا الكتاب « دينكرد » ذكر لما يجب أن يتصف به الأطباء ؛ أطباء الروح والجسد . وكلا الطبيبين يعنى طبيب الروح والجسد يجب أن يؤدى امتحاناً تظهر فيه مهارته وصلاحيته . أما طبيب الجسد فيشترط فيه أن يكون قد مارس هذه المهنة ونجح فيها . وعليه أن يبدأ أولا بمعالجة الكفار حتى إذا حذق طرائق العلاج شرع فى معالجة المؤمنين . ولا يصح للطبيب أن يكون جشعاً وخير الأطباء من قام بهذا العمل ابتغاء مرضاة الله ونيلا لثوابه . وكان الايرانيون يعتقدون أن سبب الأمراض والعلل هو الأرواح الخبيثة .

وفى القرن الخامس الميلادى حين طرد النساطرة من بلاد الروم لجئوا إلى ما بين النهرين وإيران وكونوا مدارس مسيحية مخصوصة اشتغلوا فيها بتدريس الطب . وكانت أشهر هذه المدارس مدرسة جنديشابور التى بقيت أيضاً بعد انقراض الساسانيين ، وظلت فى القرون الأسلامية الأولى مركزاً مهما للعلم

والطب . ومن بين الأطباء الممتازين فى العهد الساسانى برزويه . وكان برزويه هذا ،كما يتحدث عن نفسه (١) ، من أسرة عريقة ، سلمه أبواه إلى المؤدب فى سن السابعة حتى إذا حذق الكتابة مال إلى دراسة الطب وكان كلما تقدم فى دراسة الطب ازداد عليه حرصاً . ولما حذق الصناعة وهم بمداواة المرضى أخذ يسأل نفسه عما يبغيه من احتراف هذه المهنة . أهو المال أم الذكر أم اللذات أم الآخرة ؟ وكان قد وجد فيما اطلع عليه من كتب الطب أن أفضل الأطباء من ابتغى بصناعته أجر الآخرة فعزم على أن يكون من هذا الصنف من الأطباء يبتغى بعلمه أجر الآخرة . وكان على يقين من أن ابتغاء أجر الآخرة لايحرمه حظه فى الدنيا. فلم يدع مريضاً يرجى له البرء إلا أبرأه ولا مريضاً انقطع الأمل فى برئه إلا داواه وخفف عنه بعض ألمه . وكان ذلك دستور الأطباء ومثلهم الكامل .

المرأة :

للمرأة فى الشاهنامة مكانة ملحوظة . وكما أدت المرأة دورها الطبيعى فى الحياة باعتبارها أنثى برزت أيضاً إلى الحياة العامة باعتبارها مواطنة صالحة فاشتركت فى المجالس والحروب وكان لها دور إيجابى . وكما كانت وسيلة من وسائل المتعة وحدها ، وخاصة فى بلاط الملوك ،كانت أيضاً مصدراً للهوى الجارف ، والحب العفيف ، ومادة لكثير من الأساطير الخالدة فى عالم العشق العنيف الذى تسوده التضحية ، والشجاعة ، والوفاء .

ومن النساء اللاتى برزن فى الحياة العامة ، وكانت ذات عقل ورأى ، أخت

---

(١) كليلة ودمنة : ص ٧٤ ط الاميرية ١٩٣١

بهرام چوبين « گرديه » . وحين طمع بهرام فى الملك عقد لذلك مجلساً من رجاله وأتباعه . وكانوا جميعا يعرفون رغبته ويفطنون إلى ما تنطوى عليه نفسه فلم يكن أمامهم حين استشارهم سوى أن يتملقوه ويشجعوه ويهونوا الأمر عليه . ولكن أخته كانت أذكى من أن تنخدع بهذا الملق الذى صادف هوى فى نفس أخيها ، فقامت لتتكلم فى ذلك المجلس ، وسفهت رأى المخادعين المنافقين الذين يغررون بأخيها ، وحذرته من الاندفاع وراء هواه ، والأخذ بمشورة رجاله ، ونبهته إلى أنهما من أولاد المرازبة وليس يصح لأولاد المرازبة أن يطمعوا فى عرش الملك ، لأن عرش الملوك لا ينبغى أن يستقر عليه سوى الملوك ، وضربت له الأمثال بمن طمع قبله فى عرش الملوك ولم يكن له أهلا ، وذكرته برستم الذى كان بطل الأبطال فى زمانه ومع ذلك لم يطمع يوما فى الملك ولا فكر فى انتزاعه من صاحبه وكان القائد المخلص والخادم الأمين . وقد وجم بهرام حين سمع هذا الكلام وأدرك أن أخته لم تقل إلا حقا ولكن الآمال الزائفة صرفته عن الاستماع إلى النصح والرجوع إلى الحق . ودارت الحروب بين الملك وبين بهرام چوبين ، وانهزم بهرام ولجأ مع أهله ورجاله إلى خاقان الترك حيث أقام مدة هناك قتل فى نهايتها بإيعاز من الخاتون . وحين علم الخاقان بما انتهى اليه أمر بهرام حزن لذلك أشد الحزن ، وأرسل إلى أخته يعزيها ، وأراد أن يعوضها عن قتل أخيها بالزواج منها ، وكانت گرديه عاقلة بعيدة النظر فأفهمت الخاقان فى أدب وكياسة أنها لم تزل بعد فى فترة الحداد ، وأنها ستبعث اليه رأيها بعد أن تنتهى هذه الفترة . ثم إنها أخذت تفكر تفكيراً هادئاً فيما عرضه عليها الخاقان ، ورأت أن بقاءها فى أرض الأتراك لن يدوم ، وأنها ستظل ومن معها غرباء فى تلك الديار ولن يكون لحياتهم هناك استقرار

واطمئنان ولو قبلت زواج الخاقان ، وأن الأولى بها أن تعود ومن معها إلى وطنها إيران . فكتبت إلى أخيها « گردوى » وكان من المقربين فى بلاط كسرى تطلب منه أن يحدث الملك فى شأنهم ، وأن يصلح ما بينه وبينهم ، ويستصدر منه العفو عنهم حتى يعودوا إلى ديارهم. وقد نجح أخوها فيما كلفته به واستصدر لها ولمن معها العفو. ولما بلغها ذلك أمرت رجالها بالاستعداد والتجهز وخرجت ليلا من بلاد التوران . وبلغ خبر هروبهم إلى الخاقان فأرسل اليها جيشا يقوده أخوه « طورگك » . واستعدت « گرديه » للأمر ولبست ملابس أخيها بهرام وتسلحت بسلاحه . وعند ما اقترب « طورگك » من « گرديه » أراد أن يتفاهم معها بالحسنى لتكف عن مواصلة السير وترتد إلى بلاد التوران ، ولا حرج عليها إذا رفضت زواج الخاقان ، كما أنذرها بالحرب والقتال وإعادتها بالقوة إذا رفضت الاستماع إلى النصح واستمرت على العناد . فأصرت گرديه على موقفها ولم تذعن إلى التهديد وتقدمت من « طورگك » تطلب اليه المبارزة قبل القتال فإن غلبها أطاعت أمره وعادت معه . ولم يكن « طورگك » فيما يظهر قد قدر شجاعة گرديه وجرأتها وإجادتها فنون القتال فقبل ما عرضت عليه وبارزها فطعنته طعنة قضت عليه . وكان طبيعياً بعد ذلك أن ينهزم جند « طورگك » وأن تقتل منهم گرديه ورجالها عدداً عظيما . وواصلت گرديه بعد ذلك سيرها متجهة إلى إيران حيث استقبلها پرويز أحسن استقبال . ومن الطريف أنه طلب اليها أن تمثل أمامه المبارزة التى دارت بينها وبين أخى الخاقان وكيف صرعته ، فقامت گرديه إلى ملابس القتال فلبستها وأخذت رمحها ثم قفزت فوق فرسها وجالت أمام الملك فى الميدان تمثل له ما دار بينها وبين « طورگك » من الطعان.

فأعجب الملك بها وأنعم عليها بالأموال والضياع [١] .

واستطاعت المرأة فى الشاهنامة أن ترقى إلى العرش وتتولى الحكم . ومن أمثلة ذلك هماى بنت بهمن بن اسفنديار . وقد حكمت كما مر بنا من قبل اثنتين وثلاثين سنة فى العهد الكيانى . وفى العهد الساسانى نرى ملكتين هما پوران دخت بنت كسرى ابرويز وقد حكمت ستة أشهر ، وآزرم دخت التى حكمت أربعة أشهر .

ولم يكن الحب فى الشاهنامة لهوا ، أو تزجية فراغ ، أو مصدر ضعف واستخذاء بل كان ضربا من ضروب الوفاء والتضحية والقوة . وقد أشرنا فيما سبق إلى قصة بيژن ومنيژه . وقد أبت منيژه أن تفارق حبيبها بعد أن انكشف أمرهما ، فعاشت بائسة ذليلة على حافة الجب الذى ألقى فيـــه حبيبها ، تقضى يومها وليلها فى البكاء والنحيب ، وتجمع كل ما يصل إلى يدها من فتات فتلقى به من فتحة كانت فى الجب إلى حبيبها ليقتات به .

ومن قصص الحب العذبة قصة روذابة بنت ملك كابل ودستان (زال) بن سام . ومع أن مهراب ملك كابل كان من نسل الضحاك ، وكان هذا كافيا لأن يجعله من أعدى أعداء الدولة ، فقد تعاهد دستان وروذابه على الزواج مهما كلفهما الأمر . وهنا تظهر القوة فى الحب والوفاء بالعهد لأن زواجا كهذا كان يبدو أنه مستحيل بسبب العداوة التقليدية بين مهراب وبين الملك منوچهر . وكان واضحا أن « سام » من رجال الملك المخلصين وأنه لا يستطيع أن يعصى له أمراً ويقر مثل هذا الزواج الذى لا يقره الملك . وبلغ تحرج الأمر مبلغا

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٨٤٩ ج ٩

هدد معه زال بعصيان الملك ومقاومة كل اعتداء يراد توجيهه إلى مهراب والد حبيبته . ومع كل هذه العقبات والمصـــاعب التى صادفت الحبيبين فى طريق زواجهما استطاع زال فى النهاية أن ينتزع موافقة الملك على هذا الزواج الذى تم وأثمر بطلا خالدا فى تاريخ القصص الايرانى .

ومن قصص الحب الصادق ، والبذل والمخاطرة فى سبيل المحبوب قصة گلنار مع أردشير بن بابك وكانت گلنار مكلفة بالإشراف على قصر اردوان . وكان أردشير يقيم عند أردوان فى قصره فنشأ بينه وبين گلنار حب . وكان اردوان يعطف على أردشير ويربيه مع أبنائه فى القصر إلى أن حدث من أردشير ذات يوم ما ساء أردوان فنحاه عن القصر وكلفه خدمة الخيل . واستمر الأمركذلك إلى أن مات بابك . وكان أردشير ينتظر أن يحل محل جده بابك فى ملك اصطخر ولكن أردوان ولى عليها ابنه الأكبر . ورأى أردشير أن يسرع بالفرار من القصر ليستخلص لنفسه ملك اصطخر فعرض رأيه على گلنار التى شـــجعته وآزرته وعرضت عليه أن تهرب معه وأعدت له العدة للفرار وحملت من القصر من الأموال والجواهر ما يلزمهما فى رحلتهما . ونجحت خطة أردشير وگلنار واستطاع فى النهاية أن يهزم بهمن بن أردوان وأن يملك اصطخر وأن يقضى بذلك على ملك أردوان نفسه .

ومن قصص الوفاء فى الحب قصة سابور بن هرمز (ذى الأكتاف) مع جارية قيصر . وكان سابور قد ذهب متخفيا فى زى التجار إلى بلاد الروم وطلب الإذن له بالمثول بين يدى قيصر ليعرض عليه ما معه من البضاعة فلما أدخل كان بين الحاضرين رجل عاش فى إيران مدة فلما تفرس فى وجه التاجر عرف أنه

سابور الملك فأنهى ذلك على الفور إلى قيصر فأمر بالقبض عليه وألبسوه جلد حمار وحبسوه فى جناح مظلم من أجنحة القصر وأحكموا إغلاق الباب عليه ووكلوا بأمره جارية الدار . وانتهز قيصر تلك الفرصة النادرة فجمع جيوشه وأسرع إلى بلاد الفرس فغزاها واستولى عليها وقتل من أهلها خلقا عظيما وأرغم الناس على اعتناق النصرانية ، وظل مستوليا على بلاد الفرس سنين عديدة إلى أن مالت الجارية الموكلة بالدار إلى سجينها فسألها أن تساعده على النجاة والفرار فانتظرت حتى جاء عيد النصارى وشغل أهل القصر جميعا بهذا العيد فأخرجت من الاصطبل فرسين ، وزودت حبيبها بسلاح كامل وهربت معه . وقد كابدت هذه الجارية مع حبيبها ألوانا من المشاق والمخاطر حتى وصل سابور إلى بلاده وقضى على الروم وأسر قيصرهم وعاد مظفراً إلى عاصمة ملكه طيسفون .

وفى حالات قليلة حين كانت المرأة تهم باقتراف الرذيلة لم تكن الظروف تعينها على ذلك فترتد مضطرة إلى الفضيلة . من ذلك ما فعلته سوذابة بنت ملك هاماوران وزوجة كيكاوس إذ شغفها سياوش ابن زوجها كيكاوس حبا وأرادت أن تجره إلى الخطيئة ولكن سعيها لم يفلح فكانت لا تنى عن الكيد له انتقاما لكبريائها المجروح .

وكانت الشجاعة والرجولة الحقة ، وقوة الجسم والخلق من أهم الأسباب التى دفعت النساء إلى عشق من عشقن من الرجال فى الشاهنامه . فروذابه بنت ملك كابل أحبت « زال » قبل أن تراه ، وكان ما سمعته من أبيها عن جماله وكماله باعثا على هذا الحب . ومن مظاهر الرجولة والقوة فى هذا الحب أن « زال » وهو يعلم ما بين مهراب ومنوچهر من العداوة لم يخف حبه وتقدم إلى الملك

فى جرأة وصراحة يطلب اليه موافقته على الزواج من ابنة عدوه . وكان قويا حتى إنه صمم على رد كل عدوان قد يوجهه الملك إلى مهراب .

وقد أثارت شجاعة رستم وأخلاقه العظيمة ابنة ملك سمنجان « تهمينة » فأحبته وعرضت نفسها عليه تريد أن يمن الله عليها بمولود فى مثل قوة رستم وفى مثل خلقه . وقد أجابها رستم إلى طلبتها ورزقها الله سهراب الذى كان صورة صادقة لأبيه .

وصادف ، حين رحل گشتاسپ متخفيا إلى بلاد الروم ، أن حان موعد تزويج كبرى بنات قيصر واسمها كتايون . وكانت الطريقة التى ابتدعها قيصر أن يترك لبنته حرية اختيار زوجها ، وطريقته فى ذلك أن تجلس ابنته التى يحين موعد تزويجها فى إيوان ويقبل الخلق أمامها فمن وقع عليه اختيارها أعطته باقة رَيحان فيُعرف بذلك زوجها ويعقد له عليها. وكان يسمح للناس جميعاً بشهود هذا الحفل، فأراد گشتاسپ أن يشاهد هذا الاحتفال ، ووفد فيمن وفد إلى القصر، ومر فيمن مر من الخلق أمام الأميرة ، فأعجبت به وألقت عليه طاقة الريحان فأسرع الوزير عندئذ إلى قيصر يخبره أن كتايون قد اختارت زوجها من عامة القوم وإن كان رجلا رشيق القد ، جميل الطلعة ، بادى القوة . وضاق صدر قيصر حين علم باختيـــارها رجلا من العامة ، ليس له محتد كريم ، ولا أصل عريق ، وأشار بقتله وقتلها معه ، لكن الأسقف نصحه بالعدول عن الشر إلى الخير وتزويجها إياه ، فزوجها منه وأخرجها من قصره مغضوباً عليها . وعدل من ذلك الوقت عن طريقته هذه فى تزويج باقى بناته . وبعد مجموعة من الحوادث تتبين لقيصر حقيقة گشتاسپ فيقربه اليه ، ويعتذر عن مجافاته ، ويدعو اليه ابنته كتايون فيلاطفها ويأسف على ما سبق من الإساءة اليها .

وكانت تعاليم زردشت تقضى على الإيرانيين ألا يزوجوا أولادهم أو بناتهم قبل الخامسة عشرة . وكان تزويج البنت من شأن الأب فإذا لم يكن الأب حياً عهدوا بذلك إلى الأم ، فإن لم تكن هى الأخرى حية وكلوا ذلك إلى واحد من أعمامها أو أخوالها . ولم يكن للبنت حق اختيار زوجها مستقلة . وكان على الوالد أو ولى أمر الفتاة أن يسعى فى تزويجها متى بلغت سن الخامسة عشرة حتى لا تقع فى الخطيئة . وكان الوالد يتفق مع الزوج على المهر . ومن حق الزوج أن يسترد هذا المهر إذا اتضح له فيما بعد أن الزوجة لم تكن تستحقه كأن تكون عاقراً مثلا . واذا لم تتزوج البنت واتصلت برجل اتصـــالا غير مشروع كان أبوها ملزما بالاستمرار فى الإنفاق عليها ولا يجوز له أن يحرمها من الإرث نتيجة لهذا الاتصال غير المشروع . والأطفال الذين يولدون نتيجة هذا الاتصال يقع عبء نفقتهم على والد الفتاة كذلك [1] .

وكانت النظم والأوضاع الاجتماعية قد اختلت فى عهد الدولة الساسانية إبان الثورة المزدكية إذ استباح المزادكة النساء . فلما جاء كسرى أنو شيروان بدأ عهده بإصلاح الخلل الاجتماعى الذى نجم عن هذه الفتنـــة . وبحث أمر المرأة التى استباحها المزادكة فإن كانت هذه المرأة غير متزوجة أو مات زوجها فى أثناء تلك الفتنة نظر فى أمر ذلك المزدكى الذى ضمها اليه فإن كان مساويا لها فى الطبقة الاجتماعية وجب عليه شرعا أن يعقد عليها وإلا فعليه أن يتركها أو يدع لها الخيار إن شاءت اختارته لها زوجا أو رفضته . وعلى كل حال فمن واجب الرجل أن يدفع لها المهر . أما إذا كان زوج المرأة الشرعى حيا ردت

---

(١) كريستنسن : ص ٢٣١

اليه ووجب على الغاصب أن يدفع إلى المرأة مهراً يعادل ما كان قد دفعه اليها زوجها الشرعى . وأما أسر الأعيان والأشراف التى مات عنها عائلها ووقعت فى الضيق والعوز فقد أحصوا عدد أفرادها الأيتام والنسوة الأرامل وجعلوا لكل واحد منهم معاشاً يكفيه . وكان الملك يعتبر أبناء هذه الطبقة الأيتام أبناءه وكانت الدولة تقوم بتجهيز الفتيات من هؤلاء إذا تزوجن . واهتم أنو شيروان على العموم بجميع أفراد هذه الطبقة حتى تحسنت حالهم وعاد اليهم ثراؤهم وبدأت تظهر من جديد طبقة الأشراف التى تدين للملك بالطاعة والولاء (١).

وكان تعدد الزوجات معروفا فى المجتمع الإيرانى فى جميع العهود . ونتج عن تعدد الزوجات كثرة الأبناء حتى بلغوا فى بعض الحالات ثمانية وسبعين ابنا . وتروى الشاهنامة أن كيخسرو حين أراد أن يتصدى لمحاربة الأعداء منعه گيو بدعوى أن الملك إذا تصدى للحرب بنفسه وأصابه مكروه صعب على الناس أن يجدوا بعده من يخلفه على العرش أما هو - أى گيو - فأمره هين إذا قتل لأن لأبيه ثمانية وسبعين ابنا (٢) .

وكان الرجل يملك من النساء ما يشتهى ما دام على ذلك قادراً . أما الفقراء فلم يكن للرجل منهم سوى امرأة واحدة . وكان الملك على كثرة ما لديه من النساء يتخذ واحدة منهن الملكة وهى حبيبته وزوجته وصاحبة الحقوق الكاملة وتسمى زوجة الملك أو الزوجة الرئيسية . وكان يقوم بخدمتها عدد آخر من زوجات الملك . ولذا يقال للواحدة من هؤلاء « الزوجة الخادمة » أو ما يرادف

---

(١) كريستنسن : ص ٢٥٦

(٢) الشاهنامه : ص ٧٣٠ ج ٣

فى تعبيرنا العصرى وصيفة . والحقوق القانونية لكل واحدة من هاتين الزوجتين مختلفة . وواضح أن الجوارى اللاتى يشترين والنساء اللائى يؤسرن فى الحروب يكوِّن جزءاً من طبقة الزوجات الخادمات . وللزوجة الرئيسية على زوجها حق الرعاية والملاحظة ولكل واحد من أبنائها حتى سن البلوغ أو من بناتها حتى سن الزواج نفس الحق. أما الزوجات الأخريات اللاتى يطلق عليهن زوجات الخدمة فلا ينسب من أولادهن إلى أبيهم سوى الذكور (١) .

وكان لنساء الملك جناح خاص بهن فى البلاط . وكان عددهن يختلف باختلاف الملوك وفى أيام پرويز بلغ عدد ما لديه منهن اثنى عشرة الف امرأة ومع ذلك كان يخص بحبه وعشقه واحدة منهن هى شيرين .

وأباحت شريعة الإيرانيين لهم الزواج من الأخت فكانت سوذابه امرأة كيكاوس ترغب فى أن تزوج سياوش ابن زوجها من إحدى بناتها (٢) . وقد زوج گشتاسپ ابنته هماى من ابنه اسفنديار (٣) . وممن تزوج بأخته بهرام چوبين فكانت گرديه أخته وزوجته فى نفس الوقت . وأعجب من ذلك أن شريعتهم كانت تجيز للرجل أن يتزوج ابنته كما فعل بهمن الذى تزوج ابنته هماى وأوصى لها بالملك من بعده (٤) .

وكان الزردشتى القديم لا يجد مانعاً فى مؤاكلة امرأته أو أمه أو اخواته

---

(١) كريستنسن : ص ٢٢٧

(٢) الشاهنامه : ص ٥٣٦ ج ٣

(٣) الشاهنامه : ص ١٥٤٠ ج ٦

(٤) الشاهنامه : ص ١٧٥٦ ج ٦

بل كان يذهب إلى أبعد من هذا إذ كان يأخذ امرأته معه إلى الحفلات والولائم بعكس ما هو حاصل بين الزردشتيين اليوم فى الهنـــد ، فإنهم إلى عهد قريب تعودوا أن يأكلوا على انفراد دون أن تشاركهم زوجاتهم . وقد يجتمع رجال الأسرة إلى مائدة الطعام فيتناولونه منفردين عن النساء اللاتى يجتمعن كذلك لتناوله وحدهن . وقد أخذ زردشتيو الوقت الحاضر هذه العادة عن الهندوس لأن أسلافهم من الفرس القدماء لم يكونوا يعرفونها (١) .

وكان من عادة الإيرانيين القدماء إذا ولد لهم مولود أن يحضر أبوه ويسر اسمه فى أذنه فلا يسمعه أحد ويعلن أمام الناس اسماً آخر يشتهر به المولود . وقد فعل مثل ذلك پرويز إذ سمى ولده سراً باسم قباد وأعلن أمام الملأ أن اسمه شيرويه (٢) .

وتعتبر المرأة بعد الولادة نجسة لمدة أربعين يوما . ولا يحل لها خلال هذه المدة أن تمس شيئاً أو تلمس أحداً من أفراد العائلة حتى زوجها نفسه ، ولا يجوز لها أن تسير فوق البسط . ويجب أن تكون أرض غرفتها عارية . وبعد اليوم الأربعين تستحم المرأة ويحل لها عند ذاك أن تختلط بسائر أفراد الأسرة . وكل ما استعملته المرأة من أدوات أو لبسته أو مسته خلال هذه الأربعين يوما ألقى أو أهمل لنجسه . وقد بدأ الزردشتيون اليوم يتنبهون إلى ما فى نبذ المرأة خلال هذه المدة وإفرادها فى حجرة خاصة بها لا تقرب أحداً ولا يقربها أحد من ضرر وأذى لها ولكنهم لم يجرءوا على مخالفة هذه العادة إلا فى الحالات

---

(١) Karaka : History of the Parsis vol. I p. 126

(٢) الشاهنامه : ص ٢٨٥٧ . ج ٩

القاسية التى يشتد فيها ضعف المرأة أو يصيبها مرض تتعرض معه حياتها للخطر. عند ذاك فقط يعطف عليها أهل الأسرة ويزداد اتصالهم بها ورعايتهم لها ويعتقدون أن خروجهم على العادة فى مثل هذه الحالة لا يعد إثما أو خروجا على تعاليم الدين. وإذا مست المرأة أحداً خلال الأربعين يوما فعليه أن يتطهر وأن يغير ملابسه . وفى الوقت الحاضر إذا اضطر أحد زردشتيى الهند أن يدعو طبيبا أوربيا لعيادة امرأته وفحص المولود تحاشى أن يصافح الطبيب عند خروجه ووقف بعيداً عنه يشير له الى طريق الخروج لأن الطبيب بفحصه للأم ومولودها قد أصبح نجساً . أما إذا كان الطبيب زردشتياً فإنه فى بعض الأحوال إذا فرغ من مهمته اغتسل واستحم وغير ملابسه قبل أن يغادر المنزل . ويقابل فعل هذا الطبيب بالاستحسان والتقدير من أهل المنزل وخاصة من العجائز [١].

وكانوا إذا ولد المولود وزعوا الصدقات . وفى أول الأمر كثر بينهم تسمية الأطفال بالأسماء الدينية مثل اسم الله (هرمزد) وأسماء الملائكة مثل وهرام (ورثراغنا) ونرسى (نيريوسنها) أو باسم مركب من اسمى ملكين مثل مهرنرسى (ميثرا + نيريوسنها) . وقد يختارون للمولود اسما يبين شرف نسبه مثل شاهپورهر (شاه پور) أو اسما يتفاءل به مثل پيروز . وكانت أسماء النساء تختم غالباً فى العهد الساسانى بكلمة دخت « دختر » مثل هرمزد دخت ، يزدان دخت ، وآزرميدخت . ومنذ أواسط القرن الخامس الميلادى استعملوا أسماء أبطال الأقاصيص القدماء مثل رستم ، سياوش مما يدل على افتخار

---

(١) Karaka : vol. I p. 156

الإيرانيين زمن الساسانيين بماضيهم القديم .

وكان واجبهم يقضى بابعاد الطفل عن كل ما يصيبه بالضرر فلا تقترب منه مثلا امرأة حائض لأن هذا مما يسبب شقاء الطفل وسوء حظه فى الحياة حسب اعتقادهم . وكانوا يتخذون من النار والضوء وسيلة يبعدون بها الشيطان عن المولود خصوصا فى الليالى الثلاث الاولى لمولده كما كانوا يسقون الطفل عصارة نبات الهوم . وتتولى أم الطفل تربيتـــه فإن منعها من ذلك مانع عهد الوالد إلى أخته أو ابنته الكبرى بذلك . (١)

---

(١) كريستنسن : ص ٢٢٩

١٤ — الحياة الدينية فى الشاهنامه (١)

كان الإيرانيون قبل أن يتخذوا الزردشتية ديناً لهم يتجهون كغيرهم من الآريين إلى عبادة القوى الطبيعية . وكان أهم آلهتهم فى ذلك الوقت « مثرا » آله الشمس و « أناهيتا » آلهة الخصوبة والأرض و « ها أوما » وهو الثور المقدس الذى يزعمون أنه بعد أن أوشك على الهلاك ارتد حيا وقدم دماءه للبشر يشربونها فينعمون بالصحة والقوة والخلود (٢) .

ويذكر الثعالبى أن الملوك قبل بشتاسف (گشتاسپ) كانوا على دين الصابئين فكانوا يعبدون الكواكب ويخصون النيرين والسعدين بالتعظيم (٣) . ويؤيد هذا أيضا ما ذكره البيرونى من أن الملوك البيشدادية وبعض الكيانية ممن كان يستوطن بلخ يعظمون النيرين والكواكب وكليات العناصر ويقدسونها إلى وقت ظهور زردشت عند مضى ثلاثين سنة من ملك بشتاسب . وبقايا

---

(١) رغبة فى الاختصار نذكر هنا أهم مصادر هذا الفصل ، بالاضافة إلى ما ذكر فى ذيل الصفحات

مزديسنا وتأثيرآن در ادبيات فارسى : محمد معين .

ايران در زمان ساسانيان : كريستنسن وترجمة رشيد ياسمى

Karaka : History of the Parsis.

J. H. Moulton : The Teaching of Zarathushtra Bombay 1917.

J. Darmestetér : Essai Sur la Mythologie de l'Avesta.

K. S. Guthrie : The Hymns of Zoroaster usually called the Gathas

(٢) قصة الحضارة الفارسية : ول دورانت وترجمة الدكتور ابراهيم أمين ص ٣٩

(٣) الغرر : ص ٢٥٨

أولئك الصابئة بحران ينسبون إلى بعضهم فيقال لهم الحرانية [١].

ولكن كلام الفردوسى فى شاهنامته يدل فى أكثر من موضع على أن ملوك الإيرانيين الذين عاشوا قبل زردشت كانوا يعبدون الله . وهذا خطأ وقع فيه الفردوسى فما من شك فى أن الإيرانيين القدماء كانوا كما ذكرنا من قبل مشركين يعتقدون فى تعدد الآلهة .وقد جر الفردوسى إلى هذا الخطأ أنه كان ينظم شاهنامته من الشاهنامة المنثورة لأبى منصور عبد الرزاق. ولما كانت هذه الشاهنامة المنثورة قد اعتمدت فى مادتها على خداينامه الساسانية فمن المرجح أن يكون مؤلف خداينامه وهو زردشتى قد أراد بدافع التعصب لدينه والفخر بملوكه الأقدمين وأسلافه الماضين أن يضفى عليهم صفة التوحيد وينزههم عن وصمة الشرك . ومن هنا نرى سبب هذا الخطأ الذى وقع فيه الفردوسى لأنه نظم عن الشاهنامة المنثورة التى نقلت بدورها عن خداينامه .

ومن القوى الطبيعية التى عبدها الفرس قبل زردشت النار . وينسب الفردوسى عبادتها إلى هوشنگ حين رمى الحجر ليقتل الحية التى رآها فى الجبل فوقع الحجر على صخرة أخرى فتولدت من احتكاكهما النار. وكانوا قد أقاموا المعابد لهذه النار حتى أن لهراسب قد اعتكف فى أحد بيوت النار فى بلخ . وحين أراد كيخسرو أن ينقطع عن الدنيا للعبادة اختار هو الآخر بيتاً من بيوت النار .

---

(١) الآثار الباقية : ص ٢٠٤ ط ليبزج

زردشت :

اختلف العلماء فى أمر زردشت بين مثبت لوجوده وبين منكر . وحتى الذين أثبتوا وجوده اضطربوا فيما بينهم اضطرابا كبيراً فى كل مايتعلق بحياته . ولعل من الأسباب التى دعت إلى هـذا الاختلاف والاضطراب فى أمر زردشت وجود ستة من الحكماء والفلاسفة بهذا الاسم عاشوا فى أوقات مختلفة وبلاد مختلفة .

ومن أمثلة اختلافهم فيما يتعلق بحياته تاريخ مولده . فهوج Haug مثلا يرى أنه ولد حوالى سنة ١٠٠٠ ق. م. وأحـد العلماء الزردشتيين وهو Kharshedji Rastamji Kama يرى بعد اطلاعه على مصادر يونانية ويهودية وبعض نقوش أخرى أن زردشت كان يعيش قبل الميلاد بألف وثلاثمائة سنة. ووليام جاكسون يرى أنه ولد فى سنة ٦٤٠ ق. م. وكذلك وقع الخلاف بينهم فى محل ميلاده ومكان نشأته الأولى . فزعم بعضهم أنه من أهل فلسطين ثم لحق ببلاد آذربيجان . وقال بعضهم إنه من العجم (١) . ويذكر الشهرستانى أن أباه كان من آذربيجان وأمه من الرى (٢). والراجح أن زردشت قد ولد فى الرى من إقليم ميديا ثم رحل بعد ذلك إلى بلخ .

وكان زردشت من أسرة سپيتاما Spitama التى يقال إنها من سلالة الملك فريدون أحد ملوك الدولة الپيشدادية (٣) . وتسميه الافستا فى بعض الأحيان

---

(١) ابن الاثير : ص ١٠٠ ج ١ .
والطبرى : ص ٦٤٨ ج ٢ ط بريل .
(٢) الملل والنحل : ص ١٤٠ ج ١ ط العنانية .
(٣) فى الغرر أن نسبه ينتهى إلى منوچهر ص ٢٥٧

زردشت سپيتما أى زردشت الذى من نسل سپيتما . واسم أبيه پوروشاسپا Pourushaspa . ولا تتحدث الأفستا عن أمه ولكن يتضح من بعض نصوص پهلوية أنها كانت تدعى دغهو ويسميها الشهرستانى دغد [١] .

وكان زردشت يميل فى شبابه إلى التأمل فى المسائل الفلسفية العميقة والظواهر الكونية . وفى سن الثلاثين كلف أن يبشر الناس بدينه الجديد ، فترك مسقط رأسه فى الرى واتجه إلى بلخ فى عهد الملك گشتاسپ ، وكان ذلك فى السنة الثلاثين من حكم هذا الأخير . وقد آمن گشتاسپ بدين زردشت الذى بشره به ولم يكتف بذلك بل أخذ على عاتقه أن ينشر الدين بين الناس وبين غيره من الملوك . وكان أول من آمن بزردشت فى بلاط گشتاسپ وزيره الأول فراشسترا والحكيم جاماسبا . وقد طاف هذان الحكيمان جميع أنحاء إيران مبشرين بالدين الجديد ونجحا فى ضم أهل إيران إلى هذا الدين . وكان مما ساعد الناس على الدخول فى الدين الجديد اقتداؤهم بملكهم ورجال بلاطهم وخاصة قومهم .

ولا تقدم الأفستا شيئاً عن الأيام الأخيرة من حياة زردشت ولكن المصادر الپهلوية والفارسية تذكر أنه استشهد مع لهراسپ فى الهجوم الثانى للتورانيين على مدينة بلخ . وكان فى ذاك الوقت يتعبد فى معبدها . ويذكر الفردوسى أن التورانيين بعد أن استولوا على بلخ دخلوا معبد النار فقتلوا لهراسپ وزردشت والهربد [٢] . وكانت سنه يوم قتل سبعاً وسبعين سنة قضى

---

(١) الملل والنحل : ص ١٤٠ ج ١ .

(٢) الشاهنامه : ص ١٥٦٠ ج ٦ ويطلق الفردوسى على زردشت فى هذا النص كلمة «رد» بمعنى الرجل الجرىء الحر الشجاع .

منها فى الدعوة إلى دينه سبعاً وأربعين سنة .

الافستا :

جاء زردشت بالكتاب المعروف بالأفستا . ويسميه المؤلفون العرب « الأبستاق »[1] وكان هذا الكتاب فى أول أمره ضخما فلما غزا الاسكندر إيران ضاع منه شىء كثير . وفى العهد الأشكانى حاول بلاش جمع ما تفرق من هذا الكتاب وانتهى الأمر إلى أردشير فى عهد الدولة الساسانية فأعاد المحاولة واستطاع أن يجمع من هذا الكتاب قدراً دونوه فى واحد وعشرين مجلداً أو نسكا . ولكن هذا القدر المجتمع فى هذه المجلدات قد عاد إلى التبدد والضياع مرة أخرى . ولم يبق من الأفستا فى الوقت الحاضر سوى خمسة كتب أو أجزاء هى : ١ - يسنا ٢ - ويسپرد ٣ - ونديداد ٤ - يشتها ٥ - خورده أفستا .

أما الـ « يسنا » فهو أهم هذه الأجزاء . ومعنى يسنا العبادة والحمد والصلاة . ومجموع اليسنا اثنان وسبعون فصلا . ويقال أيضا لكل فصل من هذه الفصول « ها » وهناك من بين هذه الفصول سبعة عشر فصلا تضم المقطوعات المنظومة المعروفة باسم « گاثا » فى الأفستية و « گاس » فى البهلوية . والگاثا هى أقدم وأقدس أقسام الأفستا . وهى مقطوعات موزونة تشمل دعوات قصـــيرة وترتيلات . وتعبر هذه الدعوات والترتيلات عن أفكار فلسفية وموضوعات ميتافيزيقية . وقد عرف من قديم أن الگاثا من كلام زردشت فجعلوا لها

---

(١) التنبيه والاشراف : ص ٨٠

مكانة خاصة ، ولكن التحقيقات التى قام بها العلماء أمثال Meillet أثبتت أن هذه الأناشيد ليست من كلام زردشت . وأشعار الگاثا هذه من أقدم الآثار القديمة التى بقيت لنا فى العهد الحاضر . ولا ترتل اليسنا وما تضمه من أناشيد « الگاثا » إلا فى احتفالات وطبقا لطقوس خاصة .

وأما « ويسپرد » فلا يمكن اعتباره كتابا مستقلا ويمكن أن يقال إنه مجموعة من ملحقات اليسنا لا تنشد بدونها . وكل فصل من فصول ال « ويسپرد » يقال له « كرده » بمعنى باب أو فصل . وقد اختلف الباحثون فى عدد الأبواب التى يتكون منها ويسپرد بين ٢٣ و ٢٧ بابا . وترتل الابتهالات والدعوات الواردة فى ال « ويسپرد » فى الأعياد التى تقام فى المناسبات المختلفة كأعياد المواسم الستة فى السنة وهى عيد خلق السماء ، وعيد المياه ، وعيد الأرض ، وعيد الأشجار، وعيد الحيوان ، وعيد الإنسان [١] .

وأما « ونديداد » فموضوعاته مختلفة ويقال لكل فصل منها « فرگرد » ومجموع فصوله اثنان وعشرون. ويقسم هوج هذه الفصول إلى ثلاث مجموعات حسب موضوعاتها . فالمجموعة الأولى تدور أغلب موضوعاتها عن الممالك الست عشرة التى انتشرت فيها ديانة زردشت ، وعن أسطورة الملك ياما ، وعن التوصيات الخاصة بالزراعة باعتبارها خير حرفة يحترفها الرجال . والمجموعة الثانية تدور أغلب موضوعاتها حول الأمور الدينيــة والطقوس المختلفة . والمجموعة الثالثة تضم موضوعات شتى مثل محاولة الشياطين عرقلة أعمال

---

(١) راجع فيما سبق ص ٢٢٢ .

زردشت ، حظ الروح بعد الموت ، ووسائل علاج الأمراض وغير ذلك من الموضوعات .

وأما « يشتها » (١) أو اليشتات (٢) فكانت فى الأصل منظومة منقسمة مثل الـ « گاثا » إلى قطعات وأبيات . وقد بقى منها حتى الآن واحد وعشرون يشتا بعضها قصير وبعضها طويل . وهى تراتيل فى صورة ابتهالات للملائكة التى تسيطر ، بإشراف الإله الأعلى ، على جميع الظواهر الكونية والقوى الإنسانية . وفى اليشتات ثناء موجه إلى كل ملاك من ملائكة الله على حدة . ويتخلل هذا الثناء ذكر ما أداه هذا الملاك من المساعدات لكثير من الشخصيات القديمة المشهورة . ومن ثم كانت هذه اليشتات على جانب عظيم من الأهمية من حيث أنها سجل لحياة وأعمال كثير من تلك الشخصيات . ولذا نجد فى هذه اليشتات، إشارات وتلميحات تاريخية عن حياة وأعمال كثير من ملوك البيشداديين والكيانيين من عهد گيومرث إلى عهد گشتاسپ . والحديث الخاص بهؤلاء الملوك فى اليشتات يتفق إلى حد بعيد مع ما ذكر عنهم فى الشاهنامة .

وأما « خورده أفستا » أو الأفستا الصغيرة فتشمل جميع ما بقى من قطع الزند أفستا (٣) . وقد دونها فى زمان شابور الثانى (٣١٠ — ٣٧٩ م) الموبد

---

(١) يشت ، ونديداد ، ويسپرد ، يسنا وغيرها من الأسماء التى سموا بها الواحد والعشرين جزءاً التى جمعوها من الأفستا مأخوذة من إحدى وعشرين كلمة كانت تتألف منها إحدى صلوات زردشت القديمة المقدسة المسماه Yatha Ahu Vairyo . ومعظم هذه الكلمات لا يعرفها الزردشتيون فى الوقت الحاضر .

(٢) مفردها يشت .

(٣) للافستا شرح يسمى الزند . ولهذا الشرح «زند» شرح آخر يسمى «پازند»

موبذان آذر بذ مهراسپند . وترتيل الأفستا الصغيرة (ماعدا التبريكات) ليس مما يختص به الموابذة وحدهم فيستطيع أى رجل أن يرتلها جميعها أو أى جزء منها وليس شرطا أن يصاحب ترتيلها طقوس أو احتفالات معينة .

وتشمل الأفستا الصغيرة الأدعية الخمسة (نيايش) وهى أدعية لتمجيد الإلـه على بديع صنعه وجميل فعله . والدعاء الأول والثانى منها هو دعاء الشمس (خورشيد ومهر نيايش) ويرتلونه فى الفجر ، والدعاء الثالث هو الدعاء الخاص بالقمر (ماه نيايش) ، والرابع خاص بالمياه (ابان نيايش) والخامس للنار (آتش نيايش) .

كما تشمل الأفستا الصغيرة التبريكات (آفرينگان) . وهذه التبريكات هى التراتيل الوحيدة فى الأفستا الصغيرة التى يختص رجال الدين وحدهم بترتيلها . وتصاحبها أثناء ترتيلها بعض الطقوس الخاصة . ويتخذ مرتلو هذه الترتيلات مجلسهم فوق سجادة تفرش على الأرض ويصف فوقها الفواكه أو الزهور ، وأكواب اللبن ، والماء ، والشراب . ويراد بترتيل هذه التبريكات تذكير الأحياء بمن مضوا من أهاليهم وأقربائهم أو طلب المساعدة من الإلـه .

العقيدة الزردشتية :

قلنا فيما سبق إن الإيرانيين القدماء كانوا يعبدون القوى الطبيعية فلما جاءهم زردشت دعاهم إلى عبادة إلـه واحد هو أهورامزدا . والذى يمعن النظر فى تاريخ التطور الدينى يشعر أن زردشت لم يبتدع عبادة الإلـه الواحد ابتداعا فقد كان لهذا الاتجاه بذور موجودة من قبل إذ وجد بين الأقدمين من كان يؤمن بوجود إلـه عظيم يسيطر على هذا الكون ويوجهه وليس هذا الإلـه واحداً من تلك

الظواهر الطبيعية التى يعبدها الآريون كالشمس والسماء والرعد وغير ذلك ، ولكنه يكمن وراء كل هذه الظواهر يتصرف فيها دون أن يُرى . ومن هذا نرى أن زردشت وجد بذرة مهيأة فأخـــذها ونماها وأضاف اليها . وأكد زردشت أن الإلـه (اهورامزدا) هو خالق الكون كله .

ويسمى زردشت الإلـه «اهورامزدا» مع أن كلمة الإلـه عند معظم الشعوب الآرية مشتقة من أصل آرى قديم جداً هو « ديو » المأخوذ من الإشراق والضياء ، فلماذا عدل زردشت عن تلك الكلمة القديمة وفضل أن يستعمل بدلها فى الدلالة على الله كلمة « اهورامزدا » . لعل زردشت حين رأى الناس فى عهده يميلون إلى الشرك ويستعملون كلمة ديو بمعنى إلـه لكثير من الظواهر التى يعبدونها والتى هى من خلق الله وصنعه تحاشى أن يستعمل هذه الكلمة فى الدلالة على الله حتى لا يستمر ارتباطها فى أذهان الناس ، بعد اعتناقهم الدين الجديد ، بمعانى الشرك وتعدد الآلهة كما كانت الحال من قبل . بل إنه خطا خطوة أخرى مضادة وجعل لهذه الكلمة « ديو » مدلولا جديداً مكروها هو الشيطان حتى ترتبط معانى الشرك والتعدد بالشيطان لا بالإلـه . ومما يؤيد هذا أن مجموعة اللغات الآرية تستعمل « ديو » فى الدلالة على الله بينما يستعملها الزردشتيون فى الدلالة على الشياطين والأرواح الشريرة .

* * *

وإذا انتقلنا الآن إلى الحديث عن عقيدة الزردشتين وجدنا أن فكرة الثنوية هى أبرز الافكار المتصلة بهذه العقيدة حتى ذهب كثيرون فى تفسير هذه الفكرة إلى أن هناك قوتين تسيطران على هذا العالم أحداهما قوة الخير

والثانية قوة الشر . وذكروا أن كل ما فى العالم من خير يرجع إلى قوة الخير أو إلـه الخير وأن كل ما فى العالم من شر يرجع إلى قوة الشر أو إلـه الشر ، وأن هاتين القوتين تتصارعان وتتنافسان فى جذب الناس وإغرائهم بالانضمام إلى واحدة منهما . وستكون الغلبة فى النهاية للخير وسيحيق البوار بقوة الشر ومن انضم اليها . وتصوير الفكرة على هذا النحو غير دقيق . ومن ثم وجب أن نقف عندها قليلا .

إذا تركنا معظم المصادر الفارسية أو الزردشتية ورجعنا إلى أغلب المؤلفات الاسلامية أو الأوربية وجدنا أنها تنص بصراحة على أن الدين الزردشتى دين توحيد . فالقلقشندى يذكر مثلا عند كلامه على زردشت أنه ادعى النبوة وقال بوحدانية الله تعالى وأنه واحد لاشريك له ولاضد ولاند وأنه خالق النور والظلمة ومبدعهما .[١] ويذكر الثعالبى أن الكتاب الذى جاء به زردشت كان فى التسبيح لله وتمجيده وفى الأخبار الماضية والكائنة .. الخ.[٢]

وإذا كنا نوافق على أن زردشت قد دعا إلى عبادة الإلـه الواحد كما يتبين من نصوص كثيرة زردشتية وإسلامية وأوربية فإننا لايمكن أن نوافق على ما ادعاه زردشت من أن هذه الفكرة ، فكرة الايمان بوجود إلـه واحد ، قد جاءته عن طريق الوحى الإلـهى . وذلك لأننا ذكرنا فيما سبق أن هذه الفكرة كانت موجودة بين طائفة من الآريين قبل زردشت، فلم تكن إذاً وحيا إلـهيا يدعى زردشت أنه خص به ، وفضلا عن ذلك فإن هذه الفكرة فى ذاتها يسهل

---

(١) صبح الأعشى : ص ٢٩٣ ج ١٣ ط الاميرية ١٩١٨

(٢) الغرر : ص ٢٥٧

على كل عاقل متدبر فى شئون الدنيا ومتأمل فى نظام الكون أن يهتدى اليها بالعقل والفطرة السليمة . وإدراك أن هناك قوة عليا تسيطر على هذا الكون وتدبره وتسيره وفق نظام خاص ليس مما يحتاج إلى وحى إلهى وإنما يحتاج إلى ذكاء عقل وعمق تأمل . كما أننا لا يمكن أن نوافق على أن الكتاب الذى جاء به زردشت كتاب أنزل عليه من السماء كما يدعى . وهذا مولتون يذكر أن زردشت قد بدأ دعوته وعنده ميراث ورثه عن أسلافه فى الناحية الدينية وهو الإيمان بوجود إله قوى غير ظاهر . وهذا الإله ليس القوى الطبيعية الظاهرة . وأضاف زردشت كثيراً إلى هذه العقيدة التى ورثها . (١)

إذاً فما دمنا نوافق على أن زردشت بذكاء عقله ، وعمق تأمله قد أدرك أن لهذا الكون إلهاً واحداً يدبره وينظمه فمن أين جاءت فكرة الثنوية وكيف نشأت .

كانت ديانة زردشت قائمة على الإله الواحد « اهورامزدا » الخالق الحاكم المسيطر على الكون ، الخفى ، الذى اليه يرفع كل ثناء على مافى الكون من خير أو جمال واليه يرفع الرجاء والضراعة . ولا يصور الزردشتيون الإله فى أى صورة يعبدونها ولا يتخذون له هيئة أومنظراً أو لونا ، فهو عندهم ضياء لانهائى يفيض عنه كل جلال ، سخاء ، حسن . ويعتبرونه أقوى وأعدل وأكرم من فى الوجود ، وأفضاله لاحدلها ، وأى ثناء أوعبادة لأى كائن غيره كفر وبهتان . ويصف زردشت الإله بأنه خالق الأرض والحياة ، وسيد الكون ، فى يده جميع المخلوقات ؛ وهو الضياء ومصدر الضياء ، وهو الحكمة والعقل . وبيده كل خير فى هذا العالم .

---

(١) Moulton : The Teaching of Zarathushtra p. 12

وهو الذى يكافىء المحسن ويعاقب المسىء .وكل مافى هذا الكون من حسن أو قبح ، سعادة أو شقاء فإليه مرجعه . وقد خلق الله روحين أو ملكين يعملان بأمره أحدهما يسمى سپنتو منيوش Spento Mainyush وهو الملك أو الروح المكلف بشئون النمو والزيادة والتكاثر والآخر يسمى انگرو مينيوش Angro Mainyush أو أكامينو وهو الملك المختص بشئون النقص والهلاك . وهذان الروحان يعملان على الدوام تحت سيطرة الإله الواحد . وهذا الإله هو الذى يخلق وهو الذى يهلك عن طريق هذين الملكين . والذين ادعوا أن دين زردشت يدعو إلى الثنائية أساءوا الفهم . وكان سبب هذه الاساءة فى الفهم أنهم خلطوا بين عقيدة زردشت التى تؤمن بالإله الواحد وفلسفته التى اتخذها لتفسير ها تين القوتين اللتين تتصارعان فى مجالين متضادين . وقد دعاه إلى ابتداع هذه الفلسفة ما لاحظه من أن المسألة التى لفتت أنظار الناس من قديم الزمان هى وجود النقائص والشر إلى جانب الفضائل والخير . وهداه فكره لتوضيح هذه الظاهرة إلى تصويرها بهذه الصورة الثنائية . وكل مافى الكون من خير يصدر بطبيعة الحال عن الإله بوساطة الروح أو الملاك المختص وكل مافى الكون من شر يصدر كذلك عن الإله بوساطة الروح المختص . ويجب أن نذكر هنا أن كلا الملكين لا يمكن أن يعمل ضد إرادة الإله لأنه مأمور بأمره . وال Spento Mainyush هو الذى يصدر عنه كل ماهو مشرق فى هذا الكون وكل ما هو خير ونافع بينما يصدر عن الـ انگرو مينيـوش Angro Mainyush كل ماهو مظلم وضار . والأول يدفع الناس إلى العمل والثانى يدعوهم إلى النوم والكسل والحياة تخلق بأمر الله على يد الأول سپنتو وتنطفىء

بأمر الله على يد الثانى انـگرو. وهكذا نرى أن وجود ملـكين يعملان فى اتجاهين مختلفين تحت سيطرة إلـه واحد ليس معناه الثنائية.

وقد تصورت فلسفة زردشت وجود ستة ملائـكة آخرين يعاونون ملاك الخير والبركة «سپنتو» يقال لهم «امشا سپندان» وهؤلاء الملائـكة هم :

١ ـ اشاوهيشتا ويمثل الصدق والاستقامة

٢ ـ هومنو « طهارة القلب والفكر والقول والعمل

٣ ـ هوخشترا « الاقتدار والملك والغنى والثروة

٤ ـ سپنتا آرميتى « العشق والمحبة والتواضع والطاعة لله

٥ ـ هروتات « الكمال فى الدنيا

٦ ـ امرتات « الخلود والدوام (١)

ويبدو من أسماء هؤلاء الملائكة وما يمثلونه أنهم لم يكونوا سوى أسماء وأفكار معنوية تمثل صفات الله التى يهبها للمتقين من عباده.

وازاء قوى الخير هذه «امشاسپندان» هناك أيضاً عمال الشر الذين يعاونون اهريمن ويسمونهم «كماريكان». ويقوم كل واحد من هؤلاء بنشر جملة مفاسد وشرور فى العالم كالنفاق والخداع وتضليل الناس وبث الضعف والفوضى والعصيان والطغيان ..... الخ.

ومن أعوان اهريمن علاوة على هؤلاء الـ «كماريكان» عدد من الشياطين «ديوان».

---

(١) اخلاق ايران باستان : ص ١٢

وقد كان لشيوع فكرة التضاد والثنوية أثرها فى الأدب الفارسى. فنسبت الأفعال الطيبة إلى الآلهة والملائكة ، والصفات المرذولة إلى أهريمن وأتباعه من الشياطين « ديوان » .

* * *

وتعنى ديانة زردشت كذلك بنوعين من الحياة : الحياة الأولى والحياة الآخرة أو حياة الجسد وحياة الروح . والزردشيتون يعتقدون فى الحياة الآخرة ، ولذا تسود هذه الفكرة أناشيد الـ « كاثا » وجميع الأدب الأفستى . ويؤمن الزردشتيون بالثواب والعقاب فى الحياة الأخرى أو بالسماء (الفردوس) والجحيم . ففى الـ « كاثا » النشيد ٣٠ فقرة ١١ نرى زردشت يحدث الناس قائلا : إذا عرفتم أوامر الله فيما يتعلق بالقوتين : قوة الخير والشر ، وعرفتم أن الأولى معناها النجاح ، والثانية معناها الشقاء وأن الذين يؤمنون بالأولى ينعمون بالسعادة والذين يؤمنون بالثانية وهم المنافقون الكذابون أعد لهم عذاب أليم . أقول لكم ما دمتم قد عرفتم الفرق بين الاثنين فلن تترددوا فى الدخول إلى موطن الحمد والثناء [1] . وفى النشيد الحادى والثلاثين الفقرة ١٤ يتساءل زردشت عن الجزاء الذى أعده أهورامزدا للذين يتبعون طريق العدل وعن الجزاء الذى أعده للذين يتبعون طريق الكذب وكيف يكون موقف كل منهما يوم الجزاء. وفى الفقرة ١٥ يتساءل عن العقوبات التى أعدها لأولئك الذين يؤيدون أهل الضلال والنفاق وعن العقوبات التى أعدها لأولئك الذين لا يستطيعون العيش بغير القسوة على الماشية . وفى الفقرة ١٨ من نفس النشيد يجيبه أهورامزدا أن اتباع أهل الضلال مؤد إلى هلاك البلاد والعباد وأن

---

(١) Guthrie : The Hymns of zoroaster

على زردشت أن يحاربهم بالسلاح . وفى الفقرة ٢٠ يرد عليه أهورامزد بأن الهلاك والظلمة الأبدية واللعنات ستكون فى اليوم الآخر من نصيب أهل الكذب والنفاق. وفى الفقرة ٢١ يعد اهورامزدا الذين ينصرونه بالفكر والعمل بأن لهم الصحة الكاملة، والخلود، والعدل، والقوة وفى النشيد ٤٦ يتحدث عن الصراط وعن جزاء المحسنين فى الآخرة ، وانهم صائرون إلى الفردوس (السماء) بينما يصير الكاذبون المضللون إلى جهنم . واسم السماء فى الگاثا «گرودمانا» Garodemana أى بيت الأناشيد لأنهم يعتقدون أن الملائكة يرتلون أناشيدهم هناك . والسماء عندهم هى مقر الاله والأتقياء من الناس . ومن أسماء السماء الشائعة عندهم آهوڤهشتا (الحياة المثلى) التى اختصرت فيما بعد إلى ڤهشتا وصارت بالفارسية بهشت بمعنى الفردوس. وتسمى الگاثا الجحيم «دروژو دمانا» أى بيت الهلاك والإبادة . وللجحيم اسم آخر دوزنها . وفى الفارسية الحديثة دوزخ . وبين الفردوس (السماء) والجحيم جسر تستطيع أن تمر عليه أرواح الأخيار فقط بينما يسقط الأشرار فى الجحيم .

* * *

وتعنى الزردشتية بالنواحى الخلقية وتتلخص فلسفتها فى الدعوة إلى الخير فى الفكرة وفى اللفظة وفى الفعلة . ومن الواجبات التى تفرضها هذه الفلسفة على الزردشتى أن يفكر فى الخير، وأن يقول الخير وأن يفعل الخير. وتشبه الزنداڤستا الفضيلة والخير بأنها رداء يشرف به مرتديه ، وتشبه الرذيلة بأنها كساء يخجل منه مرتديه. ويعد زردشت الصدق من أسس السعادة ، والكذب من أبشع الذنوب ويشجع زردشت الناس على الجد والعمل ويعتبر الكسل مصدر الفقر والعار .وعلى الزردشتى أن يتجنب عكس هذا الثالوث فلا يسمح لنفسه

بالتفكير فى الشر ، ولا فى قول الشر ، ولا فى فعل الشر .

* * *

وقد حاول أردشير بابكان أن يحي الديانة الزردشتية بتطبيق مبادئها وتعاليمها فدعا لتحقيق ذلك جميع أهل العلم والحكمة والدين فى مملكته لبحث الوسائل المؤدية إلى ذلك بعد أن أهملت هذه التعاليم منذ أن غزا الاسكندر بلاد إيران . واجتمع فى بلاطه ما يزيد على أربعين الف رجل اختار منهم أقدرهم وأخذوا بإشراف الحكيم اردافيراف فى وضع مجموعة من القوانين الخلقية لهداية الناس وردهم إلى مبادىء الدين والخلق القويم . وتصور هذه المجموعة ما ينال الناس فى العالم الآخر سواء فى الفردوس أو فى الجحيم حسب ما قدمت أيديهم من الأعمال فى الدنيا . وقد تخيل أردا ڤيراف أنه رحل إلى العالم الآخر واطلع هناك على احوال أهل الفردوس وما يصيبهم من نعيم وسعادة جزاء ماقدموا فى الدنيا من خير ، واهل الجحيم وما يلاقون هناك من عذاب وشقاء لقاء ما اقترفوا فى الدنيا من شر وإثم . وتسمى هذه المجموعة الهامات أردا ڤيراف أو كتاب أردا ڤيراف . ويصرح زردشت كما تصرح الزندا ڤستا فى كل صفحة من صفحاتها بأن الأعمال الطيبة هى وحدها التى تنقذ الناس فى الآخرة من الجحيم وأن كل روح تعاقب أو تكافأ وفق ما قدمه صاحبها فى الدنيا . ولعل المكافأة على الخير والعقاب على الشر هما المحور الذى تدور عليه قصة أردا ڤيراف .

وبعد أن انتهى أردا ڤيراف من جولته فى العالم الآخر هبط إلى الدنيا ليحدث الناس عما رآه وليرغبهم ويرهبهم ، وليهديهم إلى طريق الخير والحق .

وتروى القصة أن الملاك كان يخاطب ارداڤيراف بعد أن رجع من جولته فيقول له :ـ

« استمع يا ارداڤيراف . لا يتم أمر بلا جهد . ولكل جهد جزاء . والعامل الفقير الذى يقضى يومه فى العمل النافع يستحق أجره آخر النهار وكذا أولئك الذين يقضون حياتهم فى فعل الخير ينالون جزاءهم فى الدار الباقية . وحياة الإنسان قصيرة وكثيراً ما انتابته فيها المتاعب والمصاعب . ولا يجوز للإنسان إذا قضى من عمره خمسين سنة فى نجاح وسعادة أن يتولاه الغرور لأنه عرضة فى أى وقت لأن يقع فريسة المرض والفقر . وكثير من الناس يضجون بالشكوى إذا شقوا يوما واحداً بعد خمسين سنة قضوها فى المتعة والسرور .

« الزم يا أرداڤيراف طريق الحق والصواب وعلم الآخرين أن يقتفوا أثرك . ذكر الناس بأن أجسادهم صائرة إلى التراب وأن أرواحهم ، إذا كانت صالحة ، صاعدة إلى عالم الخلود فآخذة بنصيبها فيه من السعادة .

أكثر من الاهتمام بروحك ، وليكن اهتمامك بالروح أشد من اهتمامك بالجسد لأن آلام الجسد تسهل مداواتها ولكن من ذا يستطيع مداواة أمراض الروح . إنك عندما تزمع فى هذه الدنيا القيام برحلة تزود نفسك لا محالة بالمال والملابس والمؤنة وتهيىء لنفسك أسباب الوقاية من جميع ما قد يصادفها من أخطار الطريق . فماذا أعددت لرحلتك الأخيرة من العالم السفلى إلى العالم العلوى ومن هيأت من الرفاق لاصطحابك فى هذه السفرة الطويلة . اسمع يا أرداڤيراف سأشرح لك ما يلزمك من الذخيرة والمؤنة فى رحلتك إلى الحياة الأبدية . ولتعلم أن رفيقك الذى يعينك فى هذه الرحلة هو الله ، ولكى تحظى

منه بالمساعدة يجب أن تسلك سبيله وتعتمد عليه . وليكن زادك فى رحلتك الاخلاص والأمل واستحضار ما قدمته من خير . إن جسدك يا أرداڤيراف إذا أردت له شبها فبالحصان شبّهه ، وروحك الفارس . والزاد الذى يلزم كليهما ، الحصان والفارس ، هو الزاد الصالح . وإذا كان الفارس عاجزا غير مجيد اضطرب تحته الفرس وتعثر سيره . وإذا ساء أمر الفرس وكان جموحا اضطرب أمر الفارس . والواجب توجيه العناية اليهما معا . فوجه عنايتك إلى روحك ولاتنس جسدك . والله يا أرداڤيراف يطلب من عباده شيئين ألا يقعوا فى الخطيئة وألا يكونوا بأنعمه من الجاحدين .

علم الناس يا أرداڤيراف ألا يغرقوا فى متع الدنيا ومباهجها فإنهم حين يرحلون عنها لايحملون معهم شيئا منها .

إن الناس ليغترون بأنفسهم فى سن الشباب والرجولة المبكرة لأنهم ينعمون بالصحة والقوة ويتوهمون أن القوة لن تتحول ضعفا ، وأن الغنى لن ينقلب فقرا ، وأن الضياع والقصور والمفاخر ستبقى خالدة كما هى ، وأن الجنان ستبقى أبدا خضراء ، وأن الأعناب ستظل دواما مثمرة. ولكن يا أرداڤيراف علمهم أن لايجروا وراء الأوهام ،ولا يتبعوا الظنون ، علمهم أن كل مافى أيديهم ذاهب ، وكل مايتعلقون به من أسباب النعمة والسعادة زائل ، وأن كل شىء إلى فناء ، وليس باق سوى الإلـه .... » .

وتشبه قصة أرداڤيراف فى موضوعها وطريقة معالجتها لهذا الموضوع رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى والكوميديا الالهية لدانتى .

* * *

ومن المسائل المهمة فى العقيدة الزردشتية مسألة النار . فما هى قصة النار وماهى الدوافع التى دفعت الزردشتيين إلى توقير النار .

يعتبر الزردشتيون الله مصدر الجلال ، والاشراق ، والضياء . ولذا ترى الزردشتى حينما يشرع فى الصلاة يقف أمام النار أو يولى وجهه نحو الشمس لأن النار والشمس يبدوان فى نظره أقوى الرموز الدالة على الإله . وقد لاحظوا فى النار ملاحظات جعلتهم يعتبرونها رمزاً للإله . فالنار أولا رمز للإشراق والضياء . وهى بهذا أصدق رمز يرمز به إلى الله مصدر ما فى الكون من ضياء وإشراق . وفضلا عما تتميز به النار من الضياء فهى طاهرة ، نشيطة فى استعارها وتوقدها ، غير قابلة للفساد . والنار ثانياً من أعظم وأفيد مخلوقات الله فهى نافعـــة للإنسان ولكل الكائنات والموجودات بما تشعه من حرارة وضياء . وبسبب هذه الأهمية العظمى جاء توقير الزردشتيين لها . والنار ثالثاً وعلى الأخص النيران التى تشتعل فى بيوت النار تمثل فى نظر الزردشتى النقاء والطهارة . ولهم فى معالجة النيران المشتعلة فى المعابد طرائق خاصة فهم يعرضون النار لعمليات مختلفة حتى تصل فى النهاية بعد تلك العمليات إلى درجة النقاء والصفاء والطهارة . وعند ما ينشئون بيتاً من بيوت النار يأتون له بالنيران من جميع الأنحاء ويضعون كل نار منها فى إناء ولهم طريقة بعد ذلك يستخرجون بواسطتها ناراً أخرى من كل واحدة من هذه النيران . ومن هذه النار الثانية يستخرجون ناراً ثالثة ، ومن الثالثة يستخرجون ناراً رابعة إلى أن يصلوا إلى النار التاسعة . وهذه النار التاسعة التى استخرجت بعد العمليات التسع السابقة تصبح نقية تمام النقاء ، طاهرة كل الطهارة بعد هذه المراحل التى مرت بها . ولكن ماذا تعنى هذه النار عند الزردشتى . إنه ليسأل نفسه اذا كانت النار على عظيم قدرها ، وجليل خطرها ، وهى التى تتخذ رمزاً لله ، محتاجة إلى أن تمر بكل هذه العمليات الطويلة كى تصل إلى درجة النقاء والطهارة فما بالك بى أنا ، وما حوجنى وأنا العبد الضعيف الفانى إلى أن أمر أنا الآخر بفكرى ولسانى ويدى فى كثير من عمليات التطهير والتنقية حتى أصل فى النهاية إلى أن أكون ذا فكر طيب ،

ولسان طيب ، وعمل طيب ، وبذلك أستطيع أن أحتل مكاناً طيباً فى العالم الآخر.

وليس من السهل أن نعرف متى بدأ توقير الناس للشمس لأن الناس من عصور بعيدة لا يتسنى تحديدها قد عرفوا النار ووقروها . وكانت عادة عبادة النيران معروفة عند الآريين . أما الزردشتيون فإنهم وإن وقروا النيران إلا أنهم لم يعبدوها وإنما كانوا ، على نحو ماشرحناه من قبل ، ينظرون إليها على أنها رمز للإله العظيم . والزردشتيون حين يصلون يتجهون إلى النار وإلى الشمس باعتبارها رموزا للإله . ومما يؤيد هذا أن ترتيلاتهم فى هذه الصلوات توجه إلى الإله وحده لا إلى رموزه من نار أو شمس مما يدل على أن الزردشتى كان يفرق تفريقاً واضحاً بين الإله وبين رموزه . وليست النار عنده معبودة ولكنها رمز للإله المعبود .

وكانوا ينقشون معابد النيران على السكة ، كما كانوا يلقون فى النيران العيدان الذكية وسائر المواد العطرية لتنتشر الرائحة الطيبة فى المكان . وفى أثناء اشتعال النيران يرددون الأدعية المختلفة ، وينثر رجال الدين الهوما أثناء تلاوة الأدعية أو انشاد الأفستا ، وذلك بعد أن يطهروا غصونه ويدقوها فى الهاون . ومن الملوك من كان ينثر الجواهر على النار المتقدة فى معابد النار كما فعل پرويز فى بيت نار آذرگشسپ [1] .

وبمناسبة نبات الهوم نذكر أن الفردوسى يشير إلى البرسم فى أكثر من

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٧٦٨ ج ٩
وراجع أيضاً حديث تنسر عن النيران . المتن والهامش من كتاب تنسر الترجمة العربية للدكتور الخشاب ص ٤٤ – ٤٦ .

موضع فكانوا إذا تعبدوا فى بيوت النيران اتخذوا معهم البرسم[١] . والبرسم عبارة عن غصون مقطوعة من شجرة نظيفة . ويرى البعض أن البرسم يجب أن يقطع من شجرة الهوم وهى شجرة تشبه الأثل ، وإن لم توجد شجرة الهوم فمن شجرة الأثل ، وإلا فمن شجرة الرمان . وتستخدم فى قطع هذه الأغصان سكين لها مقبض من حديد تسمى « برسمجين » ويوضع البرسم على حاملين يسمونهما « برسمدان » ويتخذونهما من الذهب أو الفضة أو غيرهما . ويسمى البرسمدان أيضاً الماهروى لأن نهاية كل حامل مقوسة على شكل الهلال .

ونظراً لأهمية النار عند الزردشتيين سمى الإيرانيون فى العهد الإسلامى بيوت النار كعبة زردشت وسموا النار نفسها قبلته . ونظراً لتوقير الزردشتيين النار سماهم الإيرانيون المسلمون عبدة النار (آتش پرست وآذر پرست)[٢] . ولما قهر المسلمون الإيرانيين حطموا معابد النار فضعفت بذلك هيبتها . ولكن حين سمحت الظروف السياسية للشعوبيين أن يفخروا بماضيهم فخر شعراء العربية الذين كانوا من أصل أعجمى بالنار وفضلوا ها على الطين كما فعل بشار إذ فضل ابليس على آدم فى قوله :-

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار
ابليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة والأرض لا تسمو سمو النار

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٤٤٦ ج ٨

(٢) آذر بمعنى آتش : النار .

والفردوسى يعرف النار بأنها دليل الضوء الإلهى (نماينده فروغ ايزديست) وأنها قبلة الإيرانيين كما أن الكعبة قبلة العرب .

وكان الإيرانيون إذا ضاق بهم أمر ضرعوا إلى الله فى بيت النار عسى أن يكشف عنهم الضيق . وإذا تعبدوا فى بيوت النار لبسوا الثياب البيضاء [١] وأرخوا شعورهم [٢] .

وقد فرض زردشت على أتباعه ثلاث صلوات يدورون فيها مع الشمس كيفما دارت ، إحداها عند طلوع الشمس والثانية عند انتصاف النهار والثالثة عند غروب الشمس [٣] .

* * *

وكان هناك إلى جانب النار عناصر أخرى يوقرها الإيرانيون كالهواء والماء والتراب . وهم يعظمون الماء لأنه كما يقول الثعالبي قوام الخلق وسبب عمارة الدنيا وينزهونه عن أن يتخذ وسيلة لإزالة النجاسات وإماطة القذارات إلا بواسطة من المايعات مثل مايستخرج من البقرة ومن قضبان الكروم والشجر . وبلغ من تقديسهم للماء أنهم لا يمدون يدهم إليه إلا للشرب وسقى النبات .

* * *

وقد تأثرت الحياة الاجتماعية للايرانيين القدماء بالدين تأثراً كبيراً ،

---

(١) الشاهنامه : ص ١٣٨٦ ج ٥

(٢) الشاهنامه : ص ١٤٩٦ ج ٦

(٣) الغرر : ص ٢٥٩

وكانت السمة الدينية ظاهرة فى جميع نواحى حياتهم الاجتماعية .

فأعيادهم مثلا كان الباعث على اتخاذها فى أغلب الأحوال دينيا فإن لم يكن الأمر كذلك كانت الطقوس الدينية هى المظهر الغالب على هذه الأعياد ولنأخذ مثلا عيد النوروز الذى يقع فى اليوم الأول (اهورامزدا) من شهر فروردين . ويسميه الزردشتيون المقيمون بالهند فى الوقت الحاضر « پتيتى » Pateti وهى مأخوذة من كلمة أفستية Paitita ومعناها يوم التوبة . وهو ، بناء على هذا ، يوم يصلى فيه المرء ليغفر الله له ما اقترف من ذنوب طيلة العام المنقضى وفى هذا اليوم يصحو الزردشتى مبكراً فيغتسل ويتطهر ويرتدى ملابسه الجديدة ويؤدى الصلوات ملتمسا الرحمة من اهورامزدا له ولأهله . ويبدأ صلاته بتمجيد قدرة الله ويلتمس المغفرة لذنوبه التى اقترفها فى العام الماضى ثم يذهب إلى معبد النار ويهدى إليه خشب الصندل . وهناك يعود إلى الصلاة ليستعيد حب الإلـه ورحمته . وإذا انتهت صلواته وزع الصدقات على الفقراء من رجال الدين والمحتاجين من الناس ، ويقضى بعد ذلك بقية يومه فى مرح وسرور مع أفراد الأسرة . وفى هذا اليوم يتزاور الناس للتهنئة بالسنة الجديدة.

ولنأخذ عيدر پيشوان فإنه أصلا العيد المؤذن بحلول فصل الصيف. ومن هنا ترى أن الباعث على اتخاذهم هذا العيدلم يكن دينيا ومع ذلك غلبت عليه المسحة الدينية ففيه يقام احتفال كبير يحضره جمع غفير من الناس فى معبد النار الرئيسى، وتقام الصلوات وتوجه الترتيلات إلى « ارديبهشت امشسپند » وهو الملاك الذى يشرف على الضوء والنار .

وهناك عيد خرداد سال الذى يقع فى يوم خرداد من شهر فروردين .

ويصادف هذا اليوم عدداً من المناسبات والحوادث التى يعتز بها الزردشتيون مثل يوم مولد نبيهم . وفى هذا اليوم تقام الحفلات الدينية فى الصباح وفى منتصف الليل ، ويقضون ما بينهما فى الفرح والابتهاج .

* * *

وكان من تأثير الدين فى حياتهم الاجتماعية أن حبب إلى الزردشتيين الاشتغال بالفلاحة واعتبرها خير حرفة .

وتخص الـگاثا الفلاحة والفلاح بالعناية وتعتبر الفلاح مؤمنا وغيره كافرا منافقا . وفى الترنيمة ٢٩ الفقرة ٥ يتجه الدعاء إلى الإلـه اهورامزدا أن يحفظ الفلاح من كل سوء يصيب أهل النفاق الذين يعيش بينهم (١) .

ولا تستغنى الفلاحة والفلاح عن الحيوان والماشية ولذا دعا الدين الزردشتى إلى العناية بالماشية ، وطلب إلى الناس أن يرأفوا بها ، وعد الذين يقسون عليها أعداء للدين . وبشر الذين يعنون بها ويرعونها بالجزاء الحسن . ونهى عن قتل الحيوان أو أكل لحمه وعد الذين يفعلون هذا أو يغرون الناس بفعله من أعداء الدين . ويتردد ذكر الماشية كثيراً فى الـگاثا . وفى الفقرة الأولى من الترنيمة الخمسين يقول زردشت من أدعو لحمايتى وحماية الماشية غيرك يا أهورامزدا . وقد امتدت رعاية المواشى الى الهند حتى أصبح يتبرك بها فى الوقت الحاضر .

* * *

(١) Guthrie : XXIV

وإذا توفى المتوفى منهم بدأت مجموعة من الاجراءات الدينية المعقدة يقوم بها رجال الدين . فإذا توفى المتوفى غسل جسمه ولف فى ثياب نظيفة وأخذ الدستور أو الموبذ مع غيره من رجال الدين فى ترديد نصوص شتى من الزند افستا الغرض منها الصلاة من أجله ليعفو الله عن ذنوبه . وإذا كان المحتضر متمالكا حواسه سرد هـــذه الأدعية بنفسه وإذا كان غائبا عن رشده رددها بالنيابة عنه ابنه أو أقرب الناس إليه أو رجل الدين الخاص بالأسرة . وإذا فرغ الدعاء والترتيل حملت الجثة إلى ما يسمونه « دخمة » أو برج الصمت أو الناووس . وإذا انتهى الملحدون من وضـــع الجثمان فى القبر أخذ رجال الدين والأقارب والأصدقاء الذين اشتركوا فى الجنازة يغسلون أيديهم ووجوههم ليؤدوا الصلاة تقرباً إلى الله . ويقوم أصدقاء المتوفى وجيرانه ومعارفه بزيارة أقربائه كل صباح ومساء لتقديم واجب العزاء مدة ثلاثة أيام. وفى معتقدات الزردشتيين أن الروح لا تغادر الدنيا فى الأيام الثلاثة التالية للوفاة . ولذا يقوم رجل الدين بالصلوات والتراتيل المتصلة خلال هذه الأيام ، وفى صباح اليوم الرابع تفارق الروح هذا العالم إلى العالم الآخر . ولهذا تقام حفلة دينية إما فى منزل المتوفى أو فى أحد معابد النار مساء اليوم الثالث وقبل شروق شمس اليوم الرابع . ويحضر الحفلة أهل المتوفى والأقارب والأصدقاء . وإذا كان أهل المتوفى أغنياء وزعوا الأموال والصدقات على روحه . وتجلس النسوة من أسرة المتوفى مدة ثلاثة أيام أو عشرة بعد الوفاة على بساط يفرش على الأرض قرب المكان الذى كان يسجى فيه المتوفى ويتقبلن خلال هذه الأيام التعزيات من صديقاتهن .

ومن أهم الأعمال الدينية الخيرية التى يتقرب بها الزردشتيون إلى الله بناء المقابر

ولا ينسى أهل الميت ذكراه فيقيمون له احتفالات الذكرى . وتخصص الأيام العشرة الأخيرة من السنة لإحياء ذكرى الأموات . وتسمى الاحتفالات التى تقام لهذا الغرض «فراورديجان» وتخصص لهذه الاحتفالات إحدى حجرات المنزل وتنظف جيداً وتوضع فيها كل صباح أجمل الزهور وأطيب الفاكهة وتقام الصلوات خلال اليوم . والزهور والفواكه ضرورية فى أغلب حفلات الزردشتيين سواء أكانت هذه الاحتفالات للأموات أو للأحياء . وتسعد أرواح المتوفين فى عليائها حينما ترى الأحياء يذكرونها ويحتفلون من أجلها .

وكان من عاداتهم أن يمشوا فى جنازة المتوفى حفاة حاسرى رؤوسهم . ولما بلغ كيكاوس نبأ مقتل ابنه سياوخش نزل من على العرش وافترش الأرض ، وشق عليه ثيابه ، وجاءه القواد والعظماء وكبار رجال الدولة حفاة يعزونه فى ملابس الحداد السوداء (١) . وكانت أيام المأتم فيما يتصل بالملوك تمتد من شهر إلى أربعين يوما . وجلس بهرام بن بهرام بن هرمز فى مأتم أبيه أربعين يوما وكان الناس يأتونه من كل مكان للتعزية ويجلسون على التراب إلى جانبه (٢) . وكانوا يجلسون فى المآتم حفاة حاسرين . كما كانوا يمتنعون عن الشراب والقصف مدة شهرين إظهاراً لحدادهم على الملك المتوفى (٣) .

* * *

حتى الملابس تسللت الفكرة الدينية إليها فكانوا يعملون الزنار مثلا من

---

(١) الشاهنامه : ص ٦٨١ ج ٣

(٢) الشاهنامه : ص ٢٠١٩ ج ٧

(٣) الشاهنامه : ص ٢٥٦٣ ج ٨

٧٢ خيطا من صوف الضأن الأبيض، وإنما عمل من ٧٢ خيطا إشارة إلى فصول اليسنا وعددها اثنان وسبعون . وتقسم هذه الخيوط ستة أقسام كل قسم منها ١٢ خيطا. وهذا العدد ١٢ إشارة إلى أشهر السنة . وأما الأقسام الستة فهى إشارة إلى أعيادهم الدينية الستة التى يحتفلون فيها بستة أيام الخليقة (١) . ويجب أن يلف الزنار ثلاث لفات . وهذه اللفات الثلاث إشارة إلى الأصول الثلاثة فى الدين الزردشتى وهى الفكر الطيب ، والقول الطيب، والعمل الطيب (٢) . وفى اللفة الثانية من هذه اللفات كان الزنار يعقد عقدتين من الأمام. وفى اللفة الثالثة وهى آخر اللفات يعقد عقدتين من الخلف . وكل عقدة من هذه العقدات إشارة إلى أمر من الأمور فأما العقدة الأولى فتشير إلى الشهادة بوجود إله واحد. والعقدة الثانية تشير إلى الشهادة بأن دين زردشت على حق ، والعقدة الثالثة إشارة إلى الاعتراف برسالة زردشت . والعقدة الرابعة شهادة على أصول الدين التى سبقت وهى الفكر الطيب ، القول الطيب ، العمل الطيب . وفى سن السابعة يبدأ لبس هذا الزنار الذى هو عندهم قيد العبودية للإله . وكان الزردشتى يكلف لبسه ابتداء من سن الخامسة عشرة حتى يكون لبسه فاتحة عهد شباب سعيد . وفى هذه السن يبدأ عندهم الشباب . ولبس الزنار يحفظ جسد الشباب من نفاذ شرور أهريمن إليه .

* * *

ومن الآداب الاجتماعية التى تعلمها الزردشتيون من دينهم السكون

---

(١) راجع : ص ٢٢٢

(٢) راجع : ص ٢٥٤

والزمزمة . والزمزمة هى الكلمات التى يتفوه بها المجوسى فى مدح الله عند الشروع فى الأكل أو الاستحمام . والسكون هو ما يكون منهم أثناء الاغتسال أو الأكل .

* * *

وإذا كانت الاتجاهات الدينية قد غلبت على الحياة العامة للإيرانيين إلى هذا الحد فمن الطبيعى إذاً أن يسيطر رجال الدين الزردشتيون على الحياة فى مختلف نواحيها . ولقد كان زردشت نفسه يشارك فى توجيه الحياة السياسية للدولة على عهد الملك گشتاسپ كما يتضح من نصوص الطبرى [١] . ويذكر ابن الأثير أن زردشت أشار على بشتاسب (گشتاسپ) بنقض الصلح مع ملك الترك وقال أنا أعين لك طالعاً تسير فيه إلى الحرب فتظفر . وهذا أول وقت وضعت فيه الاختيارات للملوك بالنجوم . وكان زردشت عالما جيد المعرفة بها . . . . ولما قامت الحرب بين ملك الترك والفرس انتصر الفرس فعظم أمر زردشت عند الفرس وعظم شأنه حيث كان هذا الظفر بقوله [٢] .

وكان الموابذة يتدخلون فى أكثر الميادين فاشتغلوا ، إلى جانب اشتغالهم بالدين ، بالطب واشتغلوا بالتربية والتعليم . وتروى الشاهنامه أن شيرويه ابن پرويز لما بلغ السادسة عشرة من عمره أحضر له أبوه المعلمين والمؤدبين . وكان الموبذ واحداً منهم . وكان كثير من الملوك يتخذون من الموابذة مستشارين وناصحين فى شئون الملك والادارة . وكذلك تولى رجال الدين مناصب القضاء ،

---

(١) الطبرى : ص ٦٧٦ ج ٢ بريل

(٢) ابن الأثير : ص ١٠٦ ج ١

ووضـــع القوانين والاشراف على تنفيذها . ويمكن القول أن كل فرد كان يخضع لإشراف رجال الدين من المهد إلى اللحد . ولم يكن نفوذ رجال الدين راجعاً إلى النواحى الدينية وحدها التى كان الناس يعتمدون فيها عليهم اعتمادا تاما كشئون الزواج والولادة والطهر وتقديم القرابين والوفاة . . . الخ ، وإنما كان نفوذهم راجعا إلى سيطرتهم على ميادين الحياة المختلفة بصفة عامة وإلى ثرائهم العريض حتى ليمكن القول أنهم كونوا دولة داخل الدولة ، وفى عهد الأشكانيين والساسانيين كان رجال الدين يسمون «مغان» . والمغان فى الأصل قبيلة من قبائل الميديين أو طبقة منهم كانت فيهم الرياسة الروحية قبل ظهور الدين الزردشتى . وفى الوقت الذى سيطرت فيه شريعة زردشت على نواحى غرب وجنوب إيران فى ميديا وفارس صار المغان رؤساء الديانة الجديدة . وكان كل الرؤساء الروحيين ينتخبون من بين طبقة المغان. وبينما كان الساسانيون ينتهون بنسبهم إلى ملوك الهخامنشيين ومن بينهم گشتاسپ راعى زردشت كان الموابذة يدعون اتصال نسبهم بمنوچهر من ملوك الپيشداديين .

وكان لرجال الدين مراتب منظمة . ولكن ليس لدينا علم مفصل عنها . وكانت الرياسة العليا فى جميع الأمور الدينية والشئون الروحية للموبذان موبد الذى كان يفتى فى جميع المسائل الدينية النظرية . وكان يوجه السياسة الروحية كما كان من حقه أن ينصب ويعزل الموظفين الدينيين . أما هو فينصبه الشاه فى مركزه .

وهناك طبقة الهربذان ورئيسهم هربذان هربذ . ومكانه فى تنظيماتهم بعد الموبذ موبذان . ويُروى عن خسرو پرويز أنه بنى كثيراً من معابد النار

وخصص اثنى عشر الف هربذ لأجل الزمزمة وتلاوة الأدعيـة والأناشيد فى تلك المعابد .

وهناك من الموظفين الروحيين الدستور الذى كان فيما يظهر مختصا بالمسائل المذهبية والمباحث العقلية والاستشارات القضائية .

وكانت الديانة الزردشتية على العموم تتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئون حياة الأفراد كالنوم والصحو والأكل وقضاء الحاجة واشعال المصباح وتلاوة الأدعية ... الخ . وكانت التعاليم كثيرة متعددة فلا يجب أن تخبو نار الموقد ، ولا أن يسطع نور الشمس على النار ، ولا أن يلتقى الماء بالنار ، ولا أن تلمس يد الإنسان جسد ميت أو امرأة حائض ، ولا أن يلوث الماء أو يتكلم أثناء الأكل ، ولا أن يبكى الموتى . وكان من السهل على اتباع هذا الدين لكثرة هذه التعاليم وتدخلها فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة أن ينسوا أو يخطئوا فيكثر بذلك ترددهم على رجال الدين الذين جمعوا من وراء ذلك ثروة طائلة جعلت لهم نفوذا واسعا فى البلاد .

ضعف الديانه الزردشتية :

ازدهرت الديانة الزردشتية حوالى الف سنة من حكم گشتاسپ إلى غزو بلاد الفرس على يد الاسكندر الأكبر . وأخذ الدين الزردشتى منذ فتح الاسكندر يضعف ويتلاشى لفترة تقرب من خمسمائة وست وخمسين سنة بعد تحطيم الدولة الفارسية على يد الفاتح المقدونى إلى أن جاء عهد اردشير بابكان فرد إلى هذا الدين حياته . وفى عهد هذا الملك بذلت محاولات كبيرة لاعادة

هذا الدين إلى مكانته القديمة . وكان الملك نفسه على جانب كبير من التقى والحماسة الدينية فجمع كتب الزردشتيين المقدسة وأمر بترجمتها إلى اللغة البهلوية، وبنى معابد النار للعبادة وأعاد ديانة الفرس القديمة إلى ما كانت عليه . وجاء من بعده خلف كانوا يعنون بشئون الدين عنايتهم بشئون الدنيا . وكان من حِكم ملوك الساسانيين أن الملك لا يصلح بلا دين كما أن الدين لا يصلح بلا مُلك . واستمر هذا التجديد والاحياء للديانة الزردشتية مدة اربعمائة وست عشرة سنة إلى أن أزال الفتح العربى ملك الفرس فى سنة ٦٥١ م فى معركة نهاوند .

وليس من المنطق الطبيعى أن يقضى الفتح العربى على ديانة كالديانة الزردشتية بمجرد الانتصار على الفرس فى معركة من المعارك . والواقع أن الدين الزردشتى كان قد بدأ يضمحل قبل الفتح العربى بزمن حتى إذا جاء هذا الفتح كان الضربة القاضية .

ويرجع ضعف الدين الزردشتى إلى عوامل كثيرة نجملها فيما يأتى:

كان رجال الدين الزردشتيون متعصبين تعصبا شديدا لدينهم ، وقد دفعوا بعض ملوكهم فى هذا الاتجاه فكانوا يضطهدون اتباع الملل الأخرى وأهمهم المسيحيون . ويظهر هذا الاضطهاد فى الفترات التى تسوء فيها العلاقات السياسية بين دولة الروم ، بعد اعتناقها المسيحية ، وبين دولة الفرس الزردشتية وفى مثل هذه الفترات تزداد قوة الزردشتية وقوة رجال الدين الزردشتيين . وإذا تحسنت العلاقات وصفت بين الدولتين ساعد ذلك على توطيد دعائم المسيحية فى البلاد الإيرانية .

ثم ولى الملك فى الدولة الساسانية عدد من الملوك كانوا بعيدين عن

التعصب الديني . وأدى هذا إلى انتشار المسيحية وضعف شأن الزردشتية . وفي زمان يزدجرد الأول فتح باب جديد في الروابط بين المسيحيين والزردشتيين. وفي الكتابات التي كتبها المؤرخون المسيحيون والمؤلفون الايرانيون اختلاف كبير فيما يتعلق بأحوال يزدجرد (يزدگرد) الأول . وبعض المصادر السريانية التي ألفت في عهد يزدجرد (يزدگرد) تصفه بالعدل وجميل الفعال والرحمة بالمسيحيين كما تصفه بالاحسان إلى الفقراء والضعفاء بينما نرى المؤرخين العرب والايرانيين الذين استمدوا كتاباتهم من تواريخ العهد الساساني وأخذوا مادتهم من عقائد رجال الدين الزردشت وأعيان الدولة يصفونه بأنه الأثيم « گنا هكار » والمخادع « فريبنده » والطبري يتحدث عن ظلمه وكيف حل بالرعية . وواضح أن مصدر هذا الاختلاف موقف يزدجرد (يزدگرد) بالنسبة للمسيحية والزردشتية. وقد وقع في عهده الصلح بين الدولتين الكبيرتين وحسنت العلاقات إلى درجة أن يزدجرد تولى حماية تيودور الثاني الذي كان طفلا صغيرا . وأوفدت دولة الروم الشرقية إلى بلاط يزدجرد هيئة برياسة ماروثا أسقف ميافارقين . وكان لماروثا هذا وقار وهيئة تبعث على الإجلال فوقع من نفس يزدجرد موقعا حسنا حتى إنه أمر إكراما له بتجديد جميع الكنائس التي خربت ، وإطلاق سراح الرعايا الذين سجنوا بسبب ديانتهم المسيحية كما أجاز لجميع رجال الدين المسيحيين أن يتنقلوا في البلاد كما يشاءون. وعلاوة على ذلك فقد أجاز يزدجرد لماروثا تشكيل مجمع ديني في طيسفون يكون من مهمته النظر في شئون المسيحيين وتوحيد الفرق المسيحية في إيران . وقد افتتح هذا المجمع في سنة ٤١٠ م برياسة الأسقف أسحق وماروثا . وبدأ عمله بالدعاء لملك إيران . وكان الأساقفة يدعون إلى بلاط الملك ويتحادثون

معه بما يبعث الطمأنينة إلى نفوسهم وأصبح اسحق وماروثا صاحبى السلطة العليا فى أمور المسيحيين بحيث يستوجب المجازاة كل من خرج على تعليماتهما. وبعد بضعة سنوات جاء «يهبلاها» خليفة اسحق ثم أرسل إلى القسطنطينية حتى يزيد من قوة الروابط بين الدولتين . ومع هذه الحماية التى أسبغها يزدجرد على المسيحيين فإن المنازعات بين الفرق المسيحية لم تنقطـــع . وقد تغير موقف يزدجرد الأول فى أواخر عهده نحـــو المسيحيين . وكان السبب فى ذلك المسيحيون أنفسهم إذ أغرتهم الطمأنينة التى عاشوا فيها والحماية التى وجدوهـا من الملك على الاعتداء على معابد الايرانيين . ومن أمثلة ذلك أن أحد رجال الدين المسيحيين واسمه هشو تجرأ فى مدينة هرمزد أردشير الواقعة فى خوزستان على تخريب بيت النار الذى كان بالقرب من كنيسة المسيحيين فرفع الايرانيـون الأمر إلى يزدجرد الذى حقق فى الموضوع . واعترف هشو بجرمه وأورد ضمن اعـــترافه الفاظا وقحة عن الديانة الزردشتية فدعا الملك اليه الأسقف «عيدا» وكلفه أن يعيد بناء بيت النار فلما امتنع حكم عليه بالاعـــدام . وكان هذا المسلك الخشن الذى سلكه المسيحيون سبباً فى الحاق الضرر بهم ، وأصدر يزدجرد أمرا قبل وفاته بتأديبهم . ولما جلس بهرام الخامس (بهرام گور) شرع فى تأديبهم وقتلهم ، فلما رأوا العذاب فر كثير منهم من إيران . وقد أدت هذه الحوادث إلى قيام الحرب بين الروم وإيران ولكنها لم تستمر طويلا فقد عقد بينهما صلح فى سنة ٤٢٢ م أعطى الايرانيون بموجبه الحرية الدينية للمسيحيين الذين يعيشون فى بلادهم وفى نظير هذا منح الروم نفس هذه الحرية الدينية للزردشتيين المقيمين فى بلادهم . وخلف بهرام

ابنه يزدجرد الثانى الذى أظهر المودة فى أول الأمر للمسيحيين ولكنه غير موقفه منهم بعد ذلك. وتوفى يزدجرد فى سنة ٤٤٧ وخلفه ابنه الأكبر هرمزد الثالث فنازعه أخوه الأصغر پيروز وقامت الحرب بين الأخوين وانتهت بانهزام هرمزد وجلوس پيروز على العرش . وفى زمان سلطة پيروز ٤٥٩ - ٤٨٤ كان عالم المسيحية غارقا فى مجادلات شديدة فالنساطرة كانوا يعتقدون أن للمسيح طبيعتين إحداهما انسانية والأخرى ربانية بينما كان اليعاقبة يعتقدون أن هاتين الطبيعتين متحدتان فى ذات المسيح . ولم يستطع رجال الدين الزردشتى فى ذلك الوقت أن يستفيدوا من هذه الخلافات لتدعيم موقفهم وتقوية شأن دينهم لأنهم كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الخلقى [١] . وكان كسرى انو شروان متسامحا واسع الصدر وقد أفسح صدره للعقائد الدينية المختلفة والمذاهب الفلسفية وأجاز للمسيحيين أن يؤسسوا المؤسسات العامة . وفى معاهدة الصلح التى عقدت فى سنة ٥٦٢ تمتع المسيحيون بالحرية المذهبية . والظاهر أن ترجمة الانجيل القديمة باللغة البهلوية التى عثر على قطع منها فى تركستان الصينية والمحفوظة الآن فى متحف فولكركنده فى برلين ترجع إلى عهد كسرى انو شيروان . وهناك مسيحى اسمه « پولس پرسا » ترجم إلى اللغة السريانية مختصرا من منطق أرسطو وقدمه لكسرى وقد بين له فيه العقائد المختلفة التى تتصل بالله والعالم . وهكذا نرى أن كسرى الأول بعد أن أفسح صدره للديانة المسيحية بدأ يتذوق أفكار الفلاسفة التى لم يكن يسيغها الموابذة. وزاد فى انتشار الأفكار الفلسفية فى بلاد إيران تعطيل مدرسة أثينا الفلسفية

---

(١) محاضرات عن الشعر الفارسى : على اكبر فياض ص ٨٦

فى سنة ٥٢٩ والاعتداءات التى وقعت على الحكماء مما ألجأ سبعة من فلاسفة اليونان إلى طيسفون حيث صاروا موضع رعاية كسرى . ومما يدل على تسامح كسرى أنو شيروان مايرويه الطبرى من أن الهرابذة رفعوا اليه قصة يبغون فيها على النصارى فوقع فيها أنه كما لا قوام لسرير ملكنا بقائمتيه المقدمتين دون قائمتيه المؤخرتين فكذلك لاقوام لملكنا ولاثبات له مع استفسادنا من فى بلادنا من النصارى وأهل سائر الملل المخالفة لنا فأقصروا عن البغى على النصارى وواظبوا على أعمال البر ليرى ذلك النصارى وغيرهم من أهل الملل فيحمدوكم عليه وتتوق أنفسهم إلى ملتكم .(١)

وكما كانت الثقافة اليونانية معروفة فى عهد كسرى أنو شيروان كانت الثقافة الهندية . وفى عهده عرف لعب الشطرنج الذى أهدى اليه من الهند . وراجت فى عهده قصص كتاب كليله ودمنه .

وتغلغل نفوذ المسيحية فى البلاد حتى وصل إلى البلاط . وكان لكسرى انو شيروان ابن يسمى انوش زاذ من أم مسيحية جميلة أغراها كسرى بعد زواجه منها على ترك المسيحية والدخول فى الزردشتية ولكنها لم تتحول عن دينها . ولما كبر انوش زاذ ورث عن أمه عقيدتها وخالف أباه حتى إنه انتهز فرصة خروجه لغزو بلاد الشام فجمع حوله النصارى وأراد أن يستولى على الملك لولا أن أسرع أبوه كسرى بالعودة وأخذه أسيرا .(٢)

* * *

(١) الطبرى : ص ٩٩١ ج ٢ ط بريل

(٢) الأخبار الطوال : ص ٦٩

ومن المعاول التى حطمت الزردشتية فى إيران ، بعد المسيحية ، ظهور الدين المانى . وكان مانى من نجباء ايران إذ ينتهى نسب أمه إلى الاشكانيين ومن الجائز أن ينتهى نسب أبيه فتق [1] اليهم أيضا . وكان أبوه هذا من أهالى همدان ثم هاجر إلى بابل وهناك ولد مانى فى سنة ٢١٥ أو ٢١٦ م . وكان مانى ينطق بالحكمة منذ كان صغيرا فلما تم له أربع وعشرون سنة أتاه ، فيما يزعم ، الوحى وطلب اليه أن يدعو إلى مذهبه الجديد . ولا يسمح مجال بحثنا ، بعدما أوردناه من حديث عن الزردشتية ، بتفصيل الكلام عن سائر المذاهب الأخرى كالمانية والمزدكية وغيرها . وإذا كنا قد فصلنا بعض التفصيل فيما يتصل بالزردشتية فلأنها الأصل . ولكن لابأس من أن نشير هنا إلى أن مانى قد استمد أصول ديانته من الزردشتية والمسيحية والبوذية . وقد نسجت الأساطير حوله كثيرا من القصص التى تدل على البراعة الفائقة والمهارة النادرة فى فنون الخط والنقش .

وكانت شريعة مانى تحض على قمع الشهوة . وترك أكل اللحم وشرب الخمر والتناكح . وقد فرض على أتباعه الصيام سبعة أيام كل شهر وصلوات أربعاً أوسبعاً تؤدى كل يوم الأولى عند الزوال والثانية بين الزوال وغروب الشمس والثالثة هى صلاة المغرب بعد غروب الشمس والرابعة صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات . [2] والخلاصة فى أمر هذا الدين أنه دين زهد

---

(١) فى الملل والنحل «فاتك» : ص ١٤٣ ج ١

(٢) الفهرست : ص ٣٢٧ وما بعدها .

وتقشف . وقد كثر معتنقوه حتى زاحم الزردشتية وضيق عليها المجال . وألف ماني كتبا كثيرة في الدعوة إلى دينه ، واستمر أمره في ازدياد إلى أن ملك بهرام بن هرمز فقتله .(١)

* * *

ثم جاءت المزدكية التي تنسب إلى مزدك الذي كان موبد موبدان في أيام قباد بن فيروز فدعا إلى الاثنينية وحرف دين زردشت وخالفه في كثير من المسائل . وكان مزدك يرى أن التحاسد والتباغض بين الناس يحصل بسبب المال والنساء فلكي يسوى بين الناس وينزع من قلوبهم الحسد والبغضاء أمرهم بالاشتراك فيهما . وكان طبيعيا أن تستهوى دعوته العوام والرعاع فتبعه منهم خلق لايحصى . وكان أتباعه يتشاركون في النساء والأموال فلا تختص امرأة برجل واحد . وارتفع شأن مزدك ودخل الملك قباد في دينه وبلغت بمزدك الجرأة أن يطلب مشاركة قباد في امرأته أم كسرى أنو شيروان . ولما علم كسرى بذلك تضرع إلى مزدك وألح في الضراعة حتى يترك أمه فتركها .(٢) ولم ينس كسرى أنو شيروان لمزدك هذا الموقف فإنه بعد أن انصرف قباد عن الدين المزدكي ووكل اليه أمر المزادكة سارع بقتله وصلبه وتتبع أصحابه واتباعه في كل مكان حتى قتل منهم مقتلة عظيمة .(٣) وعمت المجتمع الايراني الفوضى

---

(١) الآثار الباقية : ص ٢٠٧ وما بعدها

(٢) ابن الأثير : ص ١٦٥ ج ١

(٣) راجع أيضا سياست نامه:

الخلقية نتيجة هذه الفتنة المزدكية إذ كان الرجل لايطمئن على امرأته وكان الوالد لايعرف ولده ولا الولد أباه .

* * *

ومن المذاهب التى انتشرت فى المجتمع الايرانى إبان العهد الساسانى وحولت الناس عن الزردشتية مذهب الدهرية (الزروانيه) (١) . وقد انتشر هذا المذهب على عهد يزدجرد الثانى . ويعتبر هذا المذهب الدهر هو المبدأ الأسمى (٢) .

* * *

أضف إلى هذا كله أن الطبقات العليا كطبقة الاشراف وطبقة الموابذة لم تعد تلقى فى عهد بعض الملوك ما كانت تلقاه فى الزمن القديم من الرعاية والتشجيع ولذلك لم تستطع طبقة رجال الدين أن تثبت أمام هذه الهزات العنيفة التى أصابت دينهم فى الصميم . ويروى الطبرى عن هرمزد بن كسرى انوشيروان أنه كان مقصيا للأشراف وأنه قتل من العلماء وأهل البيوتات عددا كبيرا كما أسقط كثيرا من العظماء وحطهم عن مراتبهم . (٣) ويذكر الثعالبى عن خسرو پرويز أنه أشاع الخوف فى النفوس فاستوحش منه الكبراء والمرازبة والرؤساء حتى سئموا من أيامه (٤) .

---

(١) زروان بمعنى دهر، ووقت :

(٢) تاريخ الفلسفة فى الاسلام : دى بور ص ١٢ ترجمة ابى ريده.

(٣) الطبرى : ص ٩٩ ج ٢ ط بريل

(٤) الغرر : ص ٧١٤

الآثار الزردشتية فى الحياة الاسلامية :

كان للزردشتية وماتلاها من مذاهب وديانات أثر كبير فى الحياة الاسلامية. يقول صاحب فجر الاسلام « وعقيدة العـامة من المسلمين فى الصراط بهذا النمط الذى يحكيه زردشت، وفى الأعراف على هذا الوجه، وتحليق الروح على الجسد وإقامة الشعائر لذلك ثلاثة أيام كل هذه عقائد تشبه مشابهة تامة ما فى الديانة الزردشتية . »[(١)] ويقول « ونلمح وجه شبه بين رأى أبى ذر الغفـارى وبين رأى مزدك فى الناحية المـالية فقط فالطبرى يحدثنا أن أبا ذر قام بالشام وجعل يقول : يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنيـاء مايلقون من الناس .... فترى من هذا أن رأيه قريب جدا من رأى مزدك فى الأموال . »[(٢)] ويذكر أيضاً بعد أن انتهى من الحديث عن الفرق الدينية التى ظهرت فى الاسلام أن آراء هذه الفرق « قد صدرت عن عقليات مختلفة من فرس وروم وسريان وعرب وغيرهم . وكانت هذه العقليات تؤمن بأديان مختلفة من يهودية ونصرانية ومجوسية ووثنية وغيرها . ولوظلت الأمة الاسلامية عربية فقط لرأينا فيها أمثال الخوارج وأمثال المرجئة ولكن ماكنا نرى فيها مذاهب الشيعة الغالية وتعاليمهم الغريبة،وما كنا نرى المعتزلة وأبحاثهم

---

(١) فجر الاسلام : ص ١٢٨ ط ثالثة

(٢) نفس المصدر : ص ١٣٦

الفلسفية ومذاهبهم العميقة . »[١] بمثل هذه النصوص كفانا المؤلف مشقة الكلام فى هذا الموضوع بوجه عام .

وقد أثرت الديانة المانية فى الحياة الاسلامية تأثيرا كبيرا . وكان كثيرون يعلنون الاسلام ظاهرا ويؤمنون بها باطنا . ويذكر ڤون كريمر أن كلمة زنديق كانت تطلق فى أول الأمر على كل من اعتنق المبادىء والأفكار الفارسية القديمة ثم خص بها فيما بعد أتباع الديانة المانية . ومن أدلته على هذا نص استخرجه من الحيوان للجاحظ . وفى هذا النص يتحدث الجاحظ عن الزنادقة وأنهم حريصون فيما يكتبون على اختيار الورق النقى الأبيض ، والكتابة بالحبر الأسود البراق ، وإجادة الخط حتى إنه - أى الجاحظ - لم ير كورق كتبهم ورقا ولا كالخطوط التى فيها خطا . ومع ذلك فإن كتبهم وإن حليت بجودة الورق وجمال الخط وحسن المظهر فقد عريت عن الفوائد التى يصح أن تكتسب من الكتب كمعرفة الصناعات والتجارات وسبل التكسب ونحو ذلك وفى رأيه أنهم يتخذون هذه الكتب دعاية لدينهم وينفقون عليها عن سعة كما ينفق النصارى على البيع وصلبان الذهب . ويستنتج ڤون كريمر من نص الجاحظ أن هذا الكلام الذى ذكره عن الزنادقة ينطبق تمام الانطباق على المانية ، فهم الذين يعنون فى كتاباتهم بالزخرفة والتنميق ويفتنون فى ذلك افتنانا عظيما ، فضلا عن أن محتويات هذه الكتب كما عرضها الجاحظ ينطبق إلى حد بعيد على ماذكره صاحب الفهرست عن محتويات كتاب المانية الدينى . ويمضى ڤون كريمر فيذكر أن المانية كانت معروفة فى عصر الجاحظ وأنها كانت محل تقدير وعناية

---

(١) فجر الاسلام : ص ٣٧١ ط ثالثة

حتى إن كاتبين مشهورين كالجاحظ ، وابن النديم ذكراها بصراحة فى مؤلفاتهما . ويرى ڤون كريمر أن المانية تشتمل على فروض تشبه ماجاء به الاسلام فكان على المانى أن يؤدى فى اليوم الواحد عددا من الصلوات يختلف بين أربع وسبع . وكانت كل صلاة تتألف من عدد من السجدات . وكان عليه أن يتطهر قبل الصلاة كما فُرض عليه أن يصوم ثلاثين يوما . واستطاعت المانية أن تستميل اليها عددا من المسلمين أغلبهم من غير العرب. (١) ومن مظاهر توغل المانية فى الحياة الاسلامية أن الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد (٢) كان من أتباع هذا المذهب . وكان ممن يدعون لهذا المذهب وإن أظهر الاسلام صالح بن عبد القدوس ، بشار بن برد ، أسحق بن خلف ، سلم الخاسر... الخ. ويقال أن البرامكة جميعا الا محمد بن خالد بن برمك كانوا من معتنقى هذه الديانة . وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدى زنديقا فقتله المهدى . (٣) ومن محاكمة الأفشين نتبين أنه كان يضمر العداوة للاسلام ويحن إلى عبادته القديمة ويسعى إلى هدم دولة المسلمين . واعترف الأفشين فى محاكمته أنه كان يميل إلى الأعجمية وإلى أهلها وأنه كان يأمل أن يعود دينه القديم إلى ماكان عليه أيام العجم . (٤)

* * *

---

(١) الحضارة الاسلامية لڤون كريمر ص ٥٥ وما بعدها ترجمة مصطفى طه بدر .

(٢) ينسب مروان إلى مؤدبه فيقال له مروان الجعدى .

(٣) الفهرست : ص ٣٣٨ . وفى الفخرى أن الذى اتهم بهذا فقتل هو ابنه . راجع الفخرى ص ١٦٣ ط المعارف

(٤) راجع أيضا الفصل الخاص بالزنادقة فى ضحى الاسلام ج ١

وبالإضافة إلى انتشار المعتقدات الايرانية القديمة فى المجتمع الاسلامى وجدت فرق دينية كثيرة شغلت العالم الاسلامى فترة طويلة وأقلقت بال الدولة. ونكتفى بالاشارة السريعة إلى بعض هذه الفرق. فمنها المسلمية الذين ثاروا على الدولة العباسية بعد مقتل أبى مسلم وكان منهم سنباذ الذى خرج بخراسان يطالب بثأره.

* * *

ومن هذه الفرق الراوندية التى قاومها المنصور مقاومة فعالة. وكان المنصور يعتبر الراوندية أعداء سياسيين للدولة لأنهم كانوا يبغون تحويل ملك العرب إلى الفرس، وأعداء دينيين لأنهم كانوا يؤمنون بالمبادىء الدينية الايرانية القديمة كالزردشتية أو المانية أو المزدكية (١).

* * *

ومنهم المقنعية الذين ينسبون إلى المقنع الذى ظهر بخراسان أيام المهدى، وكثر أتباعه فى المناطق الشرقية كبخارى وسمرقند. واستطاع المهدى أن يقضى عليه ولكن تعاليمه بقيت منتشرة فى بلاد ماوراء النهر واعتبره أتباعه إلـها. وكانوا يرتكبون المنكرات ويستحلون النساء ويناصبون الاسلام العداء.

* * *

ومنهم الخرمية. والخرمية فى أصلها فرقة قديمة نشأت فى بلاد إيران أيام قباد الساسانى أبى كسرى انو شروان ومنها طائفة المزدكية. وهذه الخرمية القديمة

---

(١) تاريخ الاسلام : حسن ابراهيم حسن ص ٩٤ ج ٢

هى التى يقال لها الخرمية الأولى تمييزا لهـا عن الخرمية الثـانية التى ظهرت فى العهـد الاسلامى أيام المـأمون والمعتصم ، وتنسب هذه الأخيرة إلى بابك الخرمى فيقـال لها الخرمية البابـكية . وهذه الفرقة كغيرها من الفرق السابقة تتعصب للفرس ، وتسعى فى تحويل الملك عن العرب اليهم ، وكانوا يقولون بالنور والظلمة ، ومنهم من أباح النساء .

---

١٥ — نقد الشاهنامه

الظاهر أن الأقاصيص والأساطير التى تضمنتها الشاهنامة لم تكن مما يروق القدماء من المؤلفين وخاصة الاسلاميين منهم . وقد ذكرنا من قبل رأى ابن الأثير الذى يصف هذه الأساطير بأنها مما تمجه الأسماع وتأباه العقول والطباع . وأشار ابن الأثير إلى أسطورة الضحاك ووصفها بأنها من أكاذيب الفرس الباردة وأن لهم فيه أكاذيب أعجب (١) . وينظر البيرونى إلى هذه الأقاصيص نظرة ابن الأثير فيقول : ولهم فى تواريخ القسم الأول (يقصد البيشداديين) واعمار الملوك وأفاعيلهم المشهورة عنهم ما يستفر عن استماعه القلوب وتمجه الآذان ولا تقبله العقول (٢) . وهناك مؤلف أرمنى اسمه موسى الخورينى Moise de Khorene كان ينظر إلى اقاصيص الفرس هذه نظرة احتقار منعته من الاسهاب فى الحديث عنها (٣) .

وواضح أن هذه الأقاصيص والأساطير لم تعجب هؤلاء المؤلفين وامثالهم لأنهم كانوا يبحثون عن حقائق يؤرخونها ويدونونها وليس فى هذه الأساطير الخرافية مايعينهم على ذلك . وكانت تغلب على تفكيرهم عقلية المؤرخ والعالم لا الاديب . وابن الأثير ، وهو مؤرخ ثقة ، يذكر أنه لم يجد فى اقاصيص

---

(١) ابن الأثير : ص ٢٦ ج ١

(٢) الآثار الباقية : ص ١٠٠

(٣) J. Mohl : Livre des Rois. Preface. p. v. Paris 1838

الفرس ماينفعه فى تاريخه فعزم على أن يتركها ثم عاد فأثبتها ولم يفته أن يعلق عليها برأيه الذى ذكرناه فيما سبق .

ولكن الشاهنامة لقيت من الرواج فى العصور القديمة مادعا الأدباء إلى تقليدها ومحاكاتها فى كل عصر وفى كل بلد على نحو ماذكرناه من قبل . ولقيت من الاهتمام فى العصور الحديثة مادعا العلماء إلى دراستها وترجمتها ونشر الأبحاث الضافية عنها فى أغلب لغات العالم .

ولننتقل الآن إلى نقد الشاهنامة .

تعتبر الشاهنامه مرجعا هاما يصور لنا حياة الايرانيين القدماء فى اكثر نواحى الحياة.ولماكان همها منصبا على الملوك وأمجادهم ومفاخرهم كان تصويرها لهذا الجانب من المجتمع الايرانى ، جانب الملوك والطبقات العليا التى تتصل بالملوك ، أوفى من تصويرها للجانب الشعبي من المجتمع الايرانى . والشاهنامه معذورة فى هذا لأنها كتاب الملوك وليست كتاب الشعب . وقد وصفت الشاهنامة جميع من تعرضت لذكرهم من ملوك الايرانيين وأمرائهم وأبطالهم بقوة البدن ، وجمال الخلقة ، وحسن الخلق . ولا بد أن يكون الأمر كذلك بطبيعة الحال فى كتاب وضع لتمجيدهم .

ومن أثر هذه العناية بالملوك فى الشاهنامة كثرة الحروب فيها لأن الحروب وسيلة الملوك إلى الغزو والفتح وبسط السلطان وازدياد الغنائم والأموال ، وداعية إلى إعلاء الذكر وتخليد الأثر . وقد أجاد الفردوسى وصف ميادين القتال والحديث عن الأبطال . وتسيطر على شعر الشاعر فى هذه النواحي

روح البطولة والقـــوة . ولا تستغرب هذه الاجادة فى وصف الحروب من شاعر لم يعرف عنـــه أنه اشترك فى معركة لأنه كما قلنا كان ينظم عن قصص مكتوبة .



ومن أثر العناية بالملوك فى الشاهنامه أن غلبت عليها النزعة الفردية لا الجماعية أو القومية فالتمجيد فى أغلبه ينصب على أشخاص الملوك وذوات الأبطال. وقليلا ما نجد هذا التمجيد يخرج إلى نطاق أوسع من هذا كالمجتمع الذى يعيش فيه هؤلاء الملوك أو الشعب الذى ينتسب اليه هؤلاء الأبطال . وتمجيد الشاهنامه الملوك والأبطال الخالدين أمثال رستم تمجيد لذواتهم وأشخاصهم قبل أن يكون تمجيدا للشعب الايرانى الذى يمثلونه . والشعب الايرانى هو الذى يفخر بهم وقلما فخروا هم به. ومن الأبطال الذين تفخر بهم الشاهنامة رستم ، وقد مر من قبل، سهراب، طوس گيو... الخ. وقد جمعت الشاهنامة كل الفضائل فى هؤلاء الأبطال. فالشجاعة والإخلاص وطيبة القلب وسداد الرأى وقوة العزيمة وغيرها من الفضائل مما نجده فى هؤلا الأبطال . وكان أغلب أبطال الشاهنامة من الايرانيين . ولم يكن بين التورانيين جميعا بطـــل يستحق الذكر سوى افراسياب . ومع ما كان لأفراسيـاب من القوة والشجاعة فإنه إذا قيس إلى جانب رستم بدا هزيلا . وسهراب ، لأنه ابن رستم ، كان له من الخصائص ما لأبيه حتى إن أباه حين بارزه تعب كثيرا قبل أن يتمكن من التغلب عليه . وكان أبطال الايرانيين على خلق عظيم فلا مكر ولا خديعة ولا انحراف عن أصول الحروب المرعية بينما لم يتورع التورانيون عن الـكذب ،والخداع، والاستعانة بالسحر والسحرة

وبينما كان الفرار عند الايرانيين عارا عظيما كان التورانيون لايحجمون عنه إذا وجدوا فيه النجاة . وكان الايرانيون يعتبرون الإغارة بالليل عيباً ونقصا بينما كان التورانيون يعمدون إلى هذا الأسلوب فى القتال لضعفهم وعجزهم. ويرى مول أن الفردوسى كان دقيقا فى نقله عن الأصل الذى كان ينظم عنه . ودليله على هذا أن الصفات التى نراها لأبطال الشاهنامة هى نفس الصفات التى نراها فى الكتب الدينية لنفس الأبطال أمثال جمشيد، فريدون، ومنوچهر، وگشتاسپ اسفنديار . وكل ما بينهما من فرق أن العرض فى الشاهنامة عرض أدبى حماسى وفى الكتب الدينية عرض دينى بطبيعة الحال . كما أن هؤلاء الأبطال يؤدون نفس الدور فى كل من الشاهنامة وتلك الكتب الدينية التى تحدثت عنهم (١) .

* * *

وتحدثنا الشاهنامة ، بمناسبة المقارنة بين أبطال الأيرانيين والتورانيين ، عن كثير من الأمم التى كانت تعاصر الايرانيين فى تلك الحقب من الزمان التى تعرضت لها الشاهنامة . وأهم من ورد ذكرهم فى الشاهنامة غير الايرانيين التورانيون ، الروم ، الهنود ، الصين ، والعرب .

وكان بين الايرانيين والتورانيين والروم صلات قرابة ونسب فالتورانيون والروم من بنى اعمام الايرانيين لأن الجميع ينتهى نسبه إلى افريدون . وملوك الروم من نسل سلم ، وملوك إيران من نسل إيرج ، وحكام توران من نسل تور. وقد كانت لهم إلى جانب هذه القرابة مصاهرات فتزوج سياوش فرنگيس

---

(١) Mohl : Preface p. LVII

ابنة افراسياب وتزوج انو شيروان ابنة خاقان ، وتزوج گشتاسپ ابنة قيصر، وتزوج پرويز مريم ابنة قيصر .

أما الهنود فلم يكونوا من أقارب الايرانيين . ولكننا نرى بعض صلات المودة تنشأ بينهم وبين ملوك الشاهنامة فى العصر الساسانى - فتصاهر بهرام گور مع ملك الهند . وتبودلت الهدايا من الجانبين فى عهد كسرى انوشيروان فأهداه ملك الهند لعبة الشطرنج واهداه انو شيروان لعبة النرد .

أما الصين فلم يكن لهم شأن كبير فى الشاهنامة وكانوا على اتفاق مع التورانيين فى الغالب يستعينون بهم إذا قهرهم الايرانيون. ويبدو من الشاهنامة أنها تمزج بين الصين والتورانيين فملك التوران أو خاقان الترك كان يلقب أحيانا خاقان الصين وكان خاقان الصين ينصر افراسياب التورانى على أعدائه الايرانيين .

أما العرب فكانوا على عداء مع الايرانيين . ولما كان الضحاك شريرا مكروها عند الايرانيين اعتبرته الشاهنامة دخيلا وعدته من العرب . فهو إذاً يمثل العنصر العربى المكروه عند الايرانيين . وفى العهود القديمة من الشاهنامة كانت العداوة والكراهية هى الغالبة بين العرب والايرانيين . وفى العهد الساسانى كانت علاقة المودة وحسن الجوار هى الغالبة . ويذكر الدكتور عزام أنه رغم هذه العداوة بين العرب والايرانيين فى العهود القديمة كان لهم مع ذلك صلات صهر ومودة تتجلى فى زواج أبناء أفريدون الثلاثة من بنات ملك اليمن ، وفى زواج زال بن سام من بنت مهراب ملك كابل العربى الأصل مما جعل العرب أخوال رستم (١) .

---

(١) مقدمة الدكتور عزام : ص ٩ ج ٧١

بين هؤلاء الأقوام والأمم ليس هناك قوم أرقى وأعظم من الايرانيين.

وبطل الايرانيين رستم ليس له نظير بين أبطال العالم . وعلماء الايرانيين وحكماؤهم لايتطاول إلى مستواهم حكماء الأمم الأخرى . وحسبك أن تعلم أن ملك الهند حين أهدى الشطرنج إلى انو شيروان استطاع بزرجمهر الحكيم الايرانى أن يفك رموزه بينما لم يستطع حكماء الهند أن يفهموا سر النرد دون الرجوع إلى علماء الايرانيين أنفسهم . ويظهر هذا التعالى والكبرياء فى مواضع شتى من الشاهنامه ، فحين تقدم بيلسم أخو پيران يطلب مبارزة رستم هزىء به گيو البطل الايرانى وأفهمه أن رستم يترفع عن مبارزة تركى مثله . ومما يمثل طيبة العنصر الايرانى ولؤم العنصر التورانى كما تصوره الشاهنامه موقف گودرز من پيران عندما تبارزا . فقد أراد البطل الايرانى لغريمه الشيخ الحياة ولكن الشيخ التورانى أراد له الموت . وهذه الحادثة تبين ماكان عليه المقاتل الايرانى من المروءة والشجاعة وما كان عليه المقاتل التورانى من الجبن والخسة ومن مظاهر مروءة الايرانيين وعلو أنفسهم أن افراسياب لما انهزم هرب من قلعته التى كان يتحصن بها فدخلها كيخسرو دخول الفاتح الظافر ومع ذلك لم ينتهك حرمة من فيها من النساء ولم ينتهب ماوجده من الأموال والمتاع وسائر المقتنيات ، وأمر جنده ألا يتعرضوا لأحد من أهل أفراسياب بالسوء.

* * *

وكما تعرضت الشاهنامه لسائر الأقوام تعرضت ايضا للديانات المختلفة التى عاصرت حوادثها كالزردشتية واليهودية والمسيحية والاسلام والمانية والمزدكية وقد تحدثنا عن هذه الديانات فيما سبق الا اليهودية والاسلام.

أما اليهودية فقد تعرضت لها الشاهنامة فى موضعين : الموضع الأول فى عهد بهرام جور فى ثنايا قصة براهام اليهودى الغنى الشحيح وكان بهرام قد سمع بأنباء غناه وبخله فأراد أن يجرب ذلك بنفسه ، فتنكر فى زى فارس من فرسان الملك وطرق بابه . ولما فتح الباب ادعى بهرام أنه ضل الطريق ويخشى أن يواصل السير ليلا ورجا اليهودى أن يستضيفه تلك الليلة . لكن اليهودى اعتذر له بحقارة المكان وضيق البيت وبأن ليس عنده مكان لاستضافته. فألح بهرام على اليهودى وأطال فى الالحاح حتى قبل أن يسمح له بالبقاء على شروط منها أن يقضى ليلته على عتبة الدار خلف الباب ، وأن لا يكلفه نفقة فى طعام أو شراب ، وأن يتعهد قبل رحيله فى الصباح بإزالة قذر الفرس وتنظيف المكان ، وأن يدفع تعويضاً مناسباً لكل ما قد يحطمه الفرس فقبل بهرام وحط سرجه ورحاله خلف الباب . وبعد قليل أتى اليهودى بالطعام فتعشى وحده ولم يدع ضيفه ثم جاء بالشراب فشرب وحده ولم يقدم شيئاً لضيفه . وفى الصباح عند ما هم بهرام بالرحيل استوقفه اليهودى وطلب إليه أن يفى بشرطه فيكنس ما تخلف عن الفرس وينظف المكان . والموضع الثانى الذى تعرضت فيه الشاهنامة لليهودية فى قصة مهبود وزير كسرى أنوشيروان . وكان لمهبود ولولديه شأن كبير عند كسرى أغاظ حاجبه فعزم هذا الحاجب على التخلص منهم بأن لجأ إلى أحد اليهود وعهد إليه الاحتيال فى القضاء عليهم. وقد نجح اليهودى فيما عهد به إليه ، ونجحت حيلته ، وقضى أنوشيروان على مهبود وأسرته وخلا الجو بذلك للحاجب ولليهودى شريكه فى الجريمة . ومن موجز هاتين القصتين يتبين القارىء كيف كانت الشاهنامة تنظر إلى اليهود وإلى اليهودية .

أما الإسلام فتارة يتحدث الفردوسى عنه حديثا شخصيا ذاتيا بمعنى أن هذا الحديث ليس مما يوجد فى النص الأصلى الذى ينظم عنه الشاعر . ومثل هذه الأشعار التى يتحدث فيها الشاعر هذا الحديث الشخصى توجد غالبا فى أوائل القصص أو خواتيمها ، أو عند التعرض لأحوال الشاعر الخاصة من ضعف أوفقر أو شيخوخة أو رزء أصيب به أو نحو ذلك . فالشاعر هنا فى هذه الأحاديث الشخصية الذاتية يعبر عن أفكاره وعواطفه وفى ثنايا هذا التعبير يتعرض للدين والاسلام . وتارة أخرى يتحدث عن الاسلام حديثاً موضوعياً لا دخل لأفكاره وعواطفه الخاصة فيه بمعنى أنه إنما ينظم ما يجده منثوراً فى مصادره عن الاسلام أو المسلمين . ومثل هذا الحديث هو الذى يرد فى سياق الحوادث والوقائع دون أن يكون له صلة شخصية بالشاعر .

وكل أشعار الشاعر الشخصية عن الاسلام لا تحتاج إلى مناقشة أو جهد ، لأنه فيها رجل مسلم مؤمن متشيع يفضل عليا على أصحابه ويخصه بالمدح والثناء حتى كانت هذه تهمته التى اتهم بها لدى السلطان محمود . والأمر هنا واضح . أما أشعاره الموضوعية فتحتاج إلى وقفة وتأمل . وتبدأ هذه الأشعار الموضوعية عن الاسلام برؤيا رآها كسرى أنوشيروان فى أواخر عهده . وتتلخص هذه الرؤيا التى رآها فى أن شمسا قد أشرقت وسطعت فى الليل على سلم ذى أربعين درجة وأنها استطالت وامتدت حتى بلغت عنان السماء . وكانت هذه الشمس تبزغ من الحجاز وقد عم نورها الآفاق حتى أصبح الكون كله منيرا إلا إيوان كسرى فإنه بقى مظلما . وقد أفزع كسرى ما رآه وكتم الأمر فى نفسه إلى أن أصبح الصباح فدعا إليه بزرجمهر وأسر إليه رؤياه . وقد فسرها بزرجمهر بظهور رجل من العرب بعد أربعين

عاما (من ذلك التاريخ) يدعو الناس إلى صراط مستقيم فيلتفون حوله ولا يتخلف عنه أحد . وبعد موت هـذا الرجل تتقـدم الجيوش من الحجاز نحو إيران فتلقى عن العرش من يتولى ملكها من أحفاد كسرى . وتلغى عند ذاك الاحتفالات الدينية فلا يبقى سذق أو غيره وتنطفىء النيران المقدسة وتنمحى عبادة النار والشمس [١] . وهـــذه القصة تشير إلى الدين الاسلامى إشارة الاحترام والتقدير وتصف النبي بأنه يدعو النـاس إلى صراط مستقيم . أما ما تذكره الشاهنامة فى ثنايا الحوادث التى جرت بين سعدبن أبى وقاص ورستم ابن هرمزد قائد الإيرانيين من أن العرب حفاة عراة لا يجلسون على تخت ولا يتسنمون فى حروبهم فيلا ، وأنهم يشربون الألبـــان ، ولا يعرفون فاخر اللباس وشهى الطعام وما إلى ذلك من النعوت والأوصاف فلا يصح أن يحمل على غير حقيقته فيما يتصـــل بالفردوسى نفسه . والحقيقة أن الفرس كانوا يصفون العرب بهذا وبأكثر منه وقد أجمعت المصادر التاريخية على صحة هذا فلا ذنب للفردوسى إذا أورد هـذا الـكلام التاريخى الصحيح ، ولا يصح أن يستدل من هذا الـكلام على أن الشاعر له ميول دينية لا تتفق مع الاسلام . ولا ضير على الشاعر كذلك إذا وصف قدوم شعبة بن المغيرة [٢] رسول سعد ابن أبى وقاص إلى قائد الإيرانيين فى ثياب مهلهلة وكيف كان يتجنب السير فوق البسط المفروشة ويمشى فوق التراب . فهذا ومثله من حقائق التاريخ . ثم هو - أى الفردوسى - يمجد الاسلام والمسلمين ، ويهون من شأن الدنيا

---

(١) الشاهنامه : ص ٢٥٦٤ ج ٨

(٢) الصواب المغيرة بن شعبه .

وزخرفها ولا ينخدع بزيفها وبهرجها من ملابس فاخرة أو مطاعم غالية أو متع فانية فى الكتاب الذى كتبه سعد بن أبى وقاص إلى رستم يدعوه فيه إلى الاسلام ويعده إذا دخل فى الدين الجديد ويتوعده إذا أبى . فالفردوسى إذاً لم يمس الاسلام والمسلمين بسوء . وإذا كان قد وصف العرب على لسان الفرس ببعض الأوصاف الخشنة : أو قدم لنا بعض الصور عن جهلهم بأسباب الحضارة التى كان ينعم بها الفرس فلا ضير عليه فى ذلك لأن هذا كله مما ثبت فى التاريخ . ولا يمكن أن نستفيد من هذا ما يدل على عداء الفردوسى للاسلام والمسلمين . صحيح أن الفردوسى يبدو فى كثير من المواضع معجبا بالقدماء من مواطنيه ، وأنه يأخذ على عاتقه الدفاع عنهم كما دافع عن عبادتهم للنار ونبه إلى أن النار لم تكن عندهم معبودة فى ذاتها . وشبه اتجاه الفرس فى صلواتهم نحو النار باتجاه المسلمين فى صلواتهم نحو الكعبة . وليست الكعبة معبودة عند المسلمين، وأنه يتأسف على ملكهم ومجدهم الذى زال على يد العرب . وهذا كله من تعصبه لقومه ولا يعقل أن نطلب من إيرانى غيور أن ينكر ما كان لقومه من المفاخر والأمجاد أو أن يبتهج لزوال ملكهم ودولتهم .

* * *

والروح الوطنية والقومية واضحة فى الشاهنامة وهى من أبرز خصائصها . وما ذكرناه من قبل ضروب من هذه الوطنية التى تعتز بكل ما هو إيرانى . وللشاهنامة فضل على الايرانيين فى هذه الناحية فقد كان الشعور الوطنى والعصبية الوطنية ضعيفين عند الايرانيين بعد الفتح الاسلامى . وعملت الحكومات العربية على إخماد الروح الوطنى عندهم ولم يعد للايرانى علم بتاريخ

بلاده القديم ولا بحضارتها التليدة ، وامتزج الايرانيون بالعرب واختفت مقوماتهم الشخصية . ولما قدم الفردوسى شاهنامته إلى الايرانيين وتداولوها سرت فيهم روح جديدة وأحسوا بشخصيتهم وكيانهم ومقوماتهم الذاتية وأخذوا يصلون حاضرهم بماضيهم بعد أن كانت الصلة بينهما منقطعة . وهذه الروح الوطنية سادت جميع الروايات والتآليف التى تتصل بتاريخ إيران القديم ومن بينها تلك الشاهنامة المنثورة التى اعتمد عليها الشاعر فى نظم شاهنامته . ولكن الفردوسى باعتباره شاعرا عظيما ، ووطنيا متعصبا زاد فى قوة تلك الروح وفى جمالها وفى شيوعها كذلك بعد أن ذاعت منظومته .

ويظهر أن عداوة الايرانيين للأتراك فى الشاهنامة التى عاش فى جوها الشاعر سنين طويلة حتى فرغ من النظم قد مكنت فى نفسه العداوة للأتراك فى الحياة الواقعية ، ولم يكن الشاعر يطيق أن يرى وطنه محكوما بالأتراك (الغزنيين) . وربما كان هذا الشعور الذى امتزج بنفس الشاعر فى القصة ، وفى الحياة سببا من أسباب الود المفقود بينه وبين السلطان محمود الغزنى .

وكثيرا مايطلق الشاعر لنفسه العنان فيتحدث مثلا عن شيخوخته وضعفه وفقره ، وعلاقاته الخاصة مع غيره من الناس ، والدنيا وأحوالها ، والكوارث التى حلت به كموت ابنه ، والأمل فى العطاء الذى كان يراوده من حين إلى حين ، واليأس من النوال الذى كان يتولاه بين وقت وآخر . وهذه الأشعار التى يتناول فيها الشاعر مثل هذه الموضوعات هى أشعاره الذاتية التى تعبر عن عواطفه وأفكاره الخاصة . ومن قبيل هذه الأشعار الذاتية التى أضافها الشاعر من عنده إلى النص الأصلى أشعاره فى مقدمة شاهنامته التى مدح فيها الله ،

والرسول، والعقل ، وتحدث فيها عن أصل الخليقة ، وخلق الإنسان ، الشمس، القمر ، وعن جمع الشاهنامه ، وعن قصة الدقيقى الشاعر الذى كان الرائد الأول ومدح فيها أبا منصور محمد ، والسلطان محمود . وإذا تركنا أشعار هذه المقدمة وجدنا له أشعارا ذاتية أخرى فى ثنايا القصص كأشعاره فى ممدوحيه من معاصريه أمثال السلطان محمود، وأبى العباس الفضل بن أحمد الأسفراينى، ونصر بن ناصر الدين سبكتكين ، وحيي قتيبه [١] ، وعلى الديلمى وغيرهم . ومن أشعاره الخاصة أيضاً تلك التى يبث فيها شكاته من الدنيا والشيخوخة . وله فى مفتتح بعض الفصول والقصص اضافات خاصة من عنده أراد بها أن يهيىء ذهن القارىء أو السامع لما يأتى من حوادث القصة كأشعاره فى بداية قصة سهراب التى تحدث فيها عن الأجل المحتوم الذى لا يفرق بين الشباب والشيوخ. وواضح أن غرضه من مثل هذه المقدمة الشعرية أن يعد ذهن القارىء لما يأتى بعد ذلك من موت سهراب وهو فى سن الشباب . ويذكر نولدكه عن هذه الأشعار الذاتية التى يتحدث فيها الشاعر عن نفسه أنها تدل على أنه شاعر غنائى من الطراز الأول . ومن الأمثلة على ذلك الأشعار التى يرثى فيها ولده . [٢]

* * *

ويبدو من قراءة الشاهنامة أن الفردوسى كان فيما نظمه دقيقا أمينا فلم يتصرف فى النص النثرى الذى ينظم عنه . وإذا نزعنا من منظومته تلك الأشعار الذاتية وجدنا أنه التزم النص الأصلى إلى حد بعيد. أما النزعات العامة

---

(١) فى بعض الروايات حسين قتيبه .

(٢) نولدكه : ص ٩٦

التى تتضمنها الشاهنامة عن التورانيين وازدرائهم ، أو العرب وعدائهم ، أو اليهود وتحقيرهم فهى من النزعات الموجودة فى النصوص التى ينظم عنها الفردوسى وليست من آرائه الخاصة . ومما يؤيد أمانته فى النقل ماذكرناه من قبل عن مطابقة الصفات التى تخلعها الشاهنامه على أبطالها مثل جمشيد وفريدون ومنوچهر وگشتاسپ واسفنديار للصفات التى تضفيها الكتب الدينية على هؤلاء الأبطال. ولو كان الشاعر تزيد فى منظومته ماوجدت هذه المطابقة ، ومطابقة كثير من الخطب التى توردها المنظومة للملوك عندما يتولون العرش لتلك الخطب التى جاءت نصوصها فى كتب التاريخ مثل الطبرى. ولايفوتنا أن نشير إلى أن خطب الملوك هذه التى كانوا يفتتحون بها عهدهم وإن اتفقت فى معانيها وموضوعاتها مع ماورد فى المؤلفات الاسلامية التاريخية إلا أنها فى الشاهنامة أطول وأكثر تفصيلا . وهذه بالطبع طبيعة الشاعر التى يفترق فيها عن المؤرخ الناثر . ومن أدلة الأمانة فى النقل عند الناظم أن تتطابق مادة الشاهنامة فى كثير من موضوعاتها مع ما ورد فى كتاب الثعالبى المعروف بغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم مما يدعو إلى الاعتقاد بأن كليهما نقل نقلا أمينا عن مصدر واحد أو مصادر متقاربة .

* * *

ويضفى الشاعر على حوادث المنظومة خيالا خصبا وعبارة جذابة فيخلق بذلك من القصص البسيطة شيئا ذا بال . وكثيرا ماتكون الحادثة نفسها تافهة ولكنه يكسوها بخياله وعبارته فتترك فى نفس القارىء أثرا قويا. وهومضطر، كشاعر ، إلى أن يفصل فى بيان الحوادث أوسرد القصص التى وردت مختصرة

فى الأصل الذى نظم عنه . ومن حقه الشعرى أن يضيف بعض التفاصيل الصغيرة ليجعل الموضوع حيا والصورة براقة جذابة . ولا يغفل الشاعر الدوافع الخفية والنزعات النفسية والاتجاهات العقلية . وليس تصوير الحوادث عنده بمجرد تصوير مادى للحركات والأفعال لأنه يضيف إلى ذلك تصوير النفوس ، والوجدان ، والانفعالات المختلفة .

* * *

وأسلوب المنظومة يغلب عليه السهولة والوضوح والجمل القصيرة . وكانت هذه الجمل القصيرة من خصائص اللغة الفارسية فى العهد السامانى والغزنى وقسم كبير من العهد السلجوقى . ويشيع فى القصة المبالغات كالغبار الذى تثيره الجيوش يحيل النهار ليلا ويتصاعد إلى السماء فينعقد سحابا ، والأسنة تلمع فى الظلام كالنجوم ، والسيوف تضىء كالشمس ، والأرض تنشق شقين من وقع حوافر الخيل ، والجبل يصبح بحرا لطوفان الدم الذى يغمره ، والسهل يصبح جبلا لتراكم جثث القتلى ، والجثث تتراكم حتى تبلغ السماء ، والجيش يبلغ من الضخامة وكثرة العدد بحيث تمنع اسلحته وأسنته حركة الريح ، والجبل يخيل للانسان أنه يتداعى من ضجيج المعركة ، والأسد يقبل مواضع القدمين ، والسحاب لا يجرؤ أن يمر فوق رأس البطل . . إلى غير هذه الأمثلة من المبالغة . وقد عاب كثيرون على المنظومة هذه المبالغات وهو تعسف منهم لأن القصة فى أغلب حوادثها خرافية ومما يتفق مع الخرافة المبالغة والتهويل بل إن الأصل فى الخرافة أن تكون تهويلا ومبالغة تخرج بهما عن نطاق الحقيقة والواقع . ثم إن هذه المبالغات مما يحسن فى الشعر ويجمل بها النظم . ولا يخلو

شعر شاعر فى أمة من الأمم من مثل هذه المبالغات . أضف إلى هذا كله أن القصة فى أغلب حوادثها تدور على الحرب والضرب ، والكر والفر ، وضروب البطولة ومظاهر القوة والشجاعة ومن ثم كانت المبالغات ضرورية فى مثل هذا الجو وإلا فتر القول وأصبح عند السامع باردا غثا .

ويحاول الفردوسى أن يرقى بأسلوبه إلى درجة رفيعة فلا يدخل من التعبيرات والألفاظ ماقد يبدو أنه عادى أو عامى . وله ولع باستعمال الكلمات القديمة التى قل تداولها فى العهد الاسلامى حتى يجعل من عبارته وألفاظه شيئا متميزا عما يتداوله الناس . كما يستعمل للمدلول الواحد جملة ألفاظ فالحرب عنده جنگ ، پيكار ، پرخاش ، نبرد . وقد حاول بدوافع من عصبيته للغته واعتداده بفارسيته أن يخلى منظومته تماما من الألفاظ العربية لكنه لم يوفق . وهو يستعمل فى ألفاظه المحسنات اللفظية وإن لم يقصد اليها عامدا فى كثير من الأحيان كقوله « بچنگ آر چنگ » (احضر العود فى قبضة يدك) وقوله باد باد (ليكن ريحا) وقوله سه ترك سترگ (الأتراك الثلاثة الأقوياء) وكاستعماله لكلمات متتابعة تتشابه أحرف البدء فيها مثل نام وننگ ، درودشت ، تير وتيغ ، نان ونمك .

* * *

ولم تسلم الشاهنامه من المؤاخذات . وقد أجمع الباحثون على أنها طويلة فوق ماينبغى وأن هذا الطول يبعث الملل والسآمة التى تعترى القارىء إذا واصل قراءتها . ومهما يكن الشىء جميلا فإنه إذا طال أمل وبدا فى عين الناس زهيدا . ولتجنب الملل ينصح نولدكه قارىء الشاهنامه أن يقرأها قطعة

قطعة (١) فلا يطيل القراءة إذا شرع فيها . وهذه السآمة مبعثها جملة أشياء منها هذا الطول فى النص الذى أشرنا اليه ومنها هذا الوزن الواحد الذى تلتزمه المنظومة من أولها إلى آخرها . ومن الطريف أن نذكر أن هذه المآخذ التى تؤخذ على الشاعر فى الوقت الحاضر خاصة باتحاد الوزن وطول المنظومة كانت لدى الشاعر من دواعى فخره . ولاشك فى أنه أطال المنظومة إلى هذا الحد واتخذ لها بحرا واحدا ليدل على طول نفسه وتمكنه فى فن النظم .

* * *

والتكرار من المآخذ التى تؤخذ على الشاهنامة وتدعو إلى الملالة . وقد يقع هذا التكرار فى العبارة والتشبيهات فكثيرا ماشبه البطل الذى يتحدث عنه بالسبع المفترس أو الفيل الثائر . وقد يقع هذا التكرار فى الأفكار والصور ، وقصص الحروب ومعارك الأبطال متشابهة فى الأغلب . وحسبك أن ترجع إلى المبارزات الاثنتى عشرة فى الفصل الخاص بالاثنى عشر رخا لترى أن أسلوب العرض فى كل مبارزة متشابه رغم كثرة عدد المبارزات .

ومن أمثلة التكرار قصة أردشير فى محاصرته لقلعة هفتواد . وكان هفتواد قد تحصن فى قلعة حصينة وهزم الجيوش التى أرسلها أردشير لحربه فتجهز اردشير بنفسه وتوجه لحربه لكنه لم يفلح فى القضاء عليه والاستيلاء على حصنه فلم يجد خيرا من اتخاذ الحيلة وتنكر هو ومن معه فى زى التجار وأوصى جنده أن يترقبوا الاشارة منه بعد أن يحتال على الدخول إلى القلعة . وبق

---

(١) نولدكه : ص ١٠٦

الجند فى مكان بعيد عن الحصن وتقدم هو فأخذ يلاطف الحراس ويستميلهم حتى أذنوا له بالدخول واستطاع أن يحرق الدودة التى كانت مصدر القوة والسعادة لهفتواد . فلما ارتفع دخان الحريق ، وكان هذا الدخان هو الاشارة المتفق عليها هجم جنوده على القلعة فاستولوا عليها وقتلوا هفتواد ونهبوا أمواله وكنوزه . وهذه الحيلة التى لجأ اليها أردشير تشبه تلك التى لجأ اليها أسفنديار فى حربه مع أرجاسب فقد علم اسفنديار أن القلعة التى تحصن فيها ارجاسب لاتفتح الا بالحيلة فلبس هو ومن معه ملابس التجار وحملوا معهم صناديق البضاعة والجواهر . واتجه اسفنديار إلى القلعة فطلب منه أهلها أن يبيعهم مما معه فرفض أن يبيع شيئا قبل أن يعرض على انظار الملك مامعه من البضائع والكنوز فإذا اختار منها ما راقه عرض بعد ذلك ما بقى معه على الأهلين ، فأدخلوه على الملك وتتعاقب حوادث القصة حتى إذا حانت الفرصة لأسفنديار أشعل النار فى سور القلعة . وكانت النار هى الاشارة المتفق عليها فهجمت جيوشه واستولت على القلعة وقضت على ارجاسب .

ويلاحظ هنا أن التكرار فى هاتين القصتين لايشمل الفكرة وحدها ولا الحيلة وحدها التى لجأ اليها كل من اسفنديار واردشير بل يشمل القصتين فى جميع تفاصيلهما وجزئياتهما حتى ليمكن أن نعتبرهما قصة واحدة تكررت مرتين فى زمنين مختلفين . فالقلعة التى تحصن فيها ارجاسب هى قلعة روئين دژ والطريق التى سلكها اليها اسفنديار تسمى هفتخوان . وهفتخوان بمعنى الموائد السبع . ويقال لها أيضا هفتخان أى المنازل السبعة . والقلعة التى تحصن فيها هفتواد كانت تسمى باسمه . وسموه كذلك لأن له سبعة أولاد . فالعدد سبعة مكرر

فى القصتين . وكان الذى دل اسفنديار على قلعة روئين دژ وقدم له المعلومات الكافية عنها تركيان قابلهما فى الطريق فأسرهما . ومثل هذا تماما حدث مع اردشير فإن الذى أوحى اليه أن يلجأ إلى الحيلة فى قتال هفتواد والاستيلاء على القلعة فلاحان صادفهما فى الطريق عندما عاد منهزما فى المرة الأولى . والاشارة التى اتفق عليها فى القصتين واحدة هى إشعال النار حتى يراها الجيش الكامن على بعد . ومن ثم ترى أن القصة تتكرر بفكرتها وتفاصيلها .

وإذا رجعنا إلى الوراء أكثر من ذلك وجدنا أن قصة اسفنديار فى مسيره إلى قلعة أرجاسب تشبه هى الأخرى قصة رستم فى مسيره إلى بلاد مازندران شبها كبيراً . فرستم قد اتخذ له دليلا يدله على موضع ملك الجن هو اسيره أولاد ، ووعده إن هو أخلص له النصح ودله على الطريق المؤدية أن يوليه بلاد مازندران . ولما وصل رستم إلى مازندران وأنقذ الملك كيكاوس كان عليه كى يصل إلى مقر ملك الجن « سپيد ديو » أن يجتاز سبعة جبال شاهقة . وفى مستهل الرحلة كان رستم قد لقى ساحرة فقتلها بسيفه . وكل هذه التفاصيل والأفكار تتكرر فى قصة اسفنديار . فقد اتخذ هو الآخر دليلا فى رحلته . وكان هذا الدليل أسيراً كذلك وهو كركسار ، وقد وعد اسفنديار أسيره كركسار إن هو أخلص له ودله على الطريق إلى قلعة أرجاسب أن يوليه على بلاد التوران . وكان على اسفنديار أن يتغلب فى طريقه الذى قطعه فى أسبوع على سبع من المهالك من بينها ساحرة قتلها بسيفه .

وقد لجأت الشاهنامة أيضا إلى نفس الوسيلة فى عهد سابور بن هرمز بن نرسى فإنه عندما عزم على غزو بلاد الروم رأى أولا أن يدخلها خلسة

لمشاهدتها والوقوف على أحوال قيصر بنفسه . وكانت طريقته فى ذلك هى نفس الطريقة السابقة : التخفى فى زى التجار .

ولما انكشفت حيلة سابور عند قيصر وعرف شخصيته الحقيقية أمر به فحبس فى القصر . وكان فى القصر جارية أحبها وأحبته فدبرت له سبيل الهرب وهربت هى الأخرى معه . وهذه الطريقة تكرار لما سبق فى أيام أردشير بن بابك إذ أحبته جلنار (گلنار) جارية أردوان وساعدته على الهروب والنجاة .

وقصة الثعبان الذى أزعج الناس فى بلاد الصين ولم يستطع أحد أن يقضى عليه حتى استعان الخاقان ببهرام چوبين الذى كفى الناس شره وخلصهم منه قصة مكررة . ففى عهد لهراسپ كان گشتاسپ قد خرج من بلاد إيران مجافياً أباه وذهب إلى أرض الروم حيث أقام هناك . وتصادف أن أميراً من أمراء الروم اسمه اهرن تقدم لخطبة ابنة قيصر فشرط عليه أن يقتل ذلك الثعبان المخيف الذى أزعج الناس فى جبل سقيلا قبل أن يزوجه ابنته . وكان الأمير أعجز من أن يفعل هذا فلجأ إلى گشتاسپ الذى قام عنه بهذه المهمة وأتاه بأنياب الثعبان فأخذها وأسرع إلى قيصر مدعياً أنه قتل الثعبان ووفى بالشرط .

* * *

وفى الشاهنامة أخطاء كثيرة بعضها يتصل بسير الحوادث وتناقضها، وبعضها يتصل بالحقائق التاريخية أو المعلومات الجغرافية . ومن المتناقض مثلا أن يقتل كلباد فى حرب كيقباد مع افراسياب ثم يرتد إلى الحياة فى أيام سياوش ، وقتل الوا بيد كاموس الكشانى فى عهد خسرو ثم ظهوره فى حرب اسفنديار ورستم، وقتل كهرم التورانى فى إحدى المبارزات المعروفة بيازده رخ ثم ظهوره فى

حرب گشتاسپ وارجاسپ . ومن الوقائع التى لا تستقيم حوادثها فى القصة أن يخرج رستم إلى بلاد التوران طلباً للثأر بعد قتل سياوش ، ويستولى على بلادهم ويحكمها مدة سبع سنوات ولكنه ينصرف بعد ذلك دون سبب مفهوم ، ويترك البلاد كأنه لم يغزها ولم يقهر أهلها . ومما يبدو غريبا موقف الفردوسى من الاسكندر فقد صوره بصورة جميلة لا تتفق مع موقف الإيرانيين عامة من أعدائهم . ومع أن الروايات القومية تضع الاسكندر فى صف الضحاك وافراسياب من أعداء البلاد الألداء إلا أن الشاهنامة تصل نسبه بالإيرانيين وتجعله إيرانياً . وقد عللنا فيما سبق لماذا اعتبر الفردوسى الاسكندر إيرانياً .

ومن أخطاء الشاهنامة المتصلة بالتاريخ اعتبارها الاسكندر المقدونى نصرانياً ، وادعاؤها أن أفريدون نقش الزنداقستا على جدران مدينة كندز التى عرفت فيما بعد باسم بيكند . وواضح أن الزنداقستا قد جاء به زردشت فى عهد گشتاسپ وبين أفريدون وگشتاسپ قرون طويلة . ويشبه هذا إقحام المسيحية والصليب فى حروب اسكندر ودارا ، واعتبار رسول الروم إلى بهرام گور تلميذ أفلاطون (١) .

والأخطاء الجغرافية فى الشاهنامة كثيرة تدل على أن معلومات الشاهنامة فى الناحية الجغرافية ضعيفة . فالشاهنامة مثلا تجعل تور الذى يعيش فى الشمال الشرقى لإيران وسلم الذى يعيش فى الشمال الغربى متجاورين رغم مابينهما من المسافات الشاسعة . ولعل سبب هذا التجاور فى القصة أنهما يمثلان شعبين احتكا بالإيرانيين فى حروب كثيرة فربطت الشاهنامة بينهما برباط التجاور .

---

(١) مقدمة الدكتور عزام : ص ٩٣

ومن الأخطاء الجغرافية أن المنذر الملك العربى كان يقوم بتربية بهرام گور فى اليمن . والمقصود بالطبع الحيرة . وتخلط الشاهنامه بين طيسفون (المدائن) وبغداد وتجعلهما مدينة واحدة . وتتزيد القصة تزيداً كبيراً فى مساحة بلاد مازندران وتحيطها بجو من الخرافات التى لا يصدقها عقل . ويعتبر الشاعر أن البرز هى أعلى القمم وغاب عن ذهنه أن هناك قمم الهملايا . ومن ذلك حديثه عن مدينة مكران وادعاؤه أنها على حدود الصين مع أنها تقع إلى الجنوب تماما من بلدته (١) . ثم كيف يتأتى أن تكون مدينة كنك فى الموضع الذى ذكرتها القصة ثم تقع قلعتها على غاية البعد منها بعد عبور البحر . وتتحدث الشاهنامة فى سياق حوادث الاسكندر عن مصر والأندلس كأنهما بلدان متجاوران ولا يبدو أى أثر لتقدير المسافة بينهما . وفى الفصل الخاص بطواف الاسكندر فى بلاد العالم من الخرافات والعجائب والخلط ما لا يحصى .

* * *

ويبدو أن الشاعر ينسى نفسه فى بعض المواضع فيقحم رأيه الخاص ويجريه على لسان إحدى شخصيات القصة . ومن أمثلة ذلك أن خراد بن برزين رسول پرويز إلى الروم يحاول أن يغرى قيصر بالرجوع عن دينه والدخول فى دين الإيرانيين ويتهم المسيحيين بأنهم يجعلون المسيح ابناً لله وبأنهم يؤمنون بمقتل نبيهم وصلبه . وفكرة تنزيه الله عن الولد ، وانكار قتل المسيح وصلبه فكرة إسلامية أفلتت من ذهن الفردوسى نفسه فجرى بها نظمه على لسان خراد . ذلك أن رسول پرويز « خراد » كان زردشتيا ولا يعقل أن يصدر مثل

---

(١) نولدكه : ص ٩٠ وما بعدها .

هذا الاتهام للمسيحيين عن غير مسلم . وإذا لم تكن هذه فكرة الفردوسى المسلم فمن الجائز أن تكون قد اقحمت فى العهد الاسلامى .

* * *

ويحسن هنا أن نشير إلى رأى مول فى الشاهنامه . ويتلخص فى أن الفردوسى كان ينظم مقيدا بما لديه من نصوص لم يعالج ما فيها من أخطاء . ولعل هذا يرجع إلى أن الروح النقدية ودراسة الأخبار لم تكن قد وجدت بعد ولذلك تكلم فى احدى المرات عن بغداد فى عهد افريدون وفى مكان آخر تحدث عن الاسكندر الأكبر واعتبره نصرانيا . وفى مكان ثالث مزج بين زردشت والنبى ابراهيم ، أو يرجع إلى أن أمانة الشاعر وعصبيته كانت تدفعه إلى التجاوز عن مثل هذه الأخطاء فى نصوص خاصة بملوك الفرس القدماء . ومن عيوب الشاهنامة فى نظر مول أنها لا تتكلم بنفس التفصيل عن كثير من الحوادث التى تتساوى فى أهميتها ، وأنها تنتقل من عهد إلى عهد انتقالات مفاجئة ، وأن كثيرا من حوادثها يتكرر مع تغييرات تافهة ، وأنها تتعصب لبطل واحد تجمع حوله كل حوادث العهد الذى تتحدث عنه . وهذه كلها دلائل تدل على أن الشاهنامة كانت تنقل عن مصادر اعتمدت على الروايات الشعبية الى لا تنضب حول بعض الموضوعات فى الوقت الذى لا تعنى فيه بموضوعات أخرى قد تكون أكثر أهمية . ويدل على هذا أيضاً الفجوات التى نراها فى القصة فمثلا نرى الفردوسى حين أعوزته المادة الفارسية الكافية فيما يتصل بعهد الاسكندر (وهذا مفهوم لأن الشعوب لا تتغنى بهزائمها) يفضل الاستعانة بالقصص التى ملأ بها الجنود اليونانيين الغرب عندعودتهم إلى

بلادهم بدلا من أن يستسلم للخيال فى موضوع كهذا خلو من المادة . وهذه القصص والروايات اليونانية كانت قد جمعت فى مجموعات كثيرة ولا يزال بعضها موجودا باليونانية واللاتينية . وقد ترجمت واحدة منها إلى العربية . وبواسطة هذه القصة الأخيرة ملأ الفردوسى الفراغ الذى صادفه فى الروايات الفارسية . (١)

* * *

ولبراون رأى غريب فى الشاهنامة وهو يذكر أن الناس قد اهتموا بها فى الشرق والغرب ولكنه لايجد فى نفسه مشاركة لهم فى هذا الاهتمام بها والتحمس لها . ولا تستطيع الشاهنامة فى نظره أن تقف فى صف واحد مع المعلقات العربية (٢) . ، وهذا رأى غريب كما قلنا .

* * *

وكثيرون من علماء الغربيين يعتبرون الشاهنامة من روائع الأعمال الأدبية العالمية ويضعونها فى صف الياذة هوميروس . والواقع أن الشاهنامة لاتقل شأنا عنها ومقارنة سريعة بينهما ترينا أوجه المشابهة والمخالفة فيما بينهما . فموضوع الالياذة الأساسى هو الحرب كما أن أهم موضوعات الشاهنامة الحرب . وكان أخيل من قومه اليونانيين بمنزلة رستم من قومه الايرانيين . ولما اشتد ضغط الطرواديين على اليونان فى الحرب وأوشكوا أن يقضوا عليهم هرعوا إلى أخيل يستنجدون به لقهر أعداء بلاده . وكذا كان الايرانيون يهرعون إلى

---

(١) مقدمة مول : ص LV

(٢) Browne : Lit. His of Persia. v. II p. 142 Cambridge 1951.

رستم كلما أعجزهم أن يتغلبوا على أعدائهم . وحين ظن كيكاوس فى نفسه القوة والقدرة على غزو بلاد مازندران منى بالهزيمة والأسر فلم يجد بدا من الاعتراف بالعجز والاستنجاد برستم . وحين وجه كيكاوس سياوش لملاقاة افراسياب كان عليه كى يضمن النصر والظفر أن يؤيده برستم . ووهم الايرانيون فى عهد كيخسرو أنهم قادرون على دحر أعدائهم التورانيين بقيادة پيران ، ولكنهم لم ينالوا النصر إلا بعد أن جاءتهم النجدة بقيادة رستم . وحين ظن اليونانيون أنهم قادرون على دفع أعدائهم الطرواديين بغير اشتراك أخيل رجعوا بالخسران المبين . وحاول أجاممنون أن يسترضى أخيل ليشترك فى القتال معهم ضد أهل طرواده ولكن أخيل ، وكان قد اعتزل قومه ، رفض فى بادىء الأمر أن يلبى رجاء أجاممنون ، فعول هذا الأخير على مواصلة الحرب وحده وقاتل قتال الأبطال لكنه جرح وكاد أهل طرواده أن يفتكوا باليونان وأخذوا فى تعقبهم إلى أن اقتحموا معسكرهم بقيادة هكتور فلم يجد الأغريق بدا من اللجوء إلى سفنهم على الساحل . وهنا ذهب بتروكل إلى أخيل ، وكان حبيبه وصفيه ، وأخذ يتضرع اليه أن يشترك فى القتال لإنقاذ الأغريق فما زاده ذلك إلا رفضا ، فتوسل اليه بتروكل أن يزوده بلباسه وسلاحه ليوهم الطرواديين أنه أخيل فيسهل عليه بذلك أن يهزمهم . وأذن أخيل لصاحبه وزوده بما طلب ، وانقض بتروكل ورجاله على أهل طرواده فأنقذ السفن من بين أيديهم بعدما كانت النيران قد بدأت تضطرم فيها ، واضطر أهل طرواده إلى التراجع وملكت نشوة الانتصار على بتروكل حواسه وعقله فأخذ يطارد اليونانيين ويتعقبهم فى غير تدبر أو وعى مما أدى إلى هلاكه آخر الأمر . ولما بلغ أخيل مقتل حبيبه بتروكل بكى وانتحب وصمم على الانتقام له وقبل عند ذلك

أن يشترك مع قومه فى القتال . ولكن بتروكل كان قد أخذ بزته وسلاحه فهو أعزل لا يستطيع القتال فوعدته أمه ثيتيس أن تأتيه بسلاح من صنع إله النار . ولما أستعد أخيل أقبل إلى ساحة القتال وصاح – كما كان يفعل رستم – صيحات ألقت الفزع فى قلوب أهل طرواده فانهزموا واستخلص الاغريق منهم جثة بطلهم بتروكل . وتم الصلح بين اجاممنون وأخيل وشنا على الأعداء هجوما قويا فتراجعوا إلى مدينتهم اليون بعد أن قتل منهم عدد عظيم وبقى هكتور خارج المدينة فلحقه أخيل وقاتله حتى خر هكتور صريعا . واجتمع الأغريق على جثة هكتور ومثلوا بها وأمعن أخيل فى التمثيل بجثة عدوه فربطها إلى مركبته ودار بها حول طرواده وأهلها ينظرون . ثم انتهت المفاوضات بين الطرفين إلى اعادة جثة هكتور إلى أهله .

ويلاحظ فيما يتصل بالناحية الجغرافية أن معلومات الألياذة صحيحة موثوق بها بينما رأينا أن الشاهنامة تخلط فى هذه الناحية خلطا كبيراً فى بعض المواضع .

وفى الألياذة تتدخل الآلهة تدخلا فعليا فى شئون الحرب والحياة فتنصر فريقا من المحاربين على فريق ، وينضم إلى كل فريق منهما عدد من الآلهة يسعى إلى نصرته وتأييده ، بل إن الآلهة نفسها تباشر القتال مباشرة فعلية فى بعض المواقف . أما الشاهنامة فلا أثر فيها للآلهة وتعددهم . وليس لها بطبيعة الحال دور فى حوادث القصة وخاصة فى حروبها ، بل إن جامع الشاهنامة أو ناظمها يدعى فى أكثر من موضع أن الفرس القدماء كانوا يعبدون إلها واحدا تنزيها لهم عن الشرك . وقد رددنا هذا الادعاء فى موضعه من قبل .

ويلاحظ فى الالياذة كثرة الصور وتعددها دون الوقوف وقفة تفصيلية عند كل صورة من هذه الصور . فهى صور سريعة متلاحقة لا يقف الشاعر عند دقائق كل صورة منها كما تفعل الشاهنامة ولنأخذ مثلا ، فى النشيد الثالث ، الموقف الخاص بالمبارزة بين فاريس الطروادى ومنيلا اليونانى. تقول المنظومة :

والسهل طووه على الأثر   والقسطل من عج الزمر
قد أضحى حجاب البصر   عن أكثر من مرمى حجر
ككثيف ضباب مربد
كضباب نوطس قد نشرا   فى قنة طود فاستترا
ولرؤيته الراعى ذعرا   لكن اللص به نظرا
خيرا من ليل مسود
جد الجيشان وقد هرعا   حتى هما أن يجتمعا
فإذا فاريس قد طلعا   وجميل محياه سطعا
وعدا يستهدف للطرد
يختال بحسن جباذ   بالقوس وسيف حذاذ
وبفروة فهد بذاذ   بيديه قناتا فولاذ
يتقدم مستبق الوفد
ويسير بعجب المختال   يدعو لبراز قتال
عمد الاغريق الأبطال   فرآه منيلا فى الحال
فبدا يتهلل بالرغد[1]

---

(١) ترجمة البستانى : ص ٣١٢ ط الهلال ١٩٠٤

فهو هنا وصف جيش الاغريق وهو يطوى السهول ويثير الغبار الذى يحجب البصر فلا يمتد إلا إلى مسافة قريبة (مرمى حجر) ووصف هذا الغبار بأنه كالضباب الذى ينتشر فى قمم الجبال فيخفيها وذكر أن الراعى يذعر لكثافة هذا الضباب لأنه لا يرى أغنامه رؤية واضحة فيسهل على اللص أن يسرقها . واللص هو الذى يسر من مثل هذا الضباب ويراه خيراً من الليل الأسود ، ثم يتحدث عن الجيشين جيش الطرواديين وجيش الأغريق فيذكر أنهما حثا السير حتى تقاربا . وطلع فاريس من جند الطرواديين يختال بحسنه وأدوات قتاله التى يحملها . فأنت هنا ترى مجموعة من الصور : السهل وهو يطوى ، الغبار وهو يثور فيخفى الرؤية كالضباب ، والجيشان وهما يجدان فى السير حتى يتقاربا ، وفاريس بطل الطرواديين وهو يخرج من بين قومه يطلب مبارزاً من بين صفوف الاغريق . هذه المجموعة من الصور كثيرة حقا لكن لا تفصيل فى كل صورة منها . أنظر مثلا إلى حديثه عن الجيشين وهما يجدان فى السير حتى كادا أن يتقاربا لا تجده يذكر شيئا يضفى على هذا المعنى صورة دقيقة مفصلة ، وانظر إلى حديثه عن فاريس تجده لا يتجاوز الصورة الحسية السطحية : حسن فاريس وسلاحه المكون من قوس وسيف وفروة فهد وقناتين ولا شىء غير هذا . ثم تتابع الألياذة وصف المبارزة بينهما إلى أن هرب فاريس فتقول :

كالليث يضوره السغب والظبى لديه يضطرب
فعليه منقضاً يثب ولو القناصون اقتربوا
بضراء تقبل للصد
بالعدة من أعلى العجلة بالشدة بادر بالعجلة
لا يبغى إلا أن يصله يقتص لجرم قد فعله
ومضى يتوقد بالحقد

نظر الاسكندر وامتقعا   فنجا لمعسكره هلعا
كالغر له فورا طلعا   صل فى الغاب قد اندفعا
فيعود بقلب منهد

والشاعر هنا يصف منيلا بعد أن وصف فاريس فيشبهه بالليث الذى افترس ظبياً لا يستطيع النجاة من بين براثنه ، وقد بادر إلى عدوه فاريس فى عجلته مزوداً بعدته لا يبغى إلا أن يقتص منه ؛ فلما وجده فاريس على هذه الصورة هلع واسرع بالفرار كالغر طلع عليه صل فى الغاب . وتنتهى بذلك المبارزة بينهما . قارن هذه الصورة بالمبارزات التى دارت فى موقعة الاثنى عشر رخا التى ذكرناها فيما سبق . ولتأخذ للمقارنة مثلا المبارزة التى جرت بين هومان التورانى وبيژن الايرانى ، ولتر ما بين المبارزتين من الفروق . ففى المبارزة بين التورانى والايرانى وصف دقيق لاستعداد الجيشين للقتال وتفصيلات جميلة للمبارزة لا ترى مثلها فى المبارزة بين فاريس ومنيلا . من تلك التفاصيل التى تضفى على المبارزة صورة حية فى الشاهنامة السهام التى تنفد ، والرماح التى تتكسر ، والسيوف التى تتثلم ، والتضارب المتصل ، وجفاف حلوق المتبارزين ، والغرق فى العرق ، والراحة ، ومعاودة القتال ، وانهزام هومان ، واجتزاز رأسه ، وتلوى جسده بعد فصل الرأس ، وغزارة الدماء التى سالت كالأنهار .

خذ مبارزة أخرى كالمبارزة التى دارت بين البطل گودرز قائد الايرانيين وپيران قائد التورانيين . تجد هناك مجموعة من الصور الصغيرة والتفصيلات الجزئية الدقيقة داخل الإطار العام للمبارزة . ومثل هذه التفصيلات هى التى تجعل المبارزة حية زاخرة بالحركة والحياة . فهذان البطلان يتبارزان بكل ما

ملكا من قوة وفن وأسلحة ، وها هو ذا پيران يقع به فرسه ويقع هو الآخر تحته فتنكسر يده اليمنى ، وها هو ذا قد أصبح عاجزاً عن مواصلة القتال فاضطر أن يهرب إلى جبل قريب يعصمه من خصمه . وها هو ذا گودرز قد تألم لمنظر خصمه الشيخ فى سقوطه تحت فرسه ، وفى إصابتـه ، وفى هروبه خوفا من الموت فأخذ ينصحه بالعودة ويعده بالأمان والسلامة فيأبى الشيخ الفار إلا أن يموت كما يموت الأبطال ويرمى خصمه گودرز فيصيبه فى عضده . وهنا اضطر گودرز أن يرقى اليه الجبل ويواصل قتاله حتى يقتله ويهم باجتزاز رأسه لكنه يعدل رحمة بالشيخ ، ثم تتملكه الشفقة عليه فيرفع علمه عند رأس عدوه المقتول ليقى وجهه حرارة الشمس القائظة فى تلك الصحراء . ولا ينسى الشاعر فى غمرة هذه المبارزة المثيرة أن يصور لنا حال الايرانيين وقد غاب عنهم گودرز فأخذوا يبكونه وينتحبون ظناً منهم أنه انهزم وقتل حتى إذا رأوا علمه مرفوعاً عادوا إلى الفرح والسرور ودقوا الطبول . . . الخ . قارن هذه المبارزة بما تجده فى النشيد الثالث من الالياذة وعلق عليها بما تراه . وسيكون رأيك ما رأيناه وقدمناه . ولا تنس المبارزة بين سهراب ورستم فى الشاهنامة فهى من أجمل وأقوى وأشد مواقف الشاهنامة إثارة للنفوس . ابن يبارز أباه وكلاهما لا يدرى صلته بالآخر . كلاهما قوى جبار فتطول المبارزة بينهما حتى تتكسر السيوف ، ويسيل العرق ، ويشتد التعب ، ثم يستريحان ساعة يعودان بعدها إلى القتال ، ويطول الأمر بينهما إلى أن يتمكن الابن من ضرب أبيه ضربة شديدة يظن أنها مهدت له سبيل الظفر بخصمه وهو الأب . ولكن الليل يأتى ويتوقف القتال بينهما ويسترد الأب فى الصباح ما كان قد فقده فى الأمس من النشاط والقوة بعد تلك الضربة ويقبل على مقاتلة ابنه عنيفاً جباراً . . . إلى

آخر القصة وقد ذكرت فيما سبق .

* * *

وليس فى الالياذة الاستطرادات المطولة التى نجدها فى الشاهنامة. والموضوع فيها يكاد يكون متصلا لا يفصل أجزاءه فواصل طويلة من الاستطرادات بعكس الشاهنامة إذ ينسى ناظمها موضوعه أحياناً وينساق وراء نفسه وعواطفه وأفكاره قبل أن ينتبه إلى الموضوع الذى خلفه وراءه . ومثل هذه الاستطرادات فى الشاهنامة مما يبعث على الملل والسآمة ويطيل المنظومة إطالة كبيرة بغير داع أو ربما كانت الإطالة على هذا النحو مقصودة عند ناظم الشاهنامة للإبانة عن مهارته وقدرته فى نظم العدد الكبير من أبيات الشعر . والخطب التى يوردها هوميروس على لسان أبطاله ليست من الطول والافاضة التى نراها بها عند الفردوسى .

فهرست موجز

القسم الأول : دراسات تاريخية

القسم الثانى : دراسات موضوعية

فهرست مفصل

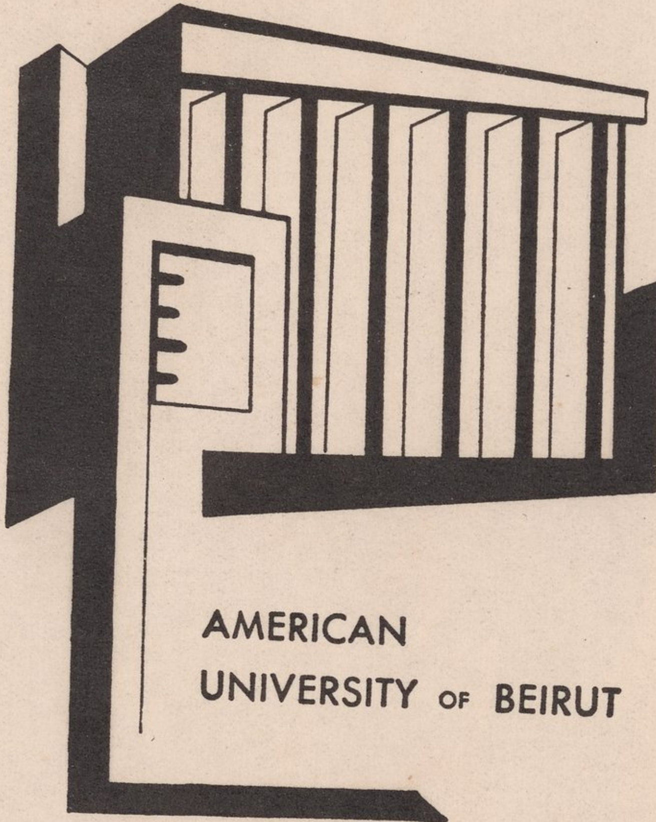
القسم الأول : دراسات تاريخية

تصويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية نذكر تصويبها فيما يأتى :

صفحة	سطر	خطـأ	صواب
١٣	هامش	٤	١
٢٨	٣	أول	الأول
٢٩	١٧	لرجل	الرجل
٣١	١٢	چو يين	چو بين
٦٩	٦	قليم	اقليم
٦٩	١٨	ابنة	ابنه
٨٤	١	نميزها	نميزهما
٩١	١	ا	ابن
١٠٠	١١	إذا	إذ
١١١	هامش ٢	ص ١٢	١٢٢
١١٢	١١	الشاهامنه	الشاهنامه
١١٧	العنوان	١ —	١٠ —
١٦٦	٧	منهما	منها
٢٠٨	هامش ٢	ص ٦٩	ص ٦٤٢ ج ١
٢٣٦	١٠	شريمه	شريعة
٢٤٣	١٠	لأول	الأول
٢٥٨	٢٢	حوجنى	أحوجنى
٢٧١	١	انتاشر	انتشار




AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT